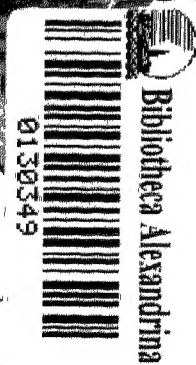


مَحَلُّ رَسُولِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ مَعَهُ



غزوة الجند

عبد الحميد جوده السحار

السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ
وَالَّذِينَ مَعَهُ

غَزْوَةُ أُحُدٍ

عبد المحميد جوده البخار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ إن
يمسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداؤها بين
الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا
يحب الظالمين * ولیمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين * أم
حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم
ويعلم الصابرين * ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه
فقد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴿

(قرآن كريم)

اختلف المسلمون في الخروج من المدينة والمقام بها ،
وكره — ﷺ — الخروج لما علم أن قريشا قد أقبلت لحربه ، ثم خرج
على مضض ، ثم ندم القوم الذين أشاروا بالخروج وقالوا :
— ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدالك ، وما كان لنا أن نستكرهك
والأمر إلى الله ثم إليك .
فقال — ﷺ :

— قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم ، ولا ينبغي لنبي إذا لبس
لأُمته (١) أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه .
ثم قال لهم :

— انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه ، امضوا على اسم الله فلكم النصر ما صبرتم .
وجاء جُعيل بن سراقة وهو يتنفس مكروبا فقال :
— يا رسول الله قيل لي إنك تُقتل غدا .
فضرب النبي — ﷺ — بيده إلى صدره وقال :
— أليس الدهر كله غدا ؟

ثم دعا بثلاثة رماح فعقد ثلاثة ألوية ، فدفع لواء الأوس إلى أسيد بن حُضَيْر ،
ودفع لواء الخزرج إلى الحباب بن المنذر بن جموح ، ودفع لواء المهاجرين إلى علي بن

(١) المراد عدة القتال .

أبى طالب ، ثم دعا بفرسه فركبه وتقلد القوس وأخذ بيده قناة والمسلمون متلبسون السلاح قد أظهروا الدروع فهم مائة دارع . فلما ركب — ﷺ — خرج السعدان أمامه يعدوان : سعد بن معاذ وسعد بن عباد كل واحد منهما دارع ، والناس عن يمينه وشماله حتى سلك على البدائع ، ثم زقاق الحُسنَى ، حتى أتى الشيخين ، وهما أطمأن كانا في الجاهلية فيهما شيخ أعشى وعجوز عمياء يتحدثان ، فسمى الأطمأن الشيخين .

وانتهى — ﷺ — إلى رأس الثنية فسمع جلبة وأصواتا مرتفعة ، فالتفت فقال :

— ما هذه ؟

— هذه حلفاء ابن أبي من اليهود .

— إسلموا ؟

— لا .

— إنا لا نتصر بأهل الكفر على أهل الشرك .

— يا رسول الله ألا نستعين بحلفائنا من يهود ؟

— لا حاجة لنا فيهم .

وردهم رسول الله — ﷺ — ، وأحس عبد الله بن أبي بن سلول

مهانة وطفق يفكر في ذلك الرد وتراوده فكرة أن ينخذل برجاله عن

الجيش احتجاجا على ما فعله رسول الله عليه السلام بحلفائه !

ومضر رسول الله — ﷺ — وعرض عسكره بالشيخين ، فعرض

عليه غلمان منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت وأسامة بن

زيد والنعمان بن بشير وزيد بن أرقم والبراء بن عازب وأسيد بن ظهير

— ٦ —

وعرابة بن أوس وأبو سعيد الخدري وسُمره بن جندب ورافع بن خديج ،
فردهم رسول الله — صلى الله عليه وآله — فالتفت ظهير بن رافع إلى رافع
بن خديج ثم قال :
— يا رسول الله إنه رام يعينني .

وجعل رافع يتناول وعليه خفان له ، فأجازه رسول الله — ﷺ — .
فلما أجازه قال سُمره بن جندب لمرى بن سنان الحارث وهو زوج أمه :
— يا أبيه ، أجاز رسول الله — ﷺ — رافع بن خديج وردني وأنا
أصرع رافعا !

فقال مرى :
— يا رسول الله رددت ابني وأجزت رافع بن خديج وابني يصرعه !
فقال رسول الله — ﷺ — :
— تصارعا .

فصرع سمره رافعا فأجازه رسول الله — ﷺ — .
وأقبل ابن أبي فنزل ناحية العسكر ، فجعل حلفاؤه ومن معه من
المنافقين يقولون لابن أبي :
— أشرت عليه بالرأى ونصحتته وأخبرته أن هذا رأى من مضى من
آبائك ، وكان ذلك رأيه مع رأيك فأبى أن يقبله وأطاع هؤلاء الغلمان
الذين معه .

فصادفوا من ابن أبي نفاقا وغشا . وغابت الشمس فأذن بلال بالمغرب
فصلى رسول الله — ﷺ — ، ثم أذن بالعشاء فصلى رسول الله
— ﷺ — ورسول الله عليه السلام نازل في بني النجار ، واستعمل على
الحرس محمد بن مسبلمة في خمسين رجلا يطيفون بالمعسكر ، حتى إذا كان

آخر الليل سار .

ورأى المشركون رسول الله — ﷺ — حيث أدلج ونزل بالشيخين ، فجمعوا خيلهم وظهرهم واستعملوا على حرسهم عكرمة بن أبى جهل فى خيل من المشركين . وباتت صاهلة خيلهم لا تهدأ تدنو طلائعهم حتى تلصق بالحرة فلا تصعد فيها حتى ترجع خيلهم ويهابون موضع الحرة ومحمد بن مسلمة .

وكان السحر فقال رسول الله ﷺ :

— أين الأدلاء ؟ من رجل يدلنا على الطريق ويخرجنا على القوم من كتب ؟

فقام أبو خثيمة الحارثى فقال :

— أنا يا رسول الله .

فخرج برسول الله — ﷺ — وركب فرسه فسللك به فى بنى حارثة ، ثم أخذ فى الأموال حتى مر بحائط^(١) مربع بين قيطى وكان أعمى البصر منافقا . فلما دخل رسول الله — ﷺ — حائطه قام يحشى التراب فى وجوه المسلمين ويقول :

— إن كنت رسول الله فلا تدخل حائطى فلا أحله لك .

فضربه سعد بن زيد الأشهلى بقوس فى يده فشججه فى رأسه فنزل الدم ، فغضب له بعض بنى حارثة ممن هو على مثل رأيه فقال :

— هى عداوتكم يا بنى عبد الأشهل لا تدعونها أبدا .

فقال أسيد بن خضير :

(١) حديقة .

— لا والله ولكن نفاقكم . والله لولا أنى لا أدرى ما يوافق النبى
 — ﷺ — لضربت عنقه وعنق من هو على مثل رأيه .
 ونهاهم النبى — ﷺ — عن الكلام فأسكتوا .
 ومضى رسول الله — ﷺ — ، فبينما هو فى مسيره إذ ذب فرس أبى
 بردة بن نيار بدينه فأصاب كلاب سيفه فسل سيفه . فقال رسول الله
 ﷺ :

— يا صاحب السيف شمْ (اغمد) سيفك ، فإنى إخال السيوف
 ستسل اليوم فيكثر سلها .
 ولبس رسول الله — ﷺ — من الشيخين درعا واحدة ، حتى انتهى
 إلى أحد فلبس درعا أخرى ومغفرا وبيضة فوق المغفر . فلما نهض رسول
 الله — ﷺ — من الشيخين زحف المشركون على تعبئة . ونزل رسول
 الله والذين معه بالشوط حائط بين المدينة وأحد . وحانت الصلاة وهو
 يرى المشركين فأمر بلالا فأذن ، وأقام وصلى بأصحابه الصبح صفوفا .
 وقام عبد الله بن أبى بن سلول فى قومه وقال :
 — أطاعهم وعصانى . ما ندرى علام نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس ؟
 ورجع ابن سلول وتبعه ثلاثمائة من قومه من أهل النفاق والريب ،
 فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام فقال :
 — أذكركم الله ودينكم ونيبكم وما شرطتم لله أن تمنعوه مما تمنعون منه
 أنفسكم وأولادكم ونساءكم .

— لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم ولكننا لا نرى أنه يكون قتال .
 وإن أطعنى يا أبأ جابر لترجعن فإن أهل الرأى والحجى قد رجعوا ، ونحن
 ناصروه فى مدينتنا وقد خالفنا وأشرت عليه بالرأى فأبى إلا طواعية

الغلمان .

فلما أبى عبد الله بن أبي أن يرجع ودخل هو وأصحابه أزقة المدينة ،
قال لهم أبو جابر :

— أبعدكم الله ! إن الله سيفنى النبی والمؤمنين عن نصرکم .

فلما رجع عبد الله بن أبي بمن معه قالت بنو حارثة من الأوس :
— نقتلهم .

وقالت بنو سلمة من الخزرج :
— لا نقتلهم .

وهما أن يقتتلا فأنزل الله تعالى : ﴿فما لكم في المنافقين فئتين والله
أركسهم بما كسبوا أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضل الله فلن تجد
له سبيلاً﴾ (١) . ﴿إذ هم طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله
فليتوكل المؤمنون﴾ (٢) .

وبقى مع رسول الله ﷺ — سبعمائة رجل ، ولم يكن مع
المسلمين يومئذ إلا فرسان : فرس لرسول الله ﷺ — وفرس لأبي
بردة . ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل الشعب من أحد وبات به ليلة ،
وحانت صلاة الصبح والمسلمون يرون المشركين ، فأذن بلال وأقام
رسول الله ﷺ بأصحابه ، ثم خطب خطبة حثهم فيها على الجهاد :
« أيها الناس أوصيكم بما أوصاني به الله في كتابه من العمل بطاعته ،
والتناهي عن محارمه . وإنكم اليوم بمنزل أجر وذخر لمن ذكر الذي عليه ثم

(١) النساء ٨٨ .

(٢) آل عمران ١٢٢ .

وطن نفسه على الصبر واليقين والجد والنشاط ، فإن جهاد العدو شديد كربه ، قليل من يصبر عليه إلا من عزم له على رشده .

إن الله مع من أطاعه وإن الشيطان مع من عصاه ، فاستفتحوا أعمالكم بالصبر على الجهاد . واتمسوا بذلك ما وعدكم الله . وعليكم بالذى أمركم به فإني حريص على رشدكم .

إن الاختلاف والتنازع والتثبيط من أمر العجز والضعف ، وهو ما لا يحبه الله ولا يعطى عليه النصر والظفر .

من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعليه الجمعة إلا صبيا أو امرأة أو مريضا أو عبدا مملوكا . ومن استغنى عنها استغنى الله عنه والله غنى حميد . ما أعلم من عمل يقربكم إلى الله تعالى إلا وقد أمرتكم به ، ولا أعلم من عمل يقربكم من النار إلا وقد نهيتكم عنه . وإنه قد نفث وألقى في روعي الروح الأمين أنه لن تموت نفس حتى تستوفى أقصى رزقها ولا ينقص منه شيء وإن أبطأ عنها ، فاتقوا الله ربكم وأجملوا في طلب الرزق لا يحملنكم استبطاؤه أن تطلبوه بمعصية الله . والمؤمن من المؤمن كالرأس من الجسد إذا اشتكى تداعى إليه سائر الجسد والسلام عليكم » .

وجعل رسول الله ظهر جيشه إلى أحد وقال :

— لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال .

وانصرف عبد الله بن عمرو بن حزام من عند عبد الله بن أبي بن سلول وقد يئس من رجوعه ومن معه لمؤازرة رسول الله عليه السلام ، وطل يعدو حتى لحق برسول الله — ﷺ — وهو يسوى الصفوف .

وسرحت قریش الإبل والخيل في زروع كانت بقرب أحد ، فقال رجل من الأنصار حين نهى رسول الله — ﷺ — عن القتال :

— أترعى زروع بنى قبيلة^(١) ولما نضارب !

وتعبأت قريش وهم ثلاثة آلاف رجل ومعهم مئتا فرس قد قادوها إلى جنوبهم ، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد وعلى ميسرتها عكرمة بن أبى جهل ، وجعلوا على الخيل صفوان بن أمية ، وعلى الرماة عبد الله بن أبى ربيعة وكانوا مائة رام ، ودفعوا اللواء إلى طلحة بن أبى طلحة ، وصاح أبو سفيان :

— يا بنى عبد الدار نحن نعرف أنكم أحق باللواء منا وأنا أتينا يوم بدر من اللواء . وإنما يؤتى القوم من قبل لوائهم فالزموا لواءكم وحافظوا عليه وخلوا بيننا وبينه ، فإننا قوم مستميتون موتورون نطلب ثأرا حديث عهد .

ولم يجد كلامه قبولا فجعل يقول :

— إذا زالت الألوية فما قوام الناس وبقاؤهم بعدها ؟

فغضبت بنو عبد الدار وقالوا :

— نحن نسلم لواءنا ؟ لا كان هذا أبدا . وأما المحافظة عليه فسترى .
ثم أسندوا الرماح إليه وأحدثت به بنو عبد الدار وأغلظوا لأبى سفيان بعض الإغلاظ . فقال أبو سفيان :

— فنجعل لواء آخر .

— نعم ولا يحمله إلا رجل من بنى عبد الدار لا كان غير ذلك أبدا !
وجعل رسول الله ﷺ — يمشى على رجله يسوى تلك الصفوف ويبوء أصحابه مقاعد للقتال ، ويقول :

(١) بنو قبيلة هم الأوس والخزرج ، وقبيلة أم من أمهات الأنصار نسبوه إليها .

— ١٢ —

— تقدم يا فلان وتأخر يا فلان .
 حتى إنه ليرى منكب الرجل خارجا فيؤخره فهو يقومهم كأنما يقوم
 القداح ، حتى إذا استوت الصفوف سأل :
 — من يحمل لواء المشركين ؟
 — عبد الدار .
 — نحن أحق بالوفاء منهم ، أين مصعب بن عمير ؟
 كان مصعب من عبد الدار وكان لواء قريش فيهم قبل الإسلام ، فلما
 سمع مصعب بن عمير قول رسول الله عليه السلام قال :
 — هأنذا .
 — خذ اللواء .

فأخذه مصعب فتقدم به بين يدي رسول الله ﷺ — .
 ونظر على إلى مصعب بن عمير إذا به يذكر ذلك اليوم الذي كانوا فيه
 جلوسا مع رسول الله ﷺ — ، إذ طلع عليهم مصعب بن عمير ما
 عليه إلا بردة مرقعة بفرو . فلما رآه رسول الله ﷺ — بكى للذي
 كان فيه مصعب من النعمة ثم قال :
 — كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة وراح في أخرى ووضعت بين
 يديه صحيفة ورفعت أخرى وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة ؟
 قالوا :

— يا رسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم : نكفي المؤنة ونتفرغ
 للعبادة .
 — بل أنتم خير منكم يومئذ .

وأقبل خالد بن الوليد ومعه عكرمة بن أبي جهل . بعث رسول الله

الزبير بن العوام وقال له :

— استقبل خالد بن الوليد .

وأمر على الرماة عبد الله بن جبير وكانوا خمسين رجلا ، وقالوا له :
— انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا واثبت مكانك إن كان لنا
أو علينا ، إن رأيتمونا تتخطفنا الطير فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، وإن
رأيتمونا ظهرنا على القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم ، وإن
رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا .

ودنا عبد الله بن جحش من رسول الله ﷺ — وقال :
— يا رسول الله ، إن هؤلاء القوم قد نزلوا بحيث ترى ، فقد سألت الله
فقلت : اللهم أقسم عليك أن تلقى العدو غدا فيقتلونى ويقرؤا بطنى
ويمثلوا لى ، فتقول لى : فيم صنع بك هذا ؟ فأقول : فيك .
وأنا أسألك يا رسول الله أخرى ، أن تلى تركتى من بعدى .

— نعم .

وتصاف القوم للقتال ، وجلس رسول الله ﷺ — تحت راية
مصعب بن عمير .

كان مخيريق اليهودى من أخبار يهود ، فقال يوم السبت ورسول الله
— عليه السلام — بأحد :

— يا معشر يهود والله إنكم لتعلمون أن محمدا نبى ، وأن نصره عليكم
حق .

فقالوا :

— ويحك ! اليوم يوم السبت .

— لا سبت .

ثم أخذ سلاحه وقال :

— إن أصبت فأموالى لمحمد يضعها حيث أراه الله فيه .

وخرج مخيريق خير يهود إلى أحد ، فإذا بهند بنت عتبة قد قامت أمام
صفوف المشركين فى النسوة اللاتي معها وأخذن الدفوف يضررن بها
وقالت :

ويها بنى عبد الدار ويها حماة الأدبار

ضربا بكل بتار

إن تقبلوا نعانق ونفـرش الثمارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق^(١)

(١) وامق : محب .

ثم رجع النسوة ليكن إلى مؤخر الصف ، وتقدم أبو عامر عبد عمرو بن صفى بن مالك بن النعمان في الأحابيش وعبدان أهل مكة فنادى :
— يا معشر الأوس أنا أبو عامر .

كان أبو عامر الفاسق خرج من المدينة إلى مكة مباعدا لرسول الله ﷺ — ومعه خمسون غلاما من الأوس ، وكان يعد قريشا أن لو قد لقي قومه لم يختلف عليه منهم رجلان . وهو يتقدم الآن ليثبت لقريش أنه لا يزال الراهب الذى تتعلق به أفئدة قومه ، وأن محمد بن عبد الله إن كان قد أطلق عليه اسم « الفاسق » فإنما كان ذلك حسدا منه . وبلغ نداء أئى عامر مسامع قومه فقالوا :

— فلا أنعم الله بك عينا يا فاسق .

فلما سمع ردهم عليه قال :

— لقد أصاب قومى بعدى شرا .

واستأذن حنظلة بن أئى عامر رسول الله ﷺ — فى قتل أبيه الفاسق فنهاه عن قتله ، فتراموا بالحجارة هم والمسلمون حتى تراضخوا بها ساعة إلى أن ولى أبو عامر وأصحابه .

مر وحشى ومعه مزاريق بهند بنت عتبة فقالت له :

— إيه أبا دُسمة ! اشف واستشف .

وكان قُزَمان من المنافقين وكان قد تخلف عن أحد ، فلما أصبح عبره

نساء بنى ظفر فقلن :

— يا قُزَمان قد خرج الرجال وبقيت ! استحى يا قُزَمان ألا تستحى

مما صنعت ؟

وطاف بذهنه أن رسول الله ﷺ — إذا ذكره قال من أهل النار ،

فوطن النفس على عدم الخروج وأعرض عما تقول له النسوة ، ولكنهن
ألحنن في تعبيره فقلن :

— ما أنت إلا امرأة ، خرج قومك وبقيت في الدار .

فثار لكرامته فدخل بيته فأخرج سهمه وجعبته وسيفه وخرج يعدو
حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ — وهو يسوى صفوف المسلمين ،
فجاء من خلف الصف حتى انتهى إلى الصف الأول فكان فيه ، وكان أول
من رمى بسهم من المسلمين ، جعل يرسل نبلا كأنها الرماح وإنه ليصيح
صياح الجمل ، ثم صار إلى السيف ففعل الأفاعيل والمسلمون مشدوهين
وفي رعوسهم استفسار : أهذا الذي يفعل الأعاجيب من أهل النار ؟
وأخرج رسول الله عليه السلام سيفا وكان مكتوب في إحدى
صفحتيه :

في الجبن عار وفي الإقبال مكرمة

والمرء بالجبن لا ينجو من القدر

وقال :

— من يأخذ هذا السيف بحقه ؟

فقام إليه علي بن أبي طالب ليأخذه ، فقال له عليه السلام :

— اجلس .

وقام عمر فأعرض عنه ، وطلبه الزبير بن العوام ثلاث مرات كل ذلك

ورسول الله يعرض عنه ، حتى قام إليه أبو دجانة وقال :

— وما حقه يا رسول الله .

— تضرب به في وجه العدو حتى ينحني .

— أنا آخذه بحقه .

كان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب إذا كانت ، وكان إذا
أُغْلِمَ بعصاة له حمراء فاعتصب بها علم الناس أنه سيقا تل . فلما أخذ
السيف من يد رسول الله ﷺ — أخرج عصا بته تلك فعصب بها
رأسه ، وحين رآه رسول الله ﷺ — يتبخر بين الصفيين قال :
— إنها لمشية يبغيضها الله إلا في مثل هذا الموطن .
ونادى أبو سفيان :

— يا معشر الأوس والخزرج خلو بيننا وبين بني عمنا ونصرف
عنكم .

فشتموه أقبح شتم ولعنوه أشد اللعن .
وخرج رجل من المشركين على بعير له فدعا للبراز فأحجم عنه الناس
حتى دعا ثلاثاً ، فقام إليه الزبير فوثب حتى استوى معه على البعير ثم عانقه
فاقتتلا فوق البعير ، فقال رسول الله ﷺ — :
— الذى يلى حضيض الأرض مقتول .

وكتمت الأنفاس ومدت العيون إلى ذلك العراك الدائر فوق البعير ،
فوقع المشرك فوق عليه الزبير بن العوام فذبجه ، فأننى عليه رسول الله
ﷺ — وقال :

— لكل نبى حوارى وإن حوارى الزبير .
ثم التفت عليه السلام إلى من حوله وقال :
— لو لم يبرز إليه الزبير لبرزت إليه .
وخرج طلحة بن أبى طلحة وبيده لواء المشركين وطلب المبارزة
مراراً ، فلم يخرج إليه أحد فقال :
— يا أصحاب محمد زعمتم أن قتلاكم إلى الجنة وأن قتلانا إلى النار ،

(غزوة أحد)

فهل أحد منكم يعجلني بسيفه إلى النار أو أعجله بسيفي إلى الجنة ؟ كذبت
واللات والعزى لو كنتم تعلمون ذلك حقا لخرج إلى بعضكم .

وخرج إليه على بن أبى طالب ورسول الله ﷺ — جالس تحت
الراية عليه درعان ومغفر وبيضة ، فالتقيا فحمل طلحة على عليّ عليه
السلام فضربه بالسيف فاتقاه بالدركة فلم يصنع شيئا ، وحمل عليّ عليه
السلام وعلى طلحة درع ومغفر فضربه بالسيف فقطع ساقه ، ثم أراد أن
يجهز عليه فسأله طلحة بالرحم ألا يفعل فتركه ولم يجهم عليه .

وسر رسول الله ﷺ وكبر تكبيرا عاليا وكبر المسلمون ، ثم شد أصحاب
رسول الله ﷺ — على كتائب المشركين فجعلوا يضربون وجوههم
وهم ينادون بشعارهم :
— أمت .. أمت .

كان الزبير بن العوام قد وجد في نفسه حين سأل رسول الله
ﷺ — السيف فمنعه وأعطاه أبا دجانة وقال :
« أنا ابن صفية عمته ومن قریش ، وقد قتت إليه فسألته إياه قبله فأعطاه
إياه وتركني ، والله لأنظرن ما يصنع » .

وراح الزبير يقاتل وهو يتبع أبا دجانة ، فإذا بأبي دجانة يقاتل ويمعن في
الناس لا يلقي أحدا إلا قتله ، وكان في المشركين رجل لا يدع للمسلمين
جريحا إلا أجهز عليه فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه ، فدعا الزبير
الله أن يجمع بينهما فالتقيا فاختلفا ضربتين ، فضرب المشرك أبا دجانة
فاتقاه بدركته فعضت بسيفه . فضربه أبو دجانة فقتله . فأيقن الزبير أن أبا
دجانة قد أخذ سيف رسول الله ﷺ عليه السلام بحقه ، وذهب ما كان في
نفسه من وجد عليه .

ثم حمل لواء المشركين بعد طلحة أخوه عثمان بن أبى طلحة فارتجز يقول :

إن على رب اللواء حقاً أن تخضب الصعدة أو تدقا
فتقدم باللواء والنسوة خلفه يحرضن ويضربن بالدفوف فحمل عليه
حمزة بن عبد المطلب فضربه بالسيف على كاهله فقطع يده وكفه حتى
انتهى إلى مؤتزره فبدت رثته ، فرجع حمزة وهو يقول :
— أنا بن ساقى الحجيج .

والتقط لواء المشركين أخو عثمان وأخو طلحة وهو أبو سعيد بن أبى
طلحة ، فقامت النساء خلفه يقلن :

ضربا بنى عبد السدار ضربا حماة الأدبار
ضربا بكل بتار^(١)

فحمل عليه سعد بن أبى وقاص فقطع يده اليمنى . فأخذ اللواء بيده
اليسرى فضربه على يده اليسرى فقطعها ، فأخذ اللواء بذراعيه جميعا
وضمه إلى صدره وحنى عليه ظهره ، فأدخل سعد سية القوس بين الدرع
والمغفر فرمى به وراء ظهره ، ثم ضربه حتى قتله وأخذ يسلبه درعه ،
فنهض إليه سبيع بن عوف ونفر معه فمنعوه سلبه ، وكان سلبه أجود سلب
رجل من المشركين : درع فضفاضة ومغفر وسيف جيد .

وحمل لواء المشركين مسافع بن طلحة بن أبى طلحة فرماه عاصم بن
ثابت بن أبى الأفلح ، فراح يترنخ وهو فى النفس الأخير حتى وصل إلى أمه
سلافة وكانت مع النسوة خلف الجيش . فوضع رأسه فى حجرها فقالت
له :

(١) التار : السيف .

— من أصابك ؟

— سمعت رجلا حين رمانى يقول خذها وأنا ابن أبى الأفلح .

— أفلحى والله ! هو من رهطى .

وكانت من الأوس وكان عاصم بن ثابت منهم .

ثم حمل لواء المشركين أخو مسافع الحرث بن طلحة فرماه عاصم فقتله ، فحمل إلى أمه سلافة وهى مع النساء بأحد فقالت فى فزع :

— من أصابك ؟

— سمعت رجلا يقول خذها وأنا ابن أبى الأفلح .

فملأ الغيظ قلب سلافة فندرت إن أمكنها الله من رأس عاصم قاتل ابنها أن تشرب فيه الخمر ، ثم قامت تنادى فى المشركين :

— من جاء برأس عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح فله مائة من الإبل .

فحمل اللواء أخو مسافع وأخو الحرث وهو كلاب بن طلحة فقتله قُزَمان ، فراح بعض المسلمين يرنو إلى قُزَمان وهو يعجب أهذا من أهل النار ؟ ، فحمله أخوهم وهو الجلاس بن طلحة فانقض عليه طلحة بن عبيد الله الله انقضاض الصاعقة فضربه ضربة أزهرت روحه ، فسقط لواء المشركين بعد أن قتل آخر أبناء طلحة . وعند ذلك حمله أرطاة بن شرحبيل ، فإذا بعلى بن أبى طالب يمشى إليه وقد أطل من سيفه المنون ويضربه ضربة يتركه بعدها كأمس الدابر .

ونظر ضرار بن الخطاب إلى خالد بن الوليد وقال له :

— كر على القوم .

فقال له خالد فى ضيق :

— وترى وجهها نكر فيه !

— ٢١ —

كان ضرار بن الخطاب يقول بعد بدر :

— من قتل أبا الحكم ؟

فيقال :

— ابن عفراء .

— من قتل أمية بن خلف ؟

— خبير بن بساف .

— من قتل عقبة بن أبي معيط ؟

— عاصم بن ثابت .

— من أسر سهيل بن عمرو ؟

— مالك بن الدخشم .

فلما خرجوا إلى أحد كان يقول :

— إن قاموا في صياصبيهم فهي منيعة لا سبيل لنا إليهم نقيم أياما ثم

ننصرف ، وإن خرجوا إلينا من صياصبيهم أصبنا منهم فإن معنا عددا أكثر

من عددهم ونحن قوم موتورون خرجنا بالظعن يذكروننا قتل بدر ، ومعنا

كراع ولا كراع معهم وسلاحنا أكثر من سلاحهم .

فلما التقى الجمعان وقلب ضرار بن الخطاب ينبض بالحقد على

الأنصار ولاحت الهزيمة لقريش ، قال ضرار في نفسه :

— هذه أشد من وقعة بدر .

وانطلقت الهتافات من حناجر المسلمين :

— أمت .. أمت .

ونادى المشركون :

— يا للعزى .. يا لهبل ..

— ٢٢ —

والتقط شرح بن قانط لواء المشركين فصار هدفا لصناديد المسلمين وما أسرع أن قتل ، ثم حمله صواب غلام ابن عبد الدار ، فانطلق قزمان إليه فحمل عليه فقطع يده اليمنى ، فاحتمل اللواء باليسرى فقطع اليسرى ، فاحتضن اللواء بذراعيه وعضديه وحنى عليه ظهره وقال :
— يا بنى عبد الدار هل اعتذرت ؟

فحمل عليه قزمان فقتله كما قتل طلحة كبش الكتبية من قبل ، وخرج عبد الرحمن بن أبى بكر فقال :
— من يبارز ؟

فنهض إليه أبوه أبو بكر شاهرا سيفه ، فقال له رسول الله ﷺ :
—

— شيم سيفك وارجع إلى مكانك ومتعنا بنفسك .
وحملت خيل المشركين على المسلمين فاستقبلهم الرماة بالنبل فارتد الفرسان متفرقين ، وحمل المسلمون على المشركين فأضعفوهم قتلا ، وراحت هند بنت عتبة والنسوة اللاتي معها يضربن بالدفوف خلف الرجال ويقلن :

نحن بنات طارق	نمشي على الثمارق ^(١)
مشي القطا النوازق ^(٢)	والمسك في المفارق
والدر في المخانق	إن تقبلوا نعانق
ونفـرش الثمارق	أو تدبروا نفارق

فراق غير وامق

(١) الثمارق : جمع ثمرقة وهى البساط ، كناية عن الشرف .

(٢) الخفاف .

وكان حنظلة بن أبى عامر تزوج جميلة بنت عبد الله بن أبى بن سلول فأدخلت عليه فى الليلة التى فى صبيحتها قتال أحد ، وكان قد استأذن رسول الله — ﷺ — أن يبيت عندها فأذن له ، فلما صلى الصبح غدا يريد النبى — ﷺ — ، فلزمته جميلة فعاد فكان معها فأجنب منها ، ثم أراد الخروج وقد أرسلت قبل ذلك إلى أربعة من قومها فأشهدتهم أنه قد دخل بها ، فقد رأت فى منامها كأن السماء فرجت فدخل فيها ثم أطبقت ففطنت إلى أنها الشهادة ، فأشهدت عليه أنه دخل بها حتى إذا ما علقت منه ثبتت بنوة الوليد .

وأخذ حنظلة بن أبى عامر سلاحه فلحق برسول الله — ﷺ — بأحد وهو يسوى الصفوف ، فلما انكشف المشركون اعترض حنظلة لأبى سفيان بن حرب فضرب عرقوب فرسه فاكتسعت الفرس ووقع أبو سفيان إلى الأرض ، فجعل يصيح :

— يا معشر قريش أنا أبو سفيان بن حرب !

وحنظلة يريد ذبحه بالسيف ، فأسمع الصوت رجالا لا يلتفتون إليه من الهزيمة ، حتى عاينه الأسود بن شعوب فحمل على حنظلة بالرمح فأنفذه ، ومشى حنظلة إليه فى الرمح فضربه ثانية فقتله وهرب أبو سفيان يعدو على قدميه فلحق ببعض قريش فنزل عن صدر فرسه وردف وراءه أبا سفيان . وكان الشيخان حسيل بن جابر ورفاعة بن وقش شيخين كبيرين قد رفعوا فى الآطام مع النساء ، فقال أحدهما لصاحبه :

— لا أبأ لك ! ما نستبقى من أنفسنا ! فوالله ما نحن إلا هامة اليوم أو غد وما بقى من أجلنا قدر ظمء^(١) دابة ، فلو أخذنا أسيافنا فلحقنا

(١) يقال : ما بقى منه إلا ظمء دابة أى لم يبق من عمره إلا اليسير .

برسول الله — ﷺ — ، لعل الله يرزقنا الشهادة .
 فلحقا برسول الله — ﷺ — وقد حمى وطيس القتال فراحا يصولان
 ويجولان في صفوف قريش يقتلان من يلتقيان به وقد استبشرا بنصر الله ،
 وإذا بسيف من سيوف المشركين يقضى على رفاعه بن وقش الشيخ الذى
 خرج يلتمس الشهادة فرزقه الله الشهادة ليكون في عليين مع الأنبياء
 والشهداء والصالحين .

وراح أبو دجانة يضرب بسيف رسول الله عليه السلام العدو حتى
 انحنى وصار كأنه منجل والزبير بن العوام يرقبه في إعجاب . ورأى
 أبو دجانة إنسانا يحمس الناس حمسا شديدا ويوقد الحرب ويشيرها فعمد
 إليه ، فلما حمل عليه بالسيف ولول فعلم أنه امرأة ، فأكرم سيف رسول
 الله — ﷺ — أن يضرب به امرأة . إنها كانت هند بنت عتبة تشجع
 قريش على القتال ليثأروا لقتل أبيها وعمها وأخيها يوم بدر .

وأقبل رجل من المشركين مقنعا بالحديد يقول :
 — أنا ابن عوف .

فتلقاه رشيد الأنصارى الفارسى فضربه على عاتقه فقطع الدرع
 وقال :

— خذها وأنا الغلام الفارسى .

ورسول الله — ﷺ — يرى ذلك ويسمعه ، فقال رسول الله
 — ﷺ — :

— ألا قلت خذوها وأنا الغلام الأنصارى ؟

فعرض لرشيد أخو ذلك المقتول يعدو كأنه كلب وهو يقول :
 — أنا ابن عوف .

فضربه رشيد على رأسه وعليه المغفر ففلق رأسه وقال :
 — خذها وأنا الغلام الأنصارى .
 فتبسم رسول الله — ﷺ — وقال :
 — أحسنت يا أبا عبد الله .

وغدا قرمان يلعب بالسيف يقطع به الرقاب وصوت النسوة يدوى في
 أذنيه : « ما أنت إلا امرأة ، خرج قومك وبقيت في الدار » . فتثور دماؤه
 في عروقه فيغوص في صفوف قريش يضرب منهم كل بنان لعل أصوات
 النسوة الساخرة تصمت عن أن تدوى في عين ذاته ذلك الدوى الذي كان
 أقسى على نفسه من كل أهوال القتال .

وحاول خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وفرسان قريش أن يحملوا
 على المسلمين ولكن الرماة الذين أسندوا ظهورهم إلى أحد راحوا
 يصوبون إليهم النبال ، فصهلت الخيل ولوى الفرسان أعنتهم فارتدوا في
 الوادى متفرقين لا يلوون على شيء .

ووقف وحشى خلف شجرة وفي يده حربته يرصد حركات حمزة
 وسككاته وصوت جبير بن مطعم يداعب خياله : « إن قتلت حمزة عم
 محمد بعمى فأنت عتيق » . إنها رمية من حربته تستقر في قلب حمزة ثم
 يسترد بعدها حربته ، فطفق يتبع حمزة بعينه في كره وفره ، إنه يحصد
 الناس بسيفه ويمشى إليهم كالأسد قد كثر عن أنيابه ، ينقض على فريسته
 وإن هي إلا ضربة واحدة فيتركه كأمس الدابر وهو يقول :
 — أنا أسد الله . أنا ابن عبد المطلب .

وضرب حمزة رجلا ضربة أطاحت برأسه فانكمش وحشى وهو في
 مكمنه . فحمزة قتل ثلاثين من قريش وحده ، ولو التفت ناحية الشجرة

وخطر له أن يتربص به لانقض عليه انقضاض الصاعقة وقتله قبل أن يستمتع بحريته .

وهز وحشى الحربة في يده وصوبها إلى حمزة ، وقبل أن يطلقها كان حمزة قد التفت إلى سباع بن عبد العزى فقال له :
— أقبل يا بن مقطعة البظور .

كانت أمه أم أنمار مولاة شريق والد الأخنس ختانة بمكة ، وكان سباع يعادى الله ورسوله وكان من المكذبين . فشذ حمزة عليه ورفع سيفه وهوى به فإذا بسباع في مثل ملح البصر يسقط على الأرض وقد سالت دماؤه يلفظ آخر الأنفاس .

وتقاصرت نفس وحشى فقد كان سباع تمام واحد وثلاثين قتلهم حمزة ، إنه يقاتل بين يدي ابن عمه محمد بن عبد الله بسيفين ويقول :
— أنا أسد الله .

وملاً الخوف قلب وحشى وبات يخشى أن تنتهى المعركة بهزيمة قريش دون أن ينال من حمزة فيظل يرسف في العبودية ، فجعل يرصده في غدواته وروحاته بين صفوف المشركين لعل فرصة تسنح له يقتل فيها حمزة ويسترد حريته .

وكر خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل وفرسان قريش على المسلمين مرة أخرى فإذا بالنبال تتطاير من الرماة الذين أسندوا ظهورهم إلى جبل أحد لتستقر في أعين الخيل أو في رقاب الفرسان وصدورهم ، فانجفل الفرسان مرتدين ليتفرقوا في الوادى وليصبحوا هدفا لأسياف حمزة وعلى والزبير وأبى دجانة وصناديد المسلمين .

وارتفعت الأصوات تجلجل عند أحد ، المسلمون يهتفون :

— أمت .. أمت .

وقد استبشروا بنصر الله ، والمشركون يهتفون :

— يا للعزى يا لهبل !

والنسوة من قريش يحمسن الرجال بالدفوف . وأقبل حمزة بن عبد
المطلب وقد شهر سيفه ليقاتل بين يدي رسول الله ويقول :

— أنا أسد الله .

فيينا هو كذلك إذ عثر عثرة وقع منها على ظهره فانكشفت الدرع عن
بطنه ، فلاحت لوحشى الفرصة التى كان يرصدها مذ نشب القتال فى
بطن أحد ، فhez حربته ثم دفعها عليه فإذا بها تنفذ من تحت سرته لتخرج
من بين رجليه .

وندت من حمزة صرخة مكتومة ونظر فرأى وحشى خلف الشجرة
فحمل نفسه حملا لينطلق إليه يريد أن يقتل ذلك العبد الحبشى الذى غدر
به ، ولكنه عجز عن مواصلة السير فوقع على الأرض وهو يلهث .
ورفع رأسه لينظر فإذا بجبل أحد يدور فى الفضاء ، وإذا بالمدينة البعيدة
يطبق عليها الظلام ، وإذا بأصوات المسلمين التى كانت تدوى كالرعد :
أمت .. أمت تخفت . ولم يعد يرى بعينه ولكنه كان يرى ببصيرته أول
يوم أعلن فيه إسلامه ، يوم أن ذهب إلى أبى جهل وشجعه بقوسه وهو فى
مجلسه عند الكعبة لما سمع أن أباه جهل قد أساء إلى ابن أخيه ، وكان يرى
صناديد قريش يوم بدر لما كانوا يتهاون جثا هامدة تحت ضربات سيفه
البتار . وغاب عن الدنيا بينما كانت أصوات عذبة تنسحب فى أذنيه تبشره
بجنات عرضها السموات والأرض ، فإذا بأساريه تنبسط وإذا بروحه
تعود إلى ربها آمنة مطمئنة .

وجاءه وحشى وقد سكن روعه فأخذ حربته ثم انتحى إلى العسكر
ولم يكن له فى شىء حاجة غيره .
واشتد القتال بين المشركين وحاول الرجال الفرار ، فخفف النسوة
إلى كل من هم بأن يولى الأدبار وقد من إليه مكحلا ومرودا مما كان معهن
وقلن له :
— إنما أنت امرأة .

فكان الرجل يعود فيقاتل خوفاً من العار . ولم تنفع الدفوف
ولا المكاحل ولا المراود للرجال فقد ولوا منهزمين ونجوا على متون
خيولهم ، وجعلت النسوة يتبعن الرجال على أقدامهن فجعلن يسقطن فى
الطريق ، وقعدت هند بنت عتبة وكانت امرأة ثقيلة خاشية من الخيل ما بها
مشى ومعها امرأة أخرى ، وقد لاح فى وجه هند الفرع والانكسار .

٣

أقبل وهب بن قابوس المزني ومعه ابن أخيه الحارث بن عقبة بن قابوس
بغنم لهما من جبل مزينة ، فوجدا المدينة خلوا فسالأ :
— أين الناس ؟

— بأحد . خرج رسول الله — ﷺ — يقاتل المشركين من قريش .
فقالا :

— لا نبتغى أثرا بعد عين .

فخرجوا حتى أتيا النبي — ﷺ — بأحد ، فيجدان القوم يقتتلون
والدولة لرسول الله — ﷺ — وأصحابه ، فأغاروا مع المسلمين ، وكان
المشركون قد خلفوا العبيد والنساء في العسكر بعد أن صاح أبو سفيان في
الناس :

— يا معشر قريش خلوا غلمانكم على متاعكم يكونوا هم الذين
يقومون على رجالكم .

فجمع العبيد الرجال بعضها إلى بعض وعقلوا الإبل ، وانطلق القوم
على تعبثهم ميمنة وميسرة . وألبس العبيد الرجال الأنطاع وراحوا يرقبون
المعركة الدائرة بين ساداتهم وبين المسلمين ، وإذا أصحابهم منهزمون
واللواء قد سقط على الأرض بعد أن قتل أصحابه واحدا بعد واحد ، قد
ولوا لا يلوون على شيء ونسأؤهم يدعون بالويل بعد فرجهن وضربهن
بالدفوف ، وألقين بالدفوف وقصدن الجبل كاشفات سيقانهن يرفعن

— ٣٠ —

ثيابهن والمسلمون يتبعون أعداءهم يضعون فيهم السلاح وقد دخلوا معسكر قريش يقتلون وينهبون .

كان العبيد وبعض النسوة في الرجال فأحرق المسلمون بهم وقد استسلم العبيد والنساء للأمر ، وراح المسلمون ينتهبون العسكر وإذا برجل من المسلمين ينقض على أحد العبيد يقول له :

— أين مال صفوان بن أمية ؟

فقال العبد :

— ما حمل إلا نفقة في الرحل .

فخرج المسلم يسوق العبد حتى أخرج النفقة من العيبة خمسين ومائة مثقال ذهباً .

وولى رجال قريش وأيس من كان في العسكر من نصرتهم . وانحاش النساء فهن في حجرهن سلم لمن أرادهن . ووجد عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح منطقة في العسكر فيها خمسون ديناراً فشدها على حقويه من تحت ثيابه ، ووجد عباد بن بشر صرة فيها ثلاثة عشر مثقالاً فألقاها في جيب قميصه وفوقها الدرع وقد حزم وسطه . وراح فزمان ينتهب العسكر أقبح انتهاب . وغدا المسلمون يأخذون ما تصل إليه أيديهم فصار النهب في أيدي المسلمين .

ورأى الرماة لإخوانهم المسلمين ينتهبون عسكر المشركين فقال بعضهم لبعض :

— لم تقومون ها هنا في غير شيء ؟ قد هزم الله العدو وهؤلاء إخوانكم ينتهبون عسكرهم فادخلوا عسكر المشركين فاغنموا مع إخوانكم . فقال بعضهم :

— ٣١ —

— ألم تعلموا أن رسول الله — ﷺ — قال لكم : « احموا ظهورنا وإن غنمنا فلا تشركونا » ؟

فقال الآخرون :

— لم يرد رسول الله — ﷺ — هذا وقد أذل الله المشركين وهزمهم ، فادخلوا العسكر فانتبهوا مع إخوانكم .
واختلفوا فقام أميرهم عبد الله بن جبير يخطبهم وكان يومئذ معلما بثياب بيض ، فحمد الله وأمرهم بطاعة رسوله وألا يخالف أمره . فعصوه وانطلقوا فلم يبق معه إلا نفر ما يبلغون العشرة منهم الحارث بن أنس بن رافع يقول :

— يا قوم ، اذكروا عهد نبيكم إليكم وأطيعوا أميركم .
فأبوا وذهبوا إلى عسكر المشركين ينتهبون وخلوا الجبل . فنظر خالد ابن الوليد إلى خلاء الجبل وقلة أهله فكر بالخیل وتبعه عكرمة بالخیل فانطلقا إلى موضع الرماة فحملوا عليهم ، فرماهم القوم حتى أصيبوا ، ورمى عبد الله بن جبير حتى فنيت نبلة ، ثم طاعن بالسيف حتى انكسر ثم كسر جفن سيفه فقاتل حتى قتل ، وأفلت جعيل بن سراقة وأبو بردة بن نيار بعد أن شاهدا قتل عبد الله بن جبير .

ودخل الرماة العسكر وجاعوا إلى النهب قد تأبطوا قسيهم وجعابهم ، وقد صار كل واحد منهم في يديه أو حضنه شيء قد أخذه ، ونظر ضرار بن الخطاب إلى الجبل الذي كان عليه الرماة فوجده خاليا فقال لخالد بن الوليد :

— يا أبا سليمان انظر وراءك .

فعطف عتار فرسه وكر وكروا معه فانتبهوا إلى الجبل فلم يجدوا

— ٣٢ —

عليه أحدا له بال ، وجدوا نفيرا فأصابوهم ، ثم دخلوا العسكر فلم يكن أحد يردهم وقد وجدوا المسلمين آمنين فوضعوا فيهم السيوف .
واختلط المسلمون وصاروا يقتلون ويضرب بعضهم بعضا وما يشعرون بما يصنعون من الدهش والعجل ، وجرح أسيد بن حضير جرحين ضربه أحدهما أبو بردة بن نيار وما يدرى ، يقول :
— خذها وأنا الغلام الأنصارى .

وكر أبو زعنة في حومة القتال فضرب أبا بردة ضربتين ما يشعر أنه هو ، يقول :
— خذها وأنا أبو زعنة .

والتفت على حسيل بن حابر الشيخ الذى لحق برسول الله ﷺ —
طمعا فى الشهادة سيوف المسلمين وهم لا يعرفونه حين اختلطوا وابنه
حذيفة يقول :

— أئى ! أئى !

وظلوا به حتى قتل ، فقال حذيفة :

— يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ما صنعتم !

وكسر قزمان جفن سيفه وجعل يقول :

— الموت أحسن من الفرار . يا للأوس ! قاتلوا على الأحساب

واصنعوا مثل ما أصنع .

ودخل بالسيف وسط المشركين فقال المسلمون :

— قد قتل .

وسرعان ما طلع يقول :

— أنا الغلام الظفرى .

تم عاد ليغوص في صفوف المشركين وغاب مدة فقال الناس :
— قد قتل .

وما لبث أن طلع يصبح :
— أنا الغلام الظفري .

وأصاب كعب بن مالك الجراح ، فلما رأى المشركين يمثلون
بالمسلمين أشد المثل وأقبحها قام فتسحى عن القتلى ، فإنه لفي موضعه أقبل
خالد بن الأعمى العقيلي يحوش المسلمين يقول :
— استوسقوا (اجتمعوا) كما يستوسق جُربُ الغنم .
وهو مدجج في الحديد يصبح :

— يا معشر قريش لا تقتلوا محمدا ، إئسروه أسرا حتى نعرفه ما صنع .
ويصمد له قزمان فيضربه بالسيف ضربة على عاتقه حتى يرى منه
سحره^(١) ثم أخذ سيفه وانصرف . فطلع عليه من المشركين فارس
ما يرى منه إلا عيناه فحمل عليه قزمان فضربه ضربة جزله اثنين ، فإذا هو
الوليد بن العاص بن هشام المخزومي .

وأقبل عبد الله بن شهاب الزهري يقول :
— دلوني على محمد ، فلا نجوت إن نجا .

وإن رسول الله ﷺ — إلى جنبه ما معه أحد ، ثم جاوزه ، ولقى
عبد الله بن شهاب صفوان بن أمية فقال له صفوان :
— ترحت ! هل ضربت محمدا فقطعت هذه الشافة فقد أمكنتك الله
منه .

— وهل رأيته ؟

(١) السحر : الرئة .

— ٣٤ —

- نعم أنت إلى جنبه .
- والله ما رأيته . أحلف بالله إنه لممنوع . خرجنا أربعة تعاقدنا وتعاهدنا على قتله فلم نخلص إلى ذلك .
- وقتل قزمان من قريش سبعة وأصابته الجراحة وكثرت فيه ، فوقع فمر به قتادة بن النعمان فقال له :
- أنا الغيداق .
- قال قزمان :
- لبيك .
- هنيئا لك الشهادة .
- إني والله ما قاتلت يا أبا عمرو على دين ، ما قاتلت إلا على الحفظ ، أن تسير قريش إلينا فتطأ سَفَنًا .
- فآذته الجراحة فأخذ سهما من كنانته فقتل به نفسه ، وصدق رسول الله عليه السلام فإنه كان يقول إذا ذكر له قزمان : إنه من أهل النار .
- وأقبل الحباب بن المنذر بن الجموح يصيح :
- يا آل سلمة !
- فأقبلوا يقولون :
- لبيك داعي الله ! لبيك داعي الله .
- فضرب الحباب بن المنذر جبَّار بن صخر ضربة في رأسه مثقلة وما يدرى .
- ورأى المسلمون أن يظهروا شعارهم بينهم حتى لا يضرب بعضهم بعضا فجعلوا يصيحون :
- أمت .. أمت !

فكف بعضهم عن بعض ثم تفرقوا في كل وجه وتركوا ما انتهبوا وخلوا
الأسرى وألقوا ما حملوا من غنائم . فإذا بالذهب قد تناثر في عسكر قريش
وإذا بالنفائس تكسو الأرض .

ولم يزل لواء المشركين ملقى على الأرض حتى أخذته عمرة بنت علقمة
ورفعته لهم فاستداروا به واجتمعوا عنده .

وكانت عمارة المازنية زوج زيد بن عاصم قد خرجت يوم أحد لتنظر
ما يصنع الناس ومعها سقاء فيه ماء تسقى به الجرحى ، فانتهدت إلى رسول
الله ﷺ — وهو في أصحابه والريح للمسلمين . فلما انهزم المسلمون
انحازت إلى رسول الله فقامت تباشر القتال ونذب عنه بالسيف وترمى عن
القوس . وولى الناس عن رسول الله فأقبل ابن قمئة يقول :
— دلوني على محمد فلا نجوت إن نجا .

فاعترضت له هي ومصعب بن عمير فضربها ابن قمئة ضربة على
عاتقها فأصابها وضربته ضربات ولكن كان عليه درعان فلم تنفذ إليه
الجراح .

والتفت رسول الله إلى ابن عمارة ، فقال :
— يا بن عمارة .

— نعم .

— ارم .

فرمى بين يديه رجلا من المشركين بحجر وهو على فرس ، فأصابت
عين الفرس حتى وقع هو وصاحبه ، وجعل يعلوه بالحجارة حتى كاد
يغطيه والنبى ﷺ — ينظر إليه ويبتسم ، فنظر عليه السلام إلى جرح
بأمه على عاتقها فقال :

— أملك .. أملك .. اعصب جرحها بارك الله عليكم من أهل بيت .
فقال أم عمارة :

— ادع لنا الله يا رسول الله أن نرافقك في الجنة .

— اللهم اجعلهم رفقاء في الجنة .

وكان قد تعاقد من قريش على قتل رسول الله ﷺ — عبد الله بن شهاب الزهري وابن قميصة أحد بنى الحارث بن فهر وعتبة بن أبي وقاص وأبي بن خلف الجمحي ، فرمى عتبة بن أبي وقاص رسول الله ﷺ — بحجر فكسر ربايته .

وأقبل ابن قميصة وهو يقول :

— دلوني على محمد ، فوالذي يحلف به لمن رأيته لأقتلنه .

فوصل إلى رسول الله ﷺ — فعلاه بالسيف ، ورماه عتبة بحجر فأدعى شفتيه . وشجه ابن قميصة في وجهه حتى غاب حلق المعفر في وجنته . وكان عليه السلام فارسا وهو لابس درعين مثقل بهما فوق رسول الله ﷺ — في حفرة كانت أمامه فأصيبت ركبتاه ، جحشتا (خدشتا) لما وقع في تلك الحفرة ، وكانت هناك حفر حفرتها أبو عامر الفاسق كالخنادق للمسلمين ، وكان رسول الله ﷺ — واقفا على بعضها وهو لا يشعر . ولم يفعل سيف ابن قميصة شيئا .

وتوارى رسول الله عليه السلام في الحفرة فجاء إليه طلحة وعلى بن أبي طالب فراح طلحة يحمله من ورائه وعلى بن أبي طالب يأخذ بيديه حتى استوى قائما والدم يسيل من الشجة التي في جبهته حتى أخضل لحيته . وخف سالم مولى أبي حذيفة يغسل الدم عن وجهه ورسول الله ﷺ — يقول :

— كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى الله تعالى ؟
فأنزل الله تعالى : ﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم
فإنهم ظالمون ﴾ (١) .

وحرص سعد بن أبي وقاص على قتل أخيه عتبة حرصا ما حرص على
شيء قط ، فراح يتخرق صفوف المشركين يطلب أخاه ليقتله ، ولكنه
راغ منه وغان الثعلب . فراح سعد يتخرق صفوف المشركين مرة ثانية
وعتبة بن أبي وقاص يفر من أمامه فلما كانت المرة الثالثة قال له رسول الله
— ﷺ : —

— يا عبد الله ما تريد ؟ أتريد أن تقتل نفسك ؟
فكف سعد عن طلب أخيه .

وأقبل أبو بكر يسعى إلى رسول الله — ﷺ — فإذا حلقتان من المغفر
قد دخلتا في وجهه — ﷺ — وإذا أبو عبيدة بن الجراح يقول
لأبي بكر :

— أسألك بالله يا أبا بكر إلا تركتني فأنترعه من وجه رسول الله
— ﷺ — ؟ —

فتركه أبو بكر فأخذ أبو عبيدة بشنيتيه حلقة المغفر فنزعها وسقط على
ظهره وسقطت ثنية أبي عبيدة ، ثم أخذ الحلقة بشنيتيه الأخرى ، فصار
أبو عبيدة في الناس أثرم .

فعل بنو زهرة أنحوال النبي الأفاعيل برسول الله — ﷺ — ، فقد
حركهم أبو سفيان وهاجهم على الشر لأنهم رجعوا يوم بدر من الطريق إلى

مكة فلم يشهدوها ، فاعترض غيرهم ومنعهم عنها وأغرى بهم سفهاء أهل مكة فغيروهم برجوعهم ونسبوههم إلى الجبن وإلى موالاة محمد — ﷺ — ، فأراحوا أن يعلنوا على الملأ أنهم ليسوا بجبناء وأنهم على مثل رأى قريش في محمد عليه السلام .

وأقبل عبد الله بن حميد بن زهير حين رأى رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — قد سقط من ضربة ابن قمئة يركض فرسه مقتنعا في الحديد يقول :

— أنا ابن زهير . دلوني على محمد فوالله لأقتلنه أو لأموتن دونه .

فتعرض له أبو دجاجة فقال :

— هلم إلى من يقى نفس محمد — صلى الله عليه وآله وسلم —

بنفسه .

فضرب فرسه فعرقبها^(١) فاكتسعت ، ثم علاه بالسيف وهو يقول :

— خذها وأنا ابن خرشة .

وقتل عبد الله بن حميد ورسول الله ينظر ويقول :

— اللهم ارض عن ابن خرشة كما أنا عنه راض .

وصاح ابن قمئة :

— إن محمدا قد قتل .

وانهزمت طائفة من المسلمين إلى جهة المدينة ولم يدخلوها ، وقال

رجال من المسلمين حيث قتل رسول الله عليه السلام :

(١) عرقبها : ضرب عرقوبها ، والعرقوب من رجل الناقة بمنزلة الركبة و

يدها .

— ٣٩ —

— ارجعوا إلى قومكم يؤمنوكم .

وقال آخرون :

— إن كان رسول الله — ﷺ — قد قتل أفلا تقاتلون على دين نبيكم

وعلى ما كان عليه نبيكم حتى تلقوا الله شهداء ؟

وقال ثابت بن الدحداح :

— يا معشر الأنصار إن كان محمد قد قتل فإن الله حي لا يموت ، قاتلوا

على دينكم فإن الله مظفركم وناصركم .

فنهض إليه نفر من الأنصار فحمل بهم على كتيبة فيها خالد بن الوليد

وعمر بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب . فحمل عليه

خالد بن الوليد بالرمح فقتله وقتل من كان معه من الأنصار .

وقال جماعة :

— ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي ليأخذ لنا أمانا من أبي سفيان :

يا قوم إن محمدا قد قتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم ويقتلوكم .

وقال رجال من المنافقين :

— لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا .

وقال بعضهم :

— لو كان نبيا ما قتل فارجعوا إلى دينكم الأول .

وبينا عمر بن الخطاب في رهط من المسلمين قعود مر بهم أنس بن النضر

ابن ضمضم عم أنس بن مالك فقال :

— ما يقعدكم ؟

قالوا :

— قتل رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — .

— ٤٠ —

— فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه .
ثم قام فجالد حتى قتل وبه سبعون ضربة في وجهه .
ومر مالك بن الدخشم على خارجة بن زيد بن زهير وهو قاعد في
أمعائه ثلاثة عشر جرحا كلها قد خلصت إلى مقتل ، فقال له مالك :
— أعلمت أن محمدا قد قتل ؟
قال خارجة :
— فإن كان محمد قد قتل فإن الله حي لا يقتل ولا يموت ، وإن محمدا قد
بلغ رسالة ربه فاذهب أنت فقاتل عن دينك .
ومر مالك بن الدخشم على سعد بن الربيع وبه اثنا عشر جرحا كلها قد
خلصت إلى مقتل ، فقال :
— أعلمت أن محمدا قد قتل !
— أشهد أن محمدا قد بلغ رسالة ربه ، فقاتل أنت عن دينك فإن الله
حي لا يموت .
وثبت — ﷺ — لما تفرقت عنه أصحابه وصار يقول :
— أنا رسول الله .
فما يعرج إليه أحد والنبل يأتي إليه من كل ناحية ، وقد ثبت معه طلحة
ابن عبيد الله يدور حول النبي — ﷺ — يترس بنفسه لا يدرى أيقوم من
بين يديه أو من ورائه أم عن يمينه أم شماله ، فيذب بالسيف عنه ههنا
وههنا .
وحمل مصعب بن عمير اللواء وثبت به قبل ابن قميئة ، وكان ابن قميئة
فارسا فضرب يد مصعب فقطعها ، فقال مصعب :

— ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ (١) .
وأخذ اللواء بيده اليسرى وحنى عليه ، فضربه فقطع اليسرى فضمه
بعضديه إلى صدره وهو يقول :

— « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » .
ثم حمل عليه الثالثة بالرمح فأنفذه واندق الرمح ووقع مصعب وسقط
اللواء ، فخفف رجلان من المسلمين من بنى عبد الدار هما سويبط بن
حرملة وأبو الروم لالتقاط اللواء ، فأخذه أبو الروم وطفق يدافع عنه .
وأنثل طلحة كنانته بين يدي النبي — ﷺ وكان فيها خمسون سهما ،
وجعل يصيح :

— نفسى دون نفسك يا رسول الله !
فلم يزل يرمى بها سهما سهما ورسول الله — ﷺ — يقول له :
— ارم يا أبا طلحة .
ويطلع رأسه من خلف أى طلحة بين أذنه ومنكبه ، ينظر إلى مواقع
النبيل ، وأبو طلحة يقول :
— نحرى دون نحرك .

وجاء سعد بن أبى وقاص وعاصم بن ثابت والسائب بن عثمان بن
مظعون والمقداد بن عمرو وزيد بن حارثة وخاطب بن أبى بلتعة وعتبة بن
غزوان وخراش بن الصمة وقطبة بن عامر وبشر بن البراء بن معرور
وأبو نائلة سلكان بن سلامة وقتادة بن النعمان لينضموا إلى طلحة
وليزودوا عن الرسول — عليه صلوات الله وسلامه — .
وراح طلحة يرمى بنبله ورسول الله يقول :

— ٤٢ —

- لقد أوجب .
- وأقبلت فرقة من المشركين تريد رسول الله — ﷺ — :
- فقال عليه السلام :
- من لهذه الفرقة ؟
- فقال وهب بن قابوس :
- أنا يا رسول الله .
- فقام فرماهم بالنبل حتى انصرفوا . ثم طلعت فرقة أخرى فقال رسول الله — ﷺ — :
- من لهذه الكتية ؟
- فقال المزني :
- أنا يا رسول الله .
- فقام فذبحها بالسيف حتى ولت ثم رجع ، وطلعت كتية أخرى فقال النبي — ﷺ — :
- من يقوم لهؤلاء ؟
- فقال المزني :
- أنا يا رسول الله .
- قم وأبشر بالجنة .
- فقام المزني مسرورا يقول :
- والله لأقيل ولا أستقيل .
- فجعل يدخل فيهم فيضرب بالسيف ورسول الله — ﷺ — ينظر إليه والمسلمون حتى خرج من أقصى الكتية ، ورسول الله — ﷺ — يقول :

— اللهم ارحمه .

ثم رجع إليهم ، فما زال كذلك وهم محدقون به حتى اشتملت عليه
أسيافهم فقتلوه .

ورمى مالك بن زهير الجشمى بسهم يريد رسول الله — ﷺ —
وكانت لا تخطىء رميته ، فاتقى أبو طلحة بيده عن وجه رسول الله
— ﷺ — فأصاب خنصره فشل .

وجعل رسول الله — ﷺ — يذمر الناس ويحضهم على القتال ،
وكان رجال من المشركين قد أوجعوا المسلمين بالرمي منهم حيان بن
العرفه وأبو أسامة الجشمى ، فجعل النبي — ﷺ — يقول لسعد بن أبى
وقاص :

— ارم فذاك أبى وأمى !

فرمى فوقع السهم فى ثغرة نحر حيان ، فقال — ﷺ — لسعد :
— أجب الله دعوتك ، وسدد رميتك .

وكان مالك بن زهير الجشمى أخو أبى أسامة الجشمى قد رمى
المسلمين رميا شديدا ، وكان هو وريان بن العرفه قد أسرعا فى أصحاب
رسول الله — ﷺ — وأكثروا فيهم القتل يستتران بالصخر ويرميان ،
فبينما هم على ذلك أبصر سعد بن أبى وقاص مالك بن زهير من وراء صخرة
قد رمى وأطلع رأسه ، فرماه سعد فأصاب السهم عينه حتى خرج من
قفاه ، فهب قائما ثم رجع فسقط جثة هامدة .

كان مع رسول الله نفيرون لا يتعمون عشرة ، وأم عمارة المازنية وأبناؤها
وزوجها بين يديه يذبون عنه والناس يبرون عنه منهزمين . ورأى رسول الله أم
عماراة ولا ترس معها ورأى رجلا موليا معه ترس فقال عليه السلام :

— ٤٤ —

- يا صاحب الترس ألق ترسك إلى من يقاتل .
 فألقى ترسه فأخذته أم عمارة فجعلت ترس به عن النبي — ﷺ —
 وقد فعل بهم الأفاعيل أصحاب الخيل ، فأقبل رجل على فرس فضربها
 فترست له فلم يصنع سيفه شيئا وولى ، وضربت عرقوب فرسه فوقع على ظهره
 فجعل النبي — ﷺ — يصيح :
 — يا بن عمارة . أملك أمك !
 فخف ابنها يعاونها حتى قضيا عليه .
 وراح ابنها عبد الله يصول ويجول حتى ضربه رجل من المشركين
 ولم يعرج عليه ومضى عنه ، وجعل الدم ينزف من عضده اليسرى
 لا يرقأ .
 فقال رسول الله — ﷺ — :
 — اعصب جرحك .
 فأقبلت أمه إليه ومعها عصائب في حقويها قد أعدتها للجراح فربطت
 جرحه والنبي — ﷺ — واقف ينظر ، ثم قالت :
 — انهض يا بنى فضارب القوم .
 فجعل رسول الله — ﷺ — يقول :
 — ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة ؟
 وأقبل الرجل الذى ضرب ابنها عبد الله فقال رسول الله — ﷺ — :
 — هذا ضارب ابنك .
 فاعترضت له فضربت ساقه فبرك ، فتبسم رسول الله — ﷺ —
 حتى بدت نواجذه ثم قال :
 — استقددت يا أم عمارة .

ثم أقبلوا يعلنونه بالسلاح حتى أتوا على نفسه ، فقال النبي ﷺ — :

— الحمد لله الذى أظفرك وأقر عينك من عدوك وأراك تارك بعينك !
وجاء على بن أبى طالب يدافع عن رسول الله عليه السلام ، فلما التف حوله عليه السلام بعض أصحابه قصدته كتيبة من بنى كنانة ، فقال رسول الله ﷺ — :
— يا على اكفى هذه الكتيبة .

فحمل عليها وإنما لتقارب خمسين فارسا وهو عليه السلام راجل .
فما زال يتضر بها بالسيف حتى تفرقت عن رسول الله الحبيب . وقبل أن يلتقط على أنفاسه إذا بكتيبة من بنى عبد مناة بن كنانة تقصد رسول الله ﷺ — فحذف على إلى الفرسان وحمل عليهم فقتل خالد بن سفيان وأبا الشعثاء بن سفيان وأبا الحمراء بن سفيان وغراب بن سفيان ، فلما رأى القوم مقتل بنى سفيان بن عوف الأربعة وسيف على البتار تفرقوا عن رسول الله ﷺ — وإذا بصوت يدوى فى المكان :

— لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على !
وتترس^(١) أبو دجاجة دون رسول الله ﷺ — فصار يقع النبل على ظهره وهو منحن حتى كثر فيه النبل .
وظل المسلمون يقاتلون وهم يحسبون أن رسول الله ﷺ — قد قتل ، ورفع عباس بن نضلة صوته فقال :
— يا معشر المسلمين الله ونيكم ! هذا الذى أصابكم بمعصية نبيكم ،

(١) كان بالنسبة له كالترس يتلقى الضربات .

وعدكم النصر فما صبرتم .
وكان معه خارجة بن أئى زهير وأوس بن أرقم بن زيد ، فنزع مغفره
عن رأسه وخلع درعه وقال لخارجة بن زيد :
— هل لك فى درعى ومغفرى ؟
قال خارجة :
— لا ، أنا أريد الذى تريد .
فخالطوا القوم جميعا وعباس يقول :
— ما عذرنا عند ربنا إن أصيب نبينا وبنا عين تطرف ؟
فيقول خارجة لعباس بن نضلة المعروف بابن قوئل :
— لا عذر لنا والله عند ربنا ولا حجة .
وضرب عباس سفيان بن عبد شمس السلمى ضربتين فجرحه جرحين
عظيمين ، ولكن سفيان طعنه طعنة أردته قتيلا . وأخذ خارجة بن زيد
الرماح فجرح بضعة عشر جرحا ، فمر به صفوان بن أمية فعرفه فقال :
— هذا من أكابر أصحاب محمد وبه رمق فأجهز عليه .
وقتل أوس بن أرقم وراح صفوان بن أمية يمثل بخارجة ويقول :
— هذا ممن أغرى بأئى يوم بدر .
وغدا ينظر إلى ابن قوئل وإلى خارجة وابن أرقم وقد قتلوا فأحس أنه قد
ثأر لمقتل أبيه أمية بن خلف يوم بدر ، فقال :
— الآن شفيت نفسى حين قتلت الأماثل من أصحاب محمد ، قتلت
ابن قوئل وقتلت ابن أئى زهير وقتلت أوس بن أرقم .
وجعل سهل بن حنيف ينضح بالنبل عن رسول الله ﷺ —
فقال :

— نبلوا سهلا فإنه سهل .
ونظر رسول الله ﷺ — إلى أبى الدرداء والناس منهزمون فى كل
وجه ، فقال :

— نعم الفارس عويمر غير أنه لم يشهد أحدا .
وراح رسول الله ﷺ عليه السلام — يرمى بالنبل حتى فنى نبله
وانكسرت سية^(١) قوسه ، وكان السائب بن مظهر والمقداد بن عمرو
وزيد بن حارثة يرمون بالسهم دفاعا عن رسول الله ﷺ — .
وأقبل رجل من بنى عامر بن لؤى يدعى شيبه بن المضرب يجر رحه ،
وهو على فرس أغر كميته مدججا فى الحديد يصيح :
— أنا أبو ذات الودع ، دلونى على محمد .

فضرب طلحة عرقوب فرسه فسقطت به ، ثم تناول رحه فما أخطأ به
عن حدقته ، فخار كما يخور الثور ، فما برح واضعا رجله على خده حتى
مات .

وراح مخبريق يقاتل مع رسول الله ﷺ حتى قُتل ، فقال — ﷺ :
— مخبريق خير يهود .

وأقبل من المسلمين بعد التولية قيس بن محرز مع طائفة من الأنصار
وقد كانوا بلغوا بنى حارثة فرجعوا سراعا فصادفوا المشركين فى كثرتهم ،
فدخلوا فى حومتهم فما أفلت منهم رجل حتى قتلوا كلهم ، ولقى أبو سبرة
ابن الحارث بن علقمة أحد المشركين فاختلفا ضربات ، كل ذلك يروغ
أحدهما عن الآخر ، فنظر الناس إليهما كأنهما سبعان ضاريان يقفان مرة
ويقتتلان أخرى ثم تعانقا فوقعا إلى الأرض جميعا ، فعلاه أبو سبرة فذبحه

(١) سية القوس : ما عطف من طرفها .

بسيفه كما تذبح الشاة ولم يرتج المكان بالتكبير فقد كان المسلمون يدافعون عن أنفسهم دفاع المستميت وقد شغل كل منهم بنفسه . ونهض أبو سبرة عن الذبيح فأقبل خالد بن الوليد وهو على فرس أدهم أغر محجل يجرق قناة طويلة ، فطعن أبا سبرة من خلفه فإذا بسنان الرمح يخرج من صدره ، ووقع أبو سبرة ميتا ، وانصرف خالد بن الوليد يقول :

— أنا أبو سليمان !

وأقبل ضرار بن الخطاب على فرسه يجرق قناة له طويلة ، وجعل يطلب الأكبر من الأوس والخزرج قتلة الأحبة فلا يرى أحدا ، ورأى عمر بن الخطاب فضربه بالقناة وقال :

— يا بن الخطاب إنها نعمة مشكورة ، ما كنت لأقتلك .

فما هي إلا حلب ناقة حتى تداعت الأنصار بينها فأقبلت فخالطوا الكفار وهم فرسان ، وبذلوا أنفسهم حتى عقروا فرس ضرار بن الخطاب فترجل وغدا يدافع عن نفسه ، ولقى من رجل من المسلمين الموت الناقع حتى وجد ربح الدم والمسلم معانقه لا يفارقه حتى أخذته الرماح من كل ناحية .

وأقبل أمية بن أبى حذيفة بن المغيرة وهو دارع مقنع فى الحديد ما يرى منه إلا عيناه وهو يقول :

— يوم بيوم بدر .

فيعرض له رجل من المسلمين فقتله أمية ، وصمد له على بن أبى طالب فضربه بالسيف على هامته وعليه بيضة وتحت البيضة مغفر فنها سيفه وكان رجلا قصيرا . وراح أمية يضرب عليا بسيفه فيتقى بالدرقة^(١) ، فلحج

(١) الدرقة : الوقاية تصنع من الصلب .

سيفه فضربه على وكانت درعه مشمرة فقطع رجله فوق ، وجعل يعالج سيفه حتى خلصه من الدركة وجعل يناوش عليا وهو بارك حتى نظر على إلى فتق تحت إبطه فيحش فيه فمال فمات . وانصرف على ليقاتل أعداء الله وهو يصيح :

— أمت .. أمت .

وكانت نساء المسلمين قد رفعن في الآطام ومعهن حسان بن ثابت وكان لا يشهد حربا ، فجاء نفر من يهود الأطم فقالت صفية بنت عبد المطلب أم الزبير بن العوام لحسان :

— دونك يا بن القرية .

— لا والله لا أستطيع القتال .

وصعد يهودى إلى الأطم فقالت صفية لحسان :

— شد على يدي السيف ثم برئت .

ففعل فضربت عنق اليهودى ورمت برأسه إليهم ، فلما رأوه انكشفوا .

وكانت صفية في الحصن في أول النهار ترقب المعركة من بعيد . فرأت المزارق^(١) يطير في الهواء فقالت في عجب :

— أو من سلاحهم المزاريق !

وما درت أنه هوى إلى أخيها حمزة ولا تشعر !

ثم خرجت آخر النهار لما عرفت انكشاف المسلمين يرجوع حسان إلى أقصى الأطم ، فكان أول من لقيت على بن أبى طالب ابن أخيها فقال :

— ارجعى يا عمة فإن في الناس تكشف .

(١) المزارق : رمح قصير .

— ٥٠ —

— رسول الله — صلى الله عليه وسلم وآله ؟

— صالح .

— ادللنى عليه حتى أراه .

فأشار إليه إشارة خفية فانتهدت إليه وبه الجراحة .

وضرب ضرار بن الخطاب طلحة في رأسه ضربتين ، ضربة وهو مقبل

وضربة وهو معرض عنه ، وكان نزف منه الدم ، وجاء أبو بكر النبى

— ﷺ — فقال عليه السلام :

— عليك بابن عمك .

فأتى طلحة بن عبيد الله وقد نزف الدم فجعل ينضح في وجهه الماء وهو

مغشى عليه ، ثم أفاق فقال :

— ما فعل رسول الله — ﷺ ؟

— خير ، هو أرسلنى إليك .

— الحمد لله . كل مصيبة بعده جلل (١) .

٤

تفرق الناس لما صاح ابن قميفة :
— إن محمدا قد قتل .

فمنهم من ورد المدينة ، فكان أول من وردها يخبر أن محمدا قد قتل
سعد بن عثمان أبو عبادة ، ثم ورد بعده رجال حتى دخلوا على نسائهم
حتى جعل النساء يقلن :

— أعن رسول الله تفرون ؟

وكان رسول الله — ﷺ — خلف ابن أم مكتوم على المدينة يصلى
بالناس وكان أعمى ، فجاء إلى الذين فروا يقول مؤنبا :
— أعن رسول الله تفرون ؟ دلوني على الطريق .

فدلوه ، فجعل يستخير كل من لقي في الطريق حتى لحق القوم وهو
خائف أن يكون النبي — ﷺ — قد قتل حقا ، فلما اطمأن إلى سلامته
عاد إلى المدينة ليصلى بالناس ويؤنب الذين فروا عن رسول الله .

وراحت الشمس تغيب خلف جبال أحد ولم يزل المسلمون يحامون
عن رسول الله — ﷺ — والمشركون يتكاثرون عليهم ويقتلون فيهم ،
وكان أبي بن خلف على ظهر جواده يبحث بعينيه عن رسول الله
— ﷺ — فقد كان أتى يريد أن يقعد مع القاعدين لما خرجت قریش
لقتال المسلمين يوم بدر لأنه سمع أن رسول الله — ﷺ — قال إنه
سيقتله ، ولولا سخرية النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط ما خرج في

ذلك اليوم . فلما افتدى من الأسر بيدر وأراد أن يفر من خوفه الذى يلاحقه قال : والله إن عندى لفرسا أعلفها كل يوم فرقا^(١) من ذرة أقتل عليها محمدا .

ولمح أبى بن خلف جماعة من المسلمين فاندفع إليهم وهو يقول :
— أين محمد ؟ لا نجوت إن نجا .

فاعترضه رجال من المسلمين فأمرهم رسول الله — ﷺ — أن يخلوا طريقه ، فأقبل وهو يقول :

— يا كذاب أين تفر ؟

وأخذ رسول الله — ﷺ — من الزبير بن العوام الحربة وانتفض بها انتفاضة شديدة ثم استقبله فطعنه فى عنقه ، فإذا بأبى بن خلف يكاد يموت من الرعب فقد تذكر أن محمدا قال إنه سيقتله وقد قرأ وجدانه أن هذه الطعنة هى القاضية ، فقفل راجعا إلى صفوف قريش وفى قلبه خوف شديد وفى وجهه هلع .

وراح على بن أبى طالب يذب عن رسول الله فى ناحية وأبو دجاجة فى ناحية يذب طائفة منهم ، وانفرد على بفرقة كثيرة السلاح فيها عكرمة بن أبى جهل فدخل وسطهم بالسيف فضرب به ، واشتملوا عليه حتى أفضى إلى آخرهم ثم كرفيهم الثانية حتى رجع من حيث جاء ، وكان الحباب بن المنذر بن الجموح يحوشهم كما تحاش الغنم وقد اشتملوا عليه حتى قيل :
— قد قتل .

ثم برز والسيف فى يده واقتروا عنه ، وجعل يحمل على فرقة منهم وإنهم ليهربون منه إلى جمع منهم وصار الحباب إلى النبى — ﷺ — ، وكان

(١) الفرق : مكيال يسع اثنى عشر مدا من ذرة .

— ٥٣ —

الحجاب معلما بعصاة خضراء في مغفره .
وأصيب عبد الرحمن بن عوف في فيه فهتم وجرح عشرين جراحة
فأكثر ، وجرح في رجله فكان يعرج منها .
وراح الشماس بن عثمان يقاتل عن رسول الله وكان رسول الله
— ﷺ — لا يأخذ يمينا ولا شمالا إلا رأى شماس بن عثمان في ذلك الوجه
يذب بسيفه عنه ، حتى غشي رسول الله — صلى الله عليه وسلم وآله —
فترس من نفسه دونه حتى قتل .

وولى عثمان بن عفان والحارث بن حاطب وثعلبة بن حاطب وسواد بن
غزية وسعد بن عثمان وعقبة بن عثمان وخارجة بن عمر وأوس بن فيظي في
نفر من بنى حارثة ، ولقيتهم أم أيمن فراحت تحثي في وجوههم التراب
وتقول لبعضهم :

— هاك المغزل فاغزل به .

وكان أنس بن النضر عم أنس بن مالك خادم النبي قد غاب عن بدر
فشق عليه ذلك ، فلما كان يوم الأحد ورأى انهزام المسلمين قال :

— اللهم إني أبرأ إليك مما صنع هؤلاء .

ونظر إلى صفوف الكافرين وقال :

— وأبرأ إليك مما فعل هؤلاء .

وتذكر ما قاله لرسول الله — ﷺ — : « يا رسول الله إني غبت عن أول
قتال وقع قاتلت فيه مع المشركين ، والله لئن أشهدني الله قتال المشركين
ليرين الله ما أصنع » .

فراح يقاتل في ضراوة حتى إذا ما سمع قتل رسول الله قال لأصحابه :
— ما تصنعون بالحياة بعده ؟ موتوا على ما مات عليه رسول الله — ﷺ — .

— ٥٤ —

ثم استقبل القوم وقال لسعد بن معاذ :

— هذه الجنة ورب الكعبة أجد روحها دون أحد .

وراح يقاتل ويتلقى ضربات السيوف وطعنات الرماح ورميات
السهام حتى خلصت إليه بضعة وثمانون جراحة ، فاضت بعدها روحه
ليلحق بالشهداء .

وكان عمرو بن الجموح رجلاً أعرج ولكنه كان في الرعي الأول يذب
عن رسول الله وهو يعرج في مشيته ويقول :

— أنا والله مشتاق إلى الجنة .

كان له بنون أربعة يشهدون مع النبي — ﷺ — المشاهد أمثال
الأسد ، وأراد قومه أن يحبسوه يوم أحد وقالوا :

— أنت رجل أعرج ولا حرج عليك ، وقد ذهب بنوك مع النبي

— ﷺ — فقال :

— بخ ! يذهبون إلى الجنة وأجلس أنا عندكم !

وأخذ درقته وهو يقول :

— اللهم لا تردني إلى أهلي .

فخرج ولحقه بعض قومه يكلمونه في القعود ، فأبى وجاء إلى رسول
الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله إن قومي يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج
معك ، والله إنى لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة .

— أما أنت فقد عذرك الله ولا جهاد عليك .

فأبى ، فقال النبي — ﷺ — لقومه وبنيه :

— لا عليكم أن تمنعوه ، لعل الله يرزقه الشهادة .

— ٥٥ —

وراح عمرو بن الجموح يقاتل عن نبيه عليه السلام وابنه يعدو في أثره حتى رزقهما الله الشهادة وقتلا في سبيل الله .

وخرجت عائشة في نسوة تستروح الخبر حتى كانت بمنقطع الحرة وهى هابطة من بنى حارثة إلى الوادى ، لقيت هند بنت عمرو بن حزام أخت عبد الله بن عمرو بن حزام تسوق بعيرا لها عليه زوجها عمرو بن الجموح وابنها خلاد بن عمرو بن الجموح وأخوها عبد الله بن حزام وأبو جابر عبد الله فقالت لها عائشة :

— عندك الخبر ، فما وراءك ؟

فقالت هند :

— خير ، أما رسول الله عليه السلام فصالح وكل مصيبة بعده جلل ، واتخذ الله من المؤمنين شهداء .

فقالت لها عائشة .

— فمن هؤلاء ؟

— أخى وابنى وزوجى قتلى .

— فأين تذهبين بهم ؟

— إلى المدينة أقبرهم بها .

وراحت تزجر بعيرها :

— حل . حل .

فبرك البعير فقالت عائشة :

— لثقل ما حمل .

قالت هند :

— ما ذاك ، لربما حمل ما يحمله البعيران ولكنى أراه لغير ذلك .

فزجرته فقام ، فلما وجهت به إلى المدينة برك فتذكرت هند قول زوجها لما خرج :

« اللهم لا تردني إلى أهلي » ، فوجهته راجعة إلى أحد فأسرع ، فرجعت إلى النبي ليقبره مع الشهداء .

وأقبل ثابت بن الدحداحة والمسلمون أوزاع^(١) قد سقط في أيديهم ، فجعل يصيح :

— يا معشر الأنصار إلىّ إلىّ . أنا ثابت بن الدحداحة ! إن كان محمد قد قتل فإن الله حي لا يموت ! قاتلوا عن دينكم فإن الله مظهركم وناصركم .

فنهض إليه نفر من الأنصار فجعل يحمل بمن معه من المسلمين وقد وقفت لهم كتبية كثيرة السلاح فيها رؤساء المشركين : خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب وجعلوا يناوشونهم . ثم حمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فأنفذه فوق مينا ، وقتل من كان معه من الأنصار .

وعلم الذين بقوا من المسلمين أنه لا طاقة لهم بالمشركين فرأوا أن يصعدوا في الجبل ليعتصموا به ، فانطلق رسول الله — ﷺ — والذين معه متوجهين إلى الشعب .

ورأى كعب بن مالك رسول الله فعرف عينيه تزهزان من تحت المغفر ، فنادى بأعلى صوته :

— يا معشر المسلمين أبشروا . هذا رسول الله — ﷺ .
فأشار إليه رسول الله — ﷺ — أن أنصت .

(١) أوزاع مشتون .

وأقبل عثمان بن عبد الله بن المغيرة يعدو على فرس له أبلق يريد رسول الله ﷺ — عليه لأمة كاملة وهو يصيح :
— لا نجوت إن نجوت !

فوقف رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — ، وعثر بعثمان فرسه في بعض تلك الحفر التي حفرها أبو عامر للمسلمين فوق الفرس لوجهه وسقط عثمان عنه . وخرج الفرس غائرا فأخذه بعض أصحاب رسول الله ﷺ — ، ومشى الحارث بن الصمة إلى عثمان فاضطربا ساعة بالسيفين ، ثم ضرب الحارث رجله وكانت درعه مشمرة فبرك فأجهز عليه ورسول الله ينظر إلى قتلهما ، فسأل عن الرجل قيل :
— عثمان بن عبد الله بن المغيرة .

— الحمد لله الذي أحانه (أهلكه) .

وقد كان عبد الله بن جحش أسره من قبل بطن نخلة حتى قدم به على رسول الله — ﷺ — فافتدى ورجع إلى قريش وغزا معهم أحدا ، ورأى مصرع عثمان عبيد بن حجاز العامري أحد بنى عامر بن لؤي فأقبل يعدو كأنه سبع ، فضرب حارث بن الصمة ضربة على عاتقه فوقع الحارث جريحا حتى احتمله أصحابه ، وأقبل أبو دجانة على عبيد بن الحجاز فتناوشا وكل واحد منهما يتقى بالدرقة سيف صاحبه ، ثم حمل عليه أبو دجانة فاحتضنه ، ثم جلد به الأرض وذبحه بالسيف كما تذبح الشاة ، ثم انصرف ليلحق برسول الله .

وقال رسول الله — ﷺ — :

— من رجل ينظر ما فعل سعد بن الربيع ؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات ؟

فقال رجل من الأنصار :

— أنا أنظر يا رسول الله ما فعل .

فنظر فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق^(١) ، فقال له :

— إن رسول الله — ﷺ — أمرني أن أنظر في الأحياء أنت أم في

الأموات ؟

— أنا في الأموات فأبلغ رسول الله — ﷺ — مني السلام وقل له :

إن سعد بن الربيع يقول : جزاك الله خيراً عنا ما جزى نبياً عن أمته ، وأبلغ

قومك السلام عني وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : لا عذر لكم

عند الله أن يخلص إلى نبيكم ومنكم عين تطرف .

فلم يرح الأنصاري عنده حتى مات ، ثم جاء إلى رسول الله

— ﷺ — فأخبره فقال :

— اللهم ارض عن سعد بن الربيع .

وانطلق رسول الله — ﷺ — ومن معه ليشتدوا في الجبل وانتهى

ومعه أبو بكر وعلى وطلحة والزبير والحارث بن الصمة إلى فم الشعب ،

فخرج على بن أبي طالب حتى ملأ درقته ماء وغسل به عن وجه ابن عمه

الدم ، وكان نساء المدينة قد خرجن وفيهم فاطمة بنت محمد عليه السلام ،

فلما لقيت رسول الله اعتنقته وجعلت تغسل جراحاته وعلى يسكب الماء

فتزايد الدم . فلما رأته أخذت شئاً من حصير فأحرقتة بالنار حتى صار

رماداً فأخذت ذلك الرماد وكدته حتى لصق بالجرح فاستمسك الدم .

وأراد رسول الله — ﷺ — أن يشرب من الماء الذي أحضره على بن

أبي طالب فلم يستطع وقد كان عطشاً ، ووجد ريحاً من الماء كرهها

(١) رمق : بقية من روح .

فقال :

— هذا ماء آجن .

فتمضمض منه للدم كان بفيه ثم مجه ، فخرج محمد بن مسلمة يطلب الماء مع النساء وكن أربع عشرة امرأة وقد جئن من المدينة يتلقين الناس يحملن الطعام والشراب على ظهورهن ويسقين الجرحى ويداوينهم . ولم يجد محمد بن مسلمة عند عائشة وأم سليم وحمئة بنت جحش ماء فقد فرغت القرب التي كانت على ظهورهن ، فذهب محمد بن مسلمة إلى قناة ومعه سقاؤه فجاء بماء عذب فشرب منه رسول الله — ﷺ — ودعا له بخير ، ثم قال :

— لن ينالوا منا مثلها حتى نستلم الركن !

وكان أصحاب رسول الله — ﷺ — في الجبل أوزاع يذكرون مقتل من قتل منهم ويذكرون ما جاءهم عن رسول الله — ﷺ — . وأراد رسول الله عليه السلام أن يعلو الصخرة التي في الشعب ، فلما ذهب لينهض لم يستطع لكثرة ما خرج من دم رأسه ووجهه ، فقال له طلحة بن عبيد الله :

— إن بي قوة فقم لأحملك .

فحملة حتى انتهى إلى الصخرة التي على فم شعب الجبل . فلما نظر المسلمون إليهم ظنوهم قريشا ، فجعلوا يولون في الشعب هارين منهم يظنونهم المشركين ، فجعل رسول الله — ﷺ — يتسم إلى أبي بكر وهو على جنبه ويقول له :

— ألح^(١) إليهم .

(١) ألح : أمره أن يلوح لهم لعلهم يطمئنون ، .

فراح أبو بكر يليح إليهم وهم لا يعرجون حتى نزع أبو دجاجة عصا به حمراء على رأسه فأوفى على الجبل ، فجعل يصيح ويليح فوقفوا حتى عرفوهم . ولقد وضع أبو بردة بن نيار سهما على كبد قوسه فأراد أن يرمى به رسول الله — ﷺ — وأصحابه . فلما تكلموا وناداهم رسول الله — ﷺ — أمسك . وفرح المسلمون برؤيته حتى لكأنهم لم تصيبهم مصيبة ، وسروا لسلامته وسلامتهم من المشركين .

ورأى خالد بن الوليد وهو في كتيبة خشناء عمر بن الخطاب وما معه أحد ، فالتفت إلى من معه ففطن إلى أنه ما عرفه منهم أحد غيره ، وخشى إن أغرى به من معه أن يصمدوا له ، فنظر إليه وهو متوجه إلى الشعب ليلحق برسول الله — ﷺ — وعف عن قتله ، فأمر عمر خنثمة بنت هاشم بن المغيرة ابنة عم خالد .

وجعل رسول الله — ﷺ — يقول :

— ما فعل عمي ؟

وتذكر رسول الله ذكوان بن عبد قيس ذلك الرجل الشجاع الذي قام

ليحرسه يوم بدر وحارب معه في أحد ، فقال :

— من له علم بذكوان بن عبد قيس ؟

فقال على عليه السلام :

— أنا رأيت يا رسول الله فارسا يركض في أثره حتى لحقه وهو يقول :

— لا نجوئُ إن نجوئُ .

فحمل عليه فرسه وذكوان راجل فضربه وهو يقول : خذها وأنا ابن

علاج ! فقتله . فأهويت إلى الفارس فضربت رجله بالسيف حتى قطعها

من نصف الفخذ ، ثم طرحته عن فرسه فأجهزت عليه ، وإذا هو

أبو الحكم بن أخنس بن شريق بن علاج بن عمرو بن وهب الثقفى .
 وجلس رافع بن خديج إلى جنب أبى مسعود الأنصارى وهو يذكر من
 قتل من قومه ويسأل عنهم ، فيخبر برجال منهم سعد بن الربيع وخارجة بن
 زهير وهو يقول : إنا لله وإنا إليه راجعون » و يترحم عليهم . وبعض
 المسلمين يسأل بعضا عن حيمه وذى رحمه فيهم ، يخبر بعضهم بعضا ،
 فيبينا هم على ذلك إذا عدوهم فوقهم قد علوا وإذا كئاب المشركين
 بالجبل ، فنسوا ما كانوا يذكرون وندبهم رسول الله — ﷺ —
 وحضهم على القتال . وانتهى عمر إلى النبى — صلى الله عليه وسلم
 وآله — وهو يقول : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبل الرسل أفان
 مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ (١) وأبو سفيان فى سفح الجبل ، فقال
 رسول الله — ﷺ — يدعوا ربه :

— اللهم ليس لهم أن يعلنوا .

فانكشفوا فقد كان أبو سفيان يحسب أن محمدا قد قتل وأن قتال الأوس
 والخزرج ومن بقى من المهاجرين سيكلفه شططا .
 وجعل رسول الله — ﷺ — يتلفت باحثا عن عمه حمزة فلم يجده ،
 فقال :

— ما فعل عمى ؟ ما فعل عمى ؟
 وسأل رسول الله — ﷺ — الحارث بن الصمة عن عبد الرحمن بن
 عوف ، فقال الحارث :

— ٦٢ —

— رأيته في جنب الجبل .
ونخرج الحارث بن الصمة يطلب حمزة بن عبد المطلب فالتقى
بعبد الرحمن بن عوف فإذا بين يديه سبعة صرعى ، فقال له :
— ظفرت يمينك . أكل هؤلاء قتلت ١٩ .
وألقى الله على المسلمين النعاس ، أمنة منه ، ما منهم رجل إلا يغط
غطيطا حتى تناطحت التروس ، وسقط سيف بشر بن البراء بن معرور
من يده وسقط سيف طلحة ، ثم فزعوا وكانهم لم يصيبهم من قبل نكبة .

٥

وصاح أبو سفيان :

— يا معشر قريش ، أيكم قتل محمدا ؟

قال ابن قميئة :

— أنا قتلته .

فقال له أبو سفيان وقد تهلل بالفرح :

— نسورك كما تفعل الأعاجم بأبطالها .

وانتفخت أوداج ابن قميئة وانتظر في لفة لحظة التكريم . تلك اللحظة

التي سيوضع فيها السوار حول معصمه اعترافا ببطولته . وراح أبو سفيان

يطوف بأبي عامر الفاسق في المعركة هل يرى محمدا بين القتلى ! فمر

بخارجة بن زيد بن أبي زهير فقال :

— يا أبا سفيان هل تدري من هذا ؟

— لا .

— هذا خارجة بن زيد ، هذا أسيد بن الحارث بن الخزرج .

ومر بعباس بن عباد بن نضلة إلى جنبه قال :

— أتعرفه ؟

— لا .

— هذا ابن قوقل ، هذا الشريف في بيت الشرف .

ثم مر بذكوان بن عبد قيس فقال :

— هذا من ساداتهم .

ثم مر بابنه حنظلة بن أوى عامر وهو مقتول إلى جنب حمزة بن عبد المطلب وعبد الله بن جحش ، فلاح فى وجهه الأسى فقال أبو سفيان :

— من هذا ؟

— هذا أعز من ههنا على ، هذا ابنى حنظلة .

وراح أبو سفيان يضرب فى شدى حمزة بن عبد المطلب بزج الرمح ويقول :

— ذق عَقَق (١) .

ومر الحليس سيد الأحابيش بأبى سفيان وهو يضرب فى شدى حمزة فاستنكر ما يفعل فقال :

— يا بنى كنانة ، هذا سيد قرىش يصنع بابن عمه ما ترون لهما .

— ويحك اكتمها عنى فإنها كانت زلة .

ثم نظر أبو عامر إلى ابنه مليا فقال :

— إن كنت أحذرك هذا الرجل من قبل هذا المصرع ، والله إن كنت لبرا بالوالد ، شريف الخلق فى حياتك ، وإن مماتك لمع سراة أصحابك وأشرافهم .

وألقى نظرة على حمزة ثم قال :

— إن جزى الله هذا القليل خيرا ، أو جزى أحدا من أصحاب محمد خيرا فليجزك .

ثم نادى :

— يا معشر قرىش حنظلة لا يمثل به ، وإن كان خالفنى وخالفكم .

(١) من العقوق : يقصد أن تنكر وتجاوز فى تنكره لقرىش .

وقال أبو سفيان :

— ما نرى مصرع محمد ولو كان قتل لرأيناه ، كذب ابن قميئة !

ولقى خالد بن الوليد فقال :

— هل تبين عندك قتل محمد ؟

— لا . رأيته أقبل في نفر من أصحابه مصعدين في الجبل .

فقال أبو سفيان :

— هذا حق ، كذب ابن قميئة . زعم أنه قتله !

وجاء وحشى إلى هند بنت عتبة فقال لها :

— ماذا لي إن قتلت قاتل أبيك ؟

— سلني .

فأخبرها أنه قتل حمزة فتهللت أساريرها فأعطته ثيابها وحليها ، وكان في

ساقها خدمتان (خلیخالان) من جزع ظفار (بلد باليمن) وأساور

وخوايم في أصابع رجلها ثم قالت :

— إذا جئت مكة فلك عشرة دنانير .

ووقفت ترنو إلى وحشى في نشوة ثم قالت :

— أرني مصرعه .

فراحا بجوسان خلال الجثث التي ملأت أرض المعركة حتى إذا ما رأت

حمزة قتيلا انقضت عليه وبقرت عن كبده فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها

فلفظتها . وجاء نسوة قريش يملن بالقتلى . من أصحاب رسول الله

ﷺ — ويجدن الآذان والآنف حتى اتخذت هند من آذان الرجال

وأنفهم خدما (خلیخالان) وقلائد ، ثم علت على صخرة مشرفة

فصرخت بأعلى صوتها :

(غزوة أحد)

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سُعر
ما كان عن عتبة لي من صبر ولا أخى وعمه وبُكرى
شفيت نفسى وقضيت نذرى شفيت وحشى غليل صدرى
فشكر وحشى على عمرى حتى ترم أعظمى فى قبرى
فأجابها هند بنت أثاثه بن عباد بن المطلب فقالت :

تخزيت فى بدر وبعده بدر يا بنت وقاع عظيم الكفر
أفحمتك الله غداة الفجر بالهاشميين الطوال الزهر
بكل قطاع حُسام يفرى حمزة ليثى وعلى صقرى
إذ رام شيب وأبوك غدرى فخضبا منه ضواحى النحر
ونذكرك السوء فشر نذر

ولم يكن المسلمون يعلمون بمقتل حمزة ، فأرادت هند أن تعلنهم بالنبأ
لتنشئ غليل صدرها فصرخت بأعلى صوتها :

شَفَّيت من حمزة نفسى بأحد حتى بقرت بطنه عن الكبد
أذهب ذاك عنى ما كنت أجد من لدعة الحزن الشديد المعتمد
والحرب تعلوكم بشؤبوب^(١) برد تُقدم إقداما عليكم كالأسد

وأقبل أبو سفيان على فرس له حوراء فوقف على أصحاب النبى
— عليه السلام — وهم فى عرض الجبل . فنادى بأعلى صوته :

— أين ابن أبى قحافة ؟ أين ابن الخطاب ؟ الحرب سجال ، حنظلة
بحنظلة .

يعنى حنظلة بن أبى عامر بحنظلة بن أبى سفيان ، فقال عمر بن
الخطاب :

(١) الشؤبوب : دفعة المطر الشديدة .

— ٦٧ —

— يا رسول الله أجيبه ؟

— نعم فأجبه .

قال أبو سفيان :

— اعل هبل .

فقال رسول الله — ﷺ — لعمر :

— قل له : الله أعلى وأجل .

— إن لنا العزى ولا عزى لكم .

— الله مولانا ولا مولى لكم .

— ألا إن الأيام دول ، وإن الحرب سجال .

— ولا سواء ، قتلنا في الجنة وقتلنا في النار .

— إنكم لتقولون ذلك لقد جبننا إذا وخسرنا .

ثم قال :

— يا بن الخطاب قم إلى أكلمك .

فقام إليه فقال :

— أنشدك بدينك هل قتلنا محمدا ؟

— اللهم لا . وإنه ليسمع كلامك الآن .

— أنت عندي أصدق من ابن قميعة .

ثم صاح أبو سفيان ورفع صوته :

— إنكم واجدون في قتلاكم عبثا ومثلا ، ألا إن ذلك لم يكن عن رأى

سراتنا .

ثم أدركته حمية الجاهلية فقال :

— وأما إذا كان ذلك فلم نكرهه .

ولم يفكر أبو سفيان في أن يصعد إلى الجبل ليقضى على محمد عليه السلام فالخيل لا تستطيع الصعود إليه ، وإن القوم إن صعدوا إليه رجاله لم يثقوا بالظفر به لأن معه أكثر أصحابه وهم مستميتون إن صعد القوم إليهم ، وإنهم لا يقتلون منهم واحدا حتى يقتلوا منهم اثنين أو ثلاثة لأنهم لا سبيل لهم إلى الهرب لكونهم محصورين في قمة أحد ، فالرجل منهم يحامى عن خيط رقبته .

فقتع أبو سفيان والذين معه بما وصلوا إليه من قتل من قتل وأملوا يوما ثانيا يكون لهم فيه الظفر فنادى أبو سفيان :

— ألا إن موعدكم بدر الصفراء على رأس الحول .

فوقف عمر وقفة ينتظر ما يقول رسول الله — ﷺ — فقال له :

— قل نعم .

فانصرف أبو سفيان إلى أصحابه وأخذوا في الرحيل ، فأشفق رسول الله — ﷺ — والمسلمون من أن يغيروا على المدينة فيهلك الذراري والنساء ، فقال رسول الله — ﷺ — لسعد بن أبي وقاص :

— اذهب فأتنا بخبر القوم فإنهم إن ركبوا الإبل وجنبوا الخيل فهو الظعن إلى مكة ، وإن ركبوا الخيل وجنبوا الإبل فهو الغارة على المدينة ، والذي نفسى بيده إن ساروا إليها لأسيرن إليهم ثم لأناجزهم .

وتأهب سعد للانطلاق في أثر القوم فقال له رسول الله — ﷺ :

— إن رأيت القوم يريدون المدينة فأخبرني فيما بيني وبينك ولا تفت في

عضد المسلمين .

فتوجه سعد يسعى وأرصد في نفسه إن أفرغه شيء رجع إلى النبي

— ﷺ — ، فخرج في آثارهم حتى إذا كانوا بالعقيق^(١) وهو بحيث يراهم ويتأملهم ركبوا الإبل وجنبوا الخيل ، فقال :
— إنه الظعن إلى بلادهم .

ثم وقفوا وقفة بالعقيق يتشاورون في دخول المدينة فقالوا :
— بمس ما صنعنا ، قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشرذمة تركناهم .
ارجعوا فاستأصلوهم .

فلما عزموا على ذلك ألقى الله تعالى في قلوبهم الرعب فقالوا :
— لنا الغلبة ، فلو انصرفنا فإنه قد بلغنا أن ابن أبي انصرف بثلاث الناس
وقد تخلف الناس من الأوس والخزرج ، ولا نأمن أن يكروا علينا وفينا
جراح وخيلنا عامتها قد عقرت من النبل .
وقال صفوان بن أمية :

— قد أصبتم القوم فانصرفوا ولا تدخلوا عليهم وأنتم كاللون ولكم
الظفر ، فإنكم لا تدرون ما يغشاكم ، فقد وليت يوم بدر ، لا والله ما تبعوكم
وكان الظفر لهم .

وانصرفوا إلى مكة فلما رآهم سعد منطلقين رجع إلى رسول الله
— ﷺ — وهو كالمكسر فقال :

— وجه القوم يا رسول الله إلى مكة . امتطوا الإبل وجنبوا الخيل .
فقال رسول الله — ﷺ :

— ما تقول ؟

— ما قلت يا رسول الله .

فخلا به فقال :

(١) موضع بالمدينة فيه عيون ونخيل .

— ٧٠ —

— أحقا ما تقول ؟

— نعم يا رسول الله .

— فما بالي رأيتك منكسرا ؟

— كرهت أن آقى المسلمين فرحا بقفولهم إلى بلادهم .

فقال — ﷺ :

— إن سعدا لمجرب .

وانطلقت فريش إلى مكة حتى إذا كانت بسرف على بعد بضعة أميال

من مكة احتقن الدم في عنق أبي بن خلف من أثر الرمح الذي صوبه إليه

محمد — ﷺ — فقال :

— قتلني والله محمد !

قالوا له :

— ذهب والله فؤادك ! والله إن بك من بأس .

— إنه قد كان قال : أنا أقتلك . فوالله لو بصق عليّ لقتلني .

ومات أبي بن خلف وهم قافلون به إلى مكة ، وصدق رسول الله

— ﷺ — حين قال : أنا أقتنه إن شاء الله .

كان سعد بن مالك ممن ردهم رسول الله ﷺ — من الشيخين (١)
لم يجيء مع المقاتلة ، فلما كان من النهار بلغ المدينة مصاب رسول الله
ﷺ — وتفرق الناس عنه ، فجاء سعد مع غلمان بنى خُدرة
يعرضون لرسول الله ﷺ — ينظرون إلى سلامته فيرجعون بذلك إلى
أهلهم ، فلقوا الناس متفرقين ببطن قناة ، فلم يكن لهم هِمة إلا النبي
ﷺ — ينظرون إليه .

فلما رأى النبي عليه السلام سعدا قال :

— سعد بن مالك ؟

— نعم بأى أنت وأمى !

ودنا سعد من رسول الله ﷺ — فقبل ركبته وهو على فرسه ،
فقال عليه السلام :

— آجرك الله في أيك !

ثم نظر سعد إلى وجهه فإذا في وجنتيه مثل موضع الدرهم في كل
وجنة ، وإذا شجة في جبهته عند أصول الشعر ، وإذا شفته السفلى تدمى ،
وإذا في ربايعيته اليمنى شظية ، وإذا على جرحه شئ أسود ، فسأل سعد بن
مالك الناس :

(١) موضع بالمدينة استعرض فيه النبي ﷺ — جيشه قبل أن يسير إلى

— ٧٢ —

— ما هذا على وجهه ؟

— حصير محرق .

— من أدمى وجنتيه ؟

— ابن قميلة .

— فمن شجه في وجهه ؟

— ابن شهاب .

— من أصاب شفثيه ؟

— عتبة بن أبى وقاص .

وكان حاطب بن أمية منافقا وكان ابنه يزيد بن حاطب رجل صيّد
راح يحارب مع النبى — ﷺ — حتى حمل من المعركة جريحا وبه رمق ،
فرجع به قومه إلى منزله فالتف حوله أهل الدار ليكون عنده ، فالتفت أبوه
إليهم وقال :

— أنتم والله صنعتُم هذا به .

— كيف ؟

— أغررتموه من نفسه حتى خرج فقتل .

فجعل المسلمون من أهل الدار من الرجال والنساء يقولون ليزيد :

— أبشر يا بن حاطب بالجنة .

فظهر الضيق في وجه الشيخ فقال :

— بأى شيء تبشرونه ! أبحقه من حرمل (كفن) ! غررتم والله هذا

الغلام من نفسه .

وكان رسول الله — ﷺ — يقول :

— ما فعل عمى ؟ ما فعل عمى ؟

فخرج الحارث بن الصّمة فأبطأ ، فخرج علىّ عليه السلام يطلبه فيقول :

يا رب إن الحارث بن الصّمة كان رفيقا وبنّا ذا ذمّة
قد ضل في مهامه مهمّة يلتبس الجنّة فيها ثمّة
حتى انتهى إلى الحارث ووجد حمزة مقتولا فاعتصر الحزن قلبه
وظفرت الدموع إلى عينيه ، وإذا بالبطل الذي قال لزوجه فاطمة وهو
يذهب ليأتى بماء ليغسل الدم عن وجه رسول الله عليه السلام : أمسكي
هذا السيف غير ذميم . يجهد بالبكاء لا يدري كيف يذهب بالنبا الفاع
إلى رسول الله ، وكيف ينعى إليه حمزة أسد الله وأسود رسوله .

وعاد على وهو باسر الوجه يحمل نفسه حملا ، حتى إذا أقبل على رسول
الله عليه السلام عرف الفاجعة في وجهه فانقبض قلب الرسول ، وجعلت
فاطمة تنظر إلى وجه زوجها في حزن وإشفاق .

وأقبل رسول الله — ﷺ — حتى وقف على حمرة فوجده قد بقر
بطنه ومثل به فجذع أنفه وقطعت مذاكيره ، فظفر — ﷺ — إلى شيء
لم ينظر إلى شيء قط كان أوجع لقلبه منه وقال :

— لن أصاب بمثلك . ما وقفت موقفا أعيظ لى من هذا . رحمة الله
عليك فإنك كنت ما علمتك فعولا للخيرات وصولا للرحم . أما والله
لئن أظفرنى الله تعالى بقريش في موطن من المواطن لأمثلن بسبعين منهم
مكائنك .

ووضعه في القبلة ثم وقف على جازته وانتحب حتى شهق ، وبلغ به
الغشى وراح يقول :

— يا عم رسول الله وأسود الله وأسود رسول الله ، يا حمزة يا فاعل الخيرات ،

يا حمزة يا كاشف الكربات . يا حمزة يا ذاب عن وجه رسول الله .
ولما رأى المسلمون حزع رسول الله ﷺ — على عمه قالوا :
— لئن أظفرنا الله بهم يوما من الدهر لتمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من
العرب .

وطلعت صفية فقال عليه السلام :
— يا زبير اغن عنى أملك .
فذهب الزبير إلى أمه وهو والده حزين وقال لها :
— يا أمه ، إن فى الناس تكشفا فارجعى .
— ما أنا بفاعلة حتى أرى رسول الله ﷺ .
وحال الأنصار بينها وبين رسول الله ﷺ — فقال :
— دعوها .

فانطلقت إليه عليه السلام وقالت :
— أين ابن أُمى حمزة ؟
فقال وهو حزين :
— هو فى الناس .
— لا أرجع حتى أنظر إليه .

ورأت صفية أخاها حمزة وقد مثل به فأحست بسكاكين تمزق
أحشاءها ، وجلست عند رسول الله عليه السلام ، فجعل إذا بكى يبكى
وإذا نشجت ينشج^(١) . وجعلت فاطمة عليها السلام تبكى ، فلما بكى
بكى رسول الله ﷺ — ثم قال :

(١) النشيج : البكاء بصوت مرتفع .

— لن أصاب بمثل حمزة أبدا .
وكفن حمزة رضى الله عنه بنمرة^(١) كانوا إذا مدوها على رأسه
انكشفت رجلاه وإن مدوها على رجله انكشف رأسه ، فمدوها على
رأسه وجعلوا على رجله الإذخير^(٢) .
ونزل في قبر حمزة على كرم الله وجهه والزبير وأبو بكر وعمر ورسول
الله ﷺ — جالس على حفرة .
وراح الناس يكفنون مصعب بن عمير الذى كان قبل الإسلام فنى
مكة شبابا وجمالا ولباسا وعطرا ، إنه لم يترك إلا نمره إذا غطوا بها رجله
خرج رأسه ، فقال رسول الله ﷺ :
— غطوا بها رأسه واجعلوا على رجله الإذخير .
ونظر عليه السلام إلى مصعب بن عمير والحزن في قلبه ثم قال :
— لقد رأيتك بمكة وما بها أحد أرق حلة ولا أحسن لمة منك ، ثم أنت
اليوم أشعث الرأس في هذه البردة !
ثم أمر به فقبر ونزل في قبره أخوه أبو الروم وعامر بن ربيعة وسويطة بن
عمرو بن حرملة .
وأمر رسول الله ﷺ — أن يدفن عبد الله بن عمرو بن حزام
وعمر بن الجموح في قبر واحد لما كان بينهما من الصفاء فقال :
— ادفنوا هذين المتحايين في الدنيا في قبر واحد .
وقال لأهل القتلى :
— احفروا وأوسعوا وأحسنوا وادفنوا الاثنين والثلاثة في القبر وقدموا
أكثرهم قرآنا .

(١) النمره : شملة فيها خطوط . (٢) الإذخير : الحشيش الأخضر .

أرخص لهم في ذلك لما بالمسلمين من الجراح التي يشق معها أن يحفروا لكل واحد قبراً ، وجاء الناس يلتمسون قتلاهم ، ووجد بين القتلى عمرو ابن ثابت بن وقش جريحاً ميتاً ، فدنا منه قومه وهو بآخر رمق وقالوا في دهش :

— ما جاء بك يا عمرو ؟

— الإسلام ، آمنت بالله ورسوله وأخذت سيفي وحضرت فرزقني الله الشهادة .

ومات بين أيديهم بعد أن كان شاكاً في الإسلام وكان قومه يكلمونه في الإسلام فيقول : لو أعلم ما تقولون حقاً ما تأخرت عنه ، حتى إذا كان يوم أُخذ بدا له الإسلام ورسول الله — ﷺ — بأحد . فأخذ سيفه وأسلم وخرج حتى دخل في القوم فقاتل حتى جرح وكتبت له الجنة ، ولم يصل لله تعالى سجدة .

وقال رسول الله — ﷺ — والدموع في عينيه :

— لولا أن تجزع صفية ونساءنا وتكون سنة من بعدى لتركنا حمزة ولم ندفنه حتى يحشر من بطون الطير والسباع .

وحمل أناس قتلاهم إلى المدينة فدفنوهم في نواحيها ، فجاء منادى رسول الله — ﷺ — فقال :

— ردوا القتلى إلى مضاجعهم .

فأدرك المنادى واحداً لم يكن دفن فرداً ، ومن دفن تركوه .

وجعل جابر بن عبد الله يكي ويكشف الثوب عن وجه أبيه ، فجعل أصحاب النبي — ﷺ — ينهونه والنبي لم ينه . ومر النبي ببشير بن عفرأ وهو يكي أباه فدنا منه وقال في رقة :

— أما ترضى أن تكون عائشة أمك وأكون أنا أباك ؟
وجاءت امرأة من بنى دينار تتلمس أهلها في القتل فقادوها إلى جثث
مشوهة فقالت :

— من هذا ؟

— هذا أخوك .

— من هذا ؟

— هذا ابنك .

— من هذا ؟

— هذا زوجك .

— من هذا ؟

— هذا أبوك .

فلم تكثرت بذلك بل صارت تقول :

— ما فعل رسول الله ﷺ ؟

— أمامك .

فذهبت إليه حتى جاءته فأخذت بناحية ثوبه ثم جعلت تقول :

— بأى أنت وأمى يا رسول الله ، لا أبالى إذ سلمت من عطب .

وأشرف رسول الله ﷺ — على قتلى أحد وقال :

— أنا شهيد على هؤلاء وما من جرح يجرح في الله إلا والله يبعثه يوم

القيامة يدمى جرحه ، اللون لون الدم والريح ريح المسك .

ثم تلا : ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ (١) .

وأراد — ﷺ — أن يتوجه إلى المدينة فركب فرسه وخرج المسلمون حوله عامتهم جرحى ومعه أربع عشرة امرأة ، فلما كانوا بأصل أحد قال — ﷺ — :

— اصطفوا حتى أثنى على ربي عز وجل .
فاصطف الرجال خلفه صفوفا وخلفهم النساء ، فقال :
— اللهم لك الحمد كله ، اللهم لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت ولا هادي لمن أضللت ولا مضل لمن هديت ولا معطي لمن منعت ولا مانع لمن أعطيت ولا مقرب لما أبعدت ولا مبعد لما قربت . اللهم إني أسألك من بركتك ورحمتك وفضلك وعافيتك . اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول . اللهم إني أسألك الأمن يوم الخوف والغناء يوم الفاقة ، عائذا بك اللهم من شر ما أعطيت ومن شر ما منعت . اللهم توفنا مسلمين . اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين . اللهم عذب كفرة أهل الكتاب الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك . اللهم أنزل عليهم رجسك وعذابك إله الحق آمين .

ثم توجه — ﷺ — للمدينة فلقيته حَمْنَةُ بنت جحش بنت عمته — ﷺ — فقال لها عليه السلام :

— احتسبي .
— من يا رسول الله ؟
— خالك حمزة .
— إنا لله وإنا إليه راجعون . غفر الله له ، هنيئا له الشهادة .
ثم قال لها :

— ٧٩ —

- احتسبى .
- من يا رسول الله ؟
- أخاك عبد الله بن جحش .
- إنا لله وإنا إليه راجعون . غفر الله له ، هنيئا له الشهادة .
- ثم قال لها :
- احتسبى .
- من يا رسول الله ؟
- زوجك مصعب بن عمير .
- واحزنه !
- وصاحت وولولت ، فقال رسول الله — ﷺ :
- إن زوج المرأة ليمكن ما هو لأحد .
- واستمرت حمئة تولول على زوجها وتقول : واحزنه واحر قلباه .
- فقال لها رسول الله — ﷺ :
- لم قلت هذا ؟
- تذكرت يثم بنيه فراعننى .
- فدعا لها — ﷺ — ولولدها أن يحسن الله تعالى عليهم الخلف ،
- فتزوجت طلحة بن عبد الله فكان أوصل الناس لولدها .

٧

أقبل رسول الله — ﷺ — من أحد على فرسه وقد أخذ بعنانها سعد ابن معاذ والمسلمون من حوله ، حتى نزل ببني حارثة يمينا حتى طلع على بني عبد الأشهل وهم سيكون على قتلاهم ، فقال :

— لكن حمزة لا بواكي له .

وبكى — ﷺ — فإذا بالعبرات تسيل على الخدود . وخرج النساء ينظرون إلى سلامة رسول الله — ﷺ — فخرجت إليه أم عامر الأشهلية وتركت النوح ، فنظرت إليه وعليه الدرع كما هي فقالت :

— كل مصيبة بعدك جليل .

وخرجت كبشة بنت عتبة بن معاوية بن بلحارث بن الخزرج تعدو نحو رسول الله — ﷺ — وهو واقف على فرسه وسعد بن معاذ أخذ بعنان فرسه ، فقال سعد :

— يا رسول الله أُمى .

— مرحبا بها .

فدنت حتى تأملت فعاها بابنها عمرو بن معاذ ، فقالت :

— أما إذ رأيتك سالما فقد اشتويْتُ المصيبة (استقلتها) .

— يا أم سعد بشرى أهلكهم أن قتلاهم قد تراقفوا في الجنة جميعا وقد شفّعوا في أهلكهم .

— رضينا يا رسول الله ، ومن ييكي عليهم بعد هذا ؟

ثم قالت :

— يا رسول الله ادع لمن خلّفوا .

— اللهم أذهب حزن قلوبهم وآجر مصيبتهم وأحسن الخلف على من خلّفوا .

ثم قال لسعد بن معاذ :

— حُلْ يا أبا عمرو الدابة .

فحلّ الفرس وتبعه الناس فقال :

— يا أبا عمرو إن الجراح في أهل دارك فاشية ، فمن كان مجروحاً فليقر في داره وليداو جرحه ، ولا تبلغ معي بيتي عزمة مني .

فنادى فيهم سعد :

— عزمة من رسول الله — ﷺ — ألا يتبعه جريح من بنى الأشهل .

فتخلف كل مجروح وباتوا يوقدون النيران ويداونون الجراح وإن فيهم لثلاثين جريحاً .

ومضى سعد بن معاذ وسعد بن عباد مع رسول الله — ﷺ — إلى بيته .

فلما جاء — ﷺ — بيته حملة السعدان وأنزلاه عن فرسه ، ثم اتكأ عليهما حتى دخل بيته .

ثم رجع سعد بن معاذ إلى نسائه فساقهن فلم تبق امرأة إلا حاء بها إلى بيت رسول الله — ﷺ — ليكن حمزة .

وكان شماس بن عثمان المخزومي قد حمل إلى المدينة وبه رمق ، فأدخل على عائشة فقالت أم سلمة :

— ابن عمي يدخل إلى غيري ؟

(غزوة أحم)

فقال رسول الله ﷺ :

— احمलोہ إلى أم سلمة .

فحملوه إليها فمات عندها . فأمر رسول الله ﷺ — أن يرد إلى أحد فيدفن هناك كما هو في ثيابه التي مات فيها . وكان قد مكث يوماً وليلة ولم يذق شيئاً ، فلم يصل عليه رسول الله ﷺ — ولا غسله .

وأمر أسيد بن حضير نساءه ونساء قومه أن يذهبن إلى بيت رسول الله

ﷺ — يكيّن حمزة . وأذن بلال لصلاة المغرب فخرج رسول الله

ﷺ — يتوكأ على السعدين فصلی — بالناس ثم دخل بيته .

وغاب الشفق فأذن بلال بالعشاء فلم يخرج رسول الله ﷺ —

فلما ذهب ثلث الليل نادى بلال :

— الصلاة يا رسول الله .

فقام من نومه وخرج والنساء على باب المسجد يكيّن حمزة رضي الله

عنه ، فقال هن :

— أرجعن رحمكن الله ، لقد واسيتن معي . رحم الله الأنصار فإن

المواساة فيهم كما علمت قديمة .

ونهى نساء الأنصار عن النوح وقال له الأنصار :

— يا رسول الله بلغنا أنك نهيت عن النوح ، وإنما هو شيء نندب به

موتانا ونجد فيه بعض الراحة فأذن لنا فيه .

— إن فعلن فلا يخمشن ولا يلطنن ولا يلحقن شعرا ولا يشققن جيبا .

وبات وجوه الأوس والخزرج تلك الليلة على بابه بالمسجد يحرسونه

خوفا من قریش أن تعود إلى المدينة .

وراح ابن أبي بن سلول والمنافقون معه يشتمون ويُسرّون بما أصاب

المسلمين ويظهرون أقبح القول ، ورجع عبد الله بن عبد الله بن أبي إلى أبيه وهو جريح ، فبات يكرى الجراحة بالنار حتى ذهب عامة الليل وأبوه يقول :

— ما كان خروجك مع محمد إلى هذا الوجه برأى ، عصاني محمد وأطاع الولدان ! والله لكأني كنت أنظر إلى هذا .
فقال ابنه :

— الذى صنع الله لرسوله وللمسلمين خير إن شاء الله .
وقال عمر بن الخطاب لحسان بن ثابت :
— يا أبا الفريضة لو سمعت ما تقول هند ، ولو رأيت شرها قائمة على صخرة ترتجز بنا وتذكر ما صنعت بحمزة !
— والله إلى لأنظر إلى الحربة تهوى وأنا على فارغ — أطمه — فقلت :
والله إن هذه ل سلاح ليس بسلاح العرب . وإذا بها تهوى إلى حمزة ولا أدري ، ولكن أسمعنى بعض قولها أكفيكموها .
فأنشده بعض ما قالت ، فقال حسان يهجوها :
أشبرت لكأج وكان عادتها
لؤما إذا أشرت مع الكفر
وخرجت مرقصة إلى أحد
في القوم مقتبة على بكر^(١)
بكر ثقال لا حراك به
لا عن معاتبة ولا زجر

(١) رقص البعير : أسرع في سيره .

أخرجتِ ثائرة محاربة
 بأبيك وابنك بعدُ في بدر
 وبعمك المتروك مُنجِدا
 وأخيك معفرين في الجفر^(١)
 فرجعت صاغرة بلا ترة
 منا ظفرت بها ولا وتر
 وأظهرت اليهود القول السيئ وقالوا :
 — ما محمد إلا طالب مُلك ، ما أصيب هكذا نبي قط في بدنه وأصيب
 في أصحابه .
 وكان اليهود قد قالوا لما هزم الله المشركين يوم بدر :
 — هذا والله النبي الأمي الذي شئنا به موسى ونجده في كتابنا بنعته
 وصفته ، وأنه لا ترد له راية .
 فأرادوا تصديقه واتباعه ، ثم قال بعضهم لبعض :
 — لا تعجلوا حتى ننظر إلى وقعة له أخرى .
 فلما كان يوم أحد ونكب المسلمون شكوا وقالوا :
 — لا والله ما هو به .
 وكتب يهود المدينة إلى يهود العراق واليمن ومن بلغهم كتابهم من اليهود
 في الأرض كلها : « إن محمدا ليس نبي الله فاثبتوا على دينكم وأجمعوا
 كلمتكم على ذلك » . فأجمعت كلمتهم على الكفر بمحمد — ﷺ —
 والقرآن . ففرحوا بذلك وقالوا :
 — الحمد لله الذي جمع كلمتنا ولم نتفرق ولم نترك ديننا .

(١) الجفرة : سعة في الأرض مستديرة .

وقالوا :

- نحن أهل الصوم والصلاة ونحن أولياء الله .
- فأنزل الله فيهم : ﴿ وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ (١) .
- وجعل المنافقون يخذلون عن رسول الله ﷺ — ويأمرهم بالتفرق عنه ، وقالوا لأصحاب النبي ﷺ :
- لو كان ما قتل منكم عندنا ما قتل .
- وسمع عمر بن الخطاب ذلك في أماكن ، فمشى إلى رسول الله ﷺ — يستأذنه في قتل من سمع ذلك منهم من اليهود والمنافقين ، فقال له :
- يا عمر ، إن الله مظهر دينه ومعز نبيه ولليهود ذمة فلا أقتلهم .
- فهو لاء المنافقون يا رسول الله يقولون .
- أليس يظهرون شهادة أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله !
- بلى . وإنما يفعلون تعوذا من السيف وقد بان لنا أمرهم وأبدى الله أضغانهم عند هذه النكبة .
- إني نهيت عن قتل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله يا بن الخطاب ، إن قريشا لن ينالوا ما نالوا منا مثل هذا اليوم حتى نستلم الركن .
- وكان معاوية بن المغيرة قد انهزم يوم أحد فمضى على وجهه فبات قريبا من المدينة ، فلما أصبح دخل المدينة فأتى منزل عثمان بن عفان وهو ابن عمه فضرب بابه . فقالت أم كلثوم زوجته :
- ليس هو ههنا .

(١) آل عمران ١٨٨ .

— ابغى إليه ، فإن له عندى ثمن بعير ابتعته منه عام أول وقد جئته به ،
فإن لم ينجى ذهبت .

فأرسلت إليه وهو عند رسول الله ﷺ — يعتذر عن فراره ،
فلما جاء قال لمعاوية :

— أهلكتنى وأهلكت نفسك ! ما جاء بك ؟
— يا بن عم ، لم يكن أحد أقرب إلى ولا امس رحاى منك فجئتك
لتجبرنى .

فأدخله عثمان داره ، وصيره فى ناحية منها .
ثم خرج إلى النبى ﷺ — ليأخذ له منه أمانا ، فسمع رسول الله
عليه السلام يقول :

— إن معاوية فى المدينة وقد أصبح بها فاطلبوه .
فقال بعضهم :

— ما كان ليعدو منزل عثمان فاطلبوه به .
فدخلوا منزل عثمان فأشارت أم كلثوم إلى الموضع الذى صيره فيه
فاستخرجوه ، فانطلقوا به إلى النبى ﷺ — فقال عثمان حين رآه :
— والذى بعثك بالحق ما جئت إلا لأطلب له الأمان ، فهبه لى .
فوهبه له وأجله ثلاثا وأقسم لئن وجده بعدها يمشى فى أرض المدينة
وما حولها قتله .

وكان حُضير الكتائب ، والد أسيد بن حُضير جاء إلى بنى عمرو بن
عوف قبل قدوم رسول الله ﷺ — إلى المدينة ، فكلم سويد بن
الصامت وخوات بن جُبير وأبا لُبابة بن عبد المنذر وسهل بن حُنيف
فقال :

— هل لكم أن تزوروني فأسقيكم شرابا وأنخر لكم وتقيمون عندي أياما ؟

— نعم نحن نأتيك يوم كذا .

فلما كان ذلك اليوم جاءوا فنحروهم جزورا وسقاهم خمرا وأقاموا عنده ثلاثة أيام ، وكان سويد بن الصامت يومئذ شيخا كبيرا فلما مضت الأيام الثلاثة قالوا :

— ما نرانا إلا راجعين إلى أهلنا .

فقال حُضير :

— ما أحببتم ، إن أحببتم فأقيموا وإن أحببتم فانصرفوا .

فخرج الفتيان بسويد بن الصامت يحملانه على جمل من السكر ، فمروا لاصقين بالحرة حتى كانوا قريبا من بنى عينة فجلس سويد يبول وهو سكران ، فبصر به إنسان من الخزرج فخرج حتى أتى المجذّر بن زياد فقال :

— هل لك في الغنيمة الباردة ؟

— ما هي ؟

— سويد بن الصامت أعزل لا سلاح معه ، ثمل .

فخرج المجذّر بن زياد بالسيف مصلتا ، فلما رآه الفتيان وهما أعزلان لا سلاح معهما وليا والعداوة بين الأوس والخزرج شديدة ، فانصرفا مسرعين وثبت الشيخ ولا حراك . فوقف المجذّر بن زياد فقال :

— قد أمكن الله منك .

— ما تريد بي ؟

— قتلك .

— فارفع عن الطعام واخفض عن الدماغ ، فإذا رجعت إلى أمك
فقل : إني قتلت سُويد بن الصامت .

فقتله ، فكان قتله هو الذى هيج وقعة بُعث .

فلما قدم رسول الله ﷺ — المدينة أسلم الحارث بن سويد بن
الصامت وأسلم المجذر ولم ينس الحارث ثأره ، فشهدا بدرا فجعل الحارث
ابن سويد يطلب المجذر فى المعركة ليقتله بأييه فلا يقدر عليه يومئذ .
فلما كان يوم أحد وجال المسلمون تلك الجولة أتاه الحارث من خلفه
فضرب عنقه وهو يحسب أن ما فعل سيطوى فى جوف الغيب .

٨

جاء عبد الله بن عوف صبيحة قدومه — ﷺ — من أحد وأخبره أنه أقبل من أهله حتى إذا كان بمحل كذا إذا قریش قد نزلوا به ، فسمع أبو سفیان وأصحابه يقولون :

— ما صنعتم شيئا . قد بقى منهم رعوس يجمعون لكم فارجعوا نستأصل من بقى .

وصفوان بن أمية يأبى ذلك عليهم ويقول :
— يا قوم لا تفعلوا فإني أخاف أن يجمع عليكم من تخلف من الخزرج فارجعوا والدولة لكم ، فإني لا آمن إن رجعت أن تكون الدولة عليكم .
فقال — ﷺ :

— أرشدكم صفوان وما كان يرشد .
فدعا رسول الله — ﷺ — أبا بكر وعمر وذكر لهما الخبر فقالا :
— يا رسول الله اطلب العدو لا يقتحمون على الذرية .
ورأى رسول الله — ﷺ — أن يخرج خلف قریش إرهابا للعدو وليبلغهم أنه — ﷺ — خرج في طلبهم ليظنوا به قوة وأن الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم ، فلما انصرف من صلاة الصبح ندب الناس وأمر بلالا ينادى أن رسول الله — ﷺ — يأمركم بطلب عدوكم ولا يخرج إلا من حضر القتال بالأمس .
وتبأ رسول الله — ﷺ — للخروج ، فجاءه جابر بن عبد الله

فقال :

— يا رسول الله إنما تخلفت عن أحد لأن أباي خلفني على أخوات لي
تسع وقال : « يا بني إنه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل
فيهن ، ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله — ﷺ — لعل الله
يرزقني الشهادة فتخلف على أخواتك » . فاستخلفت عليهن واستأثر
عليّ بالشهادة ، فإذن لي يا رسول الله معك .
فأذن له رسول الله — ﷺ .

وكان عبد الله ورافع ابنا سهيل بن رافع قد شهدا أحدا فرجعا
جريحين ، فلما أذن رسول الله — ﷺ — بالخروج في طلب العدو قال
عبد الله لأخيه رافع :

— أتفوتنا غزوة مع رسول الله — ﷺ — ! والله ما عندنا دابة نركبها
ولا ندرى كيف نصنع ، انطلق بنا .
— لا والله ما بي مشى .
— انطلق بنا .

فخرجوا يزحفان ، وكان عبد الله أيسر جراحا من رافع ، فكان إذا
غلب رافع حمله عبد الله . واستأذن رسول الله في الخروج رجال لم يحضروا
القتال منهم عبد الله بن أبي رأس المنافقين ، قال له :

— أنا راكب معك .

فأبى ذلك عليهم رسول الله — ﷺ — ودعا بلوائه وهو معقود لم يحل
فدفعه إلى علي بن أبي طالب واستخلف على المدينة . وركب رسول الله
— ﷺ — فرسه المسمى بالسكب ، ولم يكن مع أصحابه فرس سواه
وعليه الدرع والمغفر وما يرى إلا عيناه .

وخرج الناس بهم الجراحات ولم يعرجوا على دواء جراحاتهم فممنهم من كان به تسع جراحات وهو أسيد بن حُضير وعقبة بن عامر ، ومنهم من كان به عشر جراحات وهو خراش بن الصُّمة ومنهم من كان به بضع وسبعون جراحة وهو طلحة بن عبيد الله ، ومنهم من كان به عشرون جراحة وهو عبد الرحمن بن عوف .

وخرج رسول الله ﷺ — وهو مجروح في وجهه أثر الحلقتين ومشجوج في وجهه ومكسورة رباطيته وشفته السفلى قد جرحت من باطنها ، متوهن منكبه الأيمن لضربة ابن قميصة ، وركبته مجروحتان من وقعته في الحفيرة . وتلقاه — طلحة بن عبيد الله فقال له :
— أبا طلحة ، أين سلاحك ؟

— قريب .

فذهب وأتى بسلاحه وبصدره وحده تسع جراحات من تلك الجراحات التي به ، وهو أهم بجراح رسول الله ﷺ — منه بجراحه ، ثم أقبل على رسول الله ﷺ — فقال :
— يا طلحة ، أين ترى القوم ؟

— بالسقالة .

— ذلك الذى ظننت ، أما إنهم يا طلحة لن ينالوا منا مثلها حتى يفتح الله مكة علينا .

وكان الدليل في السير ثابت بن الضحاك فسار بالمسلمين ورافع بن سهيل لا يقوى على السير فيحمله أخوه عبد الله متأخرا عن الركب . وعسكر المسلمون بجمرات الأسد على بعد عشرة أميال من المدينة . وجاء الليل وأوقد المسلمون خمسمائة نار حتى ترى من بعيد ، وذهب

صوت معسكرهم ونيرانهم في كل وجه إرهاباً للعدو . وظل رافع وأخوه عبد الله يجاهدان حتى انتهى إلى ما انتهى إليه المسلمون من حمراء الأسد عند العشاء وألسنة النيران تتراقص ، فجاءتهما الحراس وكان على الحرس تلك الليلة عياد بن بشر مع طائفة ، فلما أتى بهما إلى رسول الله ﷺ — قال لهما :

— ما حبسكما ؟

فأخبراه بغلبتهما ، فدعا لهما بخير وقال لهما :

— إن طالت بكما مدة كانت لكما مراكب من خيل وبغال وإبل ، وذلك ليس بخير لكم .

وأقام المسلمون بحمراء الأسد ثلاث ليال وكان عامة زادهم التمر ، وحمل سعد بن عبادة ثلاثين بعيراً حتى وافت حمراء الأسد وساق جزرا لتنحر فنحروا في يوم اثنين وفي يوم ثلاثة .

ولقى معبد الخُزاعي رسول الله ﷺ — وكانت خُزاعة مسلمهم وكافرهم تحبه — فقال :

— يا محمد ، والله لقد عز علينا ما أصابك في نفسك وما أصابك في أصحابك . ولوددنا أن الله تعالى أعلى كعبك وأن المصيبة كانت لغيرك . ثم مضى معبد حتى كان بالرُّوحاء ، فلما رأى أبو سفيان معبداً قال : — هذا معبد وعنده الخبر ، ما وراءك يا معبد ؟

— تركت محمداً وأصحابه قد خرجوا لطلبكم في جمع لم أر مثله قط يتحرقون عليكم تحرقاً ، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه بالأمس من الأوس والخزرج وتعاهدوا على أن لا يرجعوا حتى يلقوكم فيثأروا منكم

و غضبوا القومهم غضبا شديدا و ندموا على ما فعلوا فيهم من الحقن^(١) شيء
لم أر مثله قط .

— و يحك ما تقول ؟

— والله ما أرى أن نرتحل حتى أرى نواصى الخيل .

— فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم .

— فأني أنهاك عن ذلك .

— والله لقد حملني على ما رأيت أن قلت فيهم أبياتا من شعر .

— وما قلت ؟

— قلت :

كادت تُهد من الأصوات راحلتى

إذ سالت الأرض بالجُرد الأبايل^(٢)

تردى بأسد كرام لا تنابله^(٣)

عند اللقاء ولا ميل^(٤) معازيل^(٥)

فظلّت عدوا أظن الأرض مائلة

لما سموا برئيس غير مخذول

فقلت ويل ابن حرب من لقائكم

إذا تغطمط^(٦) البطحاء بالجيل

(١) الحقن : الغيظ .

(٢) الجرد : الخيل . الأبايل : الجماعات .

(٣) التنابله : غير الكرام .

(٤) الميل : الذين لا يحسنون ركوب الخيل .

(٥) المعازيل : الذين لا سلاح لهم . (٦) تغطمط : اهتزت وارتجت .

— ٩٤ —

إني نذير لأهل البَسل^(١) ضاحية
لكل ذى إربة منهم ومعقول
من جيش أحمد لا وخش قنابله^(٢)
وليس يوصف ما أنذرت بالقيـل

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه .

ومر بأبي سفيان ركب من عبد قيس فقال :

— أين تريدون ؟

— نريد المدينة .

— ولم ؟

— نريد الميرة .

— فهل أنتم مبلغون عنى محمدا رسالة أرسلكم بها إليه وأحمل لكم هذه

غدا زيبيا بعكاظ إذا وافيتموها ؟

— نعم .

— فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد جمعنا السير إليه وإلى أصحابه

لنستأصل بقيتهم .

فمر الركب برسول الله — ﷺ — وهو بحمراء الأسد ، فأخبروه

بالذى قال أبو سفيان فقال :

— حسبنا الله ونعم الوكيل .

فأنزل الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمْ

(١) البسل : الحلال والحرام ، ضد .

(٢) القنابل : الطوائف .

القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم * الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴿١﴾ .

وظفر رسول الله — ﷺ — في حمراء الأسد بأبى عزة الشاعر الذى منَّ عليه وقد أسر بيد من غير فداء إكراماً لبناته وأخذ عليه عهداً أن لا يقاتله ولا يكثر عليه جمعا ولا يظهر عليه أحداً ، فنقض العهد وخرج مع قريش لأحد وسار يستنفر الناس ويحرضهم على قتاله — ﷺ — بأشعاره ، فلما جىء به رسول الله — ﷺ — قال :

— يا محمد لا تقتلنى وامنن علىّ ودعنى لبناتى وأعطيك عهداً ألا أعود لمثل ما فعلت .

فقال — ﷺ — :

— لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تجلس فى الحجر تقول : خدعت محمداً مرتين . اضرب عنقه يا زبير . لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين . فضرب الزبير عنقه ورفع رأسه على رح ليكون أول رأس حمل فى الإسلام .

وأرسل معبد الخزاعى يخبر رسول الله — ﷺ — بانصراف أبى سفيان ومن معه خائفين ، فانصرف إلى المدينة فإذا بمعاوية بن أبى العاص لم يغادرها فإنه أقام ثلاثاً يستعلم أخبار رسول الله — ﷺ — ليأتى بها قريشاً . فلما كان اليوم الرابع عاد رسول الله فخرج معاوية هارباً ، فأرسل عليه السلام فى أثره زيد بن حارثة وعمار بن ياسر فرمياه حتى

(١) آل عمران : ١٧٢ ، ١٧٣ .

قتلاه .

وجاء حبيب بن يساف إلى رسول الله ﷺ — فأخبره أنه رأى الحارث بن سويد بن الصامت يوم أحد قد أتى من خلف المجذر بن زياد فضرب عنقه ثأراً لأبيه ، فركب رسول الله ﷺ — إلى قباء في يوم حار وكان ذلك يوماً لا يركب فيه رسول الله ﷺ — إلى قباء ، وإنما كانت الأيام التي يأتي فيها رسول الله ﷺ — يوم السبت ويوم الاثنين ، فلما دخل رسول الله عليه السلام مسجد قباء صلى فيه ما شاء الله أن يصلي .

وسمعت الأنصار فجاءوا يسلمون عليه وأنكروا إتيانه تلك الساعة وفي ذلك اليوم ، فجلس عليه السلام يتحدث ويتصفح الناس حتى طلع الحارث بن سويد ، فلما رآه رسول الله ﷺ — دعا عويم بن ساعدة فقال له :

— إذا قدم الحارث بن سويد إلى باب المسجد فاضرب عنقه بمجذر بن زياد ، فإنه قتله يوم أحد .

فأخذه عويم فقال الحارث :

— دعني أكلم رسول الله .

ورسول الله ﷺ — يريد أن يركب ودعا بحماره إلى باب

المسجد ، فجعل الحارث يقول :

— قد والله قتلته يا رسول الله وما كان قتلي إياه رجوعاً عن الإسلام ولا ارتياباً فيه ولكنه حمية الشيطان وأمرٌ وكلتُ فيه إلى نفسي . وإلى أتوب إلى الله وإلى رسوله مما عملت وأخرج دينه وأصوم شهرين متتابعين وأعتق رقبة وأطعم ستين مسكيناً ، وإلى أتوب إلى الله يا رسول الله .

وجعل يُمسك بركاب رسول الله ﷺ — وبنو المجذر حضور
لا يقول لهم رسول الله ﷺ — شيئا حتى إذا استوعب كلامه قال :
— قدمه يا عويم فاضرب عنقه .

وركب رسول الله ﷺ — فقدمه عويم بن ساعدة على باب
المسجد فضرب عنقه .

وأُنزل الله في يوم أحد من القرآن ستين آية من آل عمران . فيها صفة
ما كان في يومهم ذلك ومعابرة من عاتب منهم ، يقول الله تبارك وتعالى
لنبيه ﷺ :

﴿ وإذا غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم
* إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون *
ولقد نصركم الله بيدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون * إذ تقول
للمؤمنين ألن يكفئكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين * بلى
إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من
الملائكة مسومين * وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به
وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم * ليقطع طرفا من الذين كفروا
أو يكتبهم فينقلبوا خائبين * ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم
أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴾ (١) .

﴿ وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون * وسارعوا إلى مغفرة من
ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون
في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب
المحسنين * والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا

(١) آل عمران : ١٢١ — ١٢٨ .

لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين * قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين * هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين * ولا تنهوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين * إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين * أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين * ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون * وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين * وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها وسنجزى الشاكرين * وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضَعُفُوا وما استكانوا والله يحب الصابرين * وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ﴿١﴾ .

﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين * بل الله مولاكم وهو خير الناصرين * سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وماؤهم النار وبئس مثوى الظالمين * ولقد صدقكم الله وعده إذ تحُسُونَهُمْ يَإِذْهُ حَتَّى إِذَا

فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين * إذ تُصعدون ولا تلون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون * ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور ﴿١﴾ .

﴿٢﴾ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير ﴿٢﴾ .

(١) آل عمران : ١٤٩ — ١٥٤ .

(٢) آل عمران : ١٥٦ .

استيقظت أم الفضل امرأة العباس من نومها وهي تحس انقباضا فقد رأت رؤيا أفزعها ، وفكرت في أن تقص رؤياها على رسول الله ﷺ — ولكن كيف تقص عليه أنها رأت عضوا من أعضائه يقطع ويلقى به في بيتها !

إن ما رآته يزعجها فعزمت على ألا تقص خبره على النبي ، وراحت تغدو وتروح وما تزال الرؤيا المفرعة ماثلة في ذهنها تقلقها وتحيرها . حاولت أن تنساها ولكنها كانت تحتل كل تفكيرها ، فلما لم تنطق صبرا انطلقت إلى النبي ﷺ — وقالت له :

— يا رسول الله ، رأيت عضوا من أعضائك في بيتي . وأحست بعض الراحة بعد أن أفضت بما كان يقلقها كتمانها ، ونظرت إلى النبي عليه السلام لترى أثر الحديث في وجهه فإذا به يتطلق^(١) ويقول :

— خيرا رأيته ، تلد فاطمة غلاما فترضعيه . كانت أم الفضل من أول النساء اللاتي آمنن بما أرسل به عليه السلام ، وقد هاجرت مع المهاجرات وكان في رفقتها ابنها عبد الله بن عباس ، فكان كثيرا ما يردفه رسول الله ﷺ — على راحلته ويحدثه أحاديث تنبض بالحكمة ، فيحس ابن عباس كأن كنوزا من العلم تسكب في قلبه .

(١) يتطلق : يتהלل بالبشر .

ودخل عليّ على فاطمة والبشر يترقق في محياه تملأ نفسه تلك الغبطة التي تملأ كل زوج يرقب قدوم وليده الأول ، وأقبل على الزهراء يلاطفها فنزلت السعادة بالدار الصغيرة التي ما كان بها إلا إهاب كبش كانت فراش الإلفين وقطيفة إذا جعلها بالطول انكشفت ظهورهما وإذا جعلها بالعرض انكشفت رعوسهما .

وحضرت ولادة فاطمة فهرع على إلى بيت النبي ، فقال عليه السلام
لأم رومان وأم سلمة :
— احضرا فاطمة .

واستمر على في قلقه حتى إذا ما وقع ولده واستهل صارخا انتشت روحه وسكنت الطمأنينة قلبه ، فقد كان يخشى على زوجه التي شجبت وانتابها هزال في شهورها الأخيرة .
وجاء النبي — ﷺ — فأخرج له المولود في خرقة صفراء ، فرمى بها وقال :

— ألم أنحكم أن تلفوا الولد في خرقة صفراء ؟
وأمر أن يلف في خرقة بيضاء فلفوه وجاءوا به ، فقطع سرته وقال له :
— اللهم إني أعيزه بك وولده من الشيطان الرجيم .
وفي اليوم السابع جاء رسول الله وقال :
— أروني ابني ، ما سميتموه ؟
فقال علي :
— حربا .
فقال رسول الله — ﷺ — :
— بل هو حسن .

ونحر كبشا وأعطى القابلة فخذاً وديناراً وقال :
 — يا فاطمة احلقى رأسه وتصدقى بزنة شعره فضة .
 وأثلج صدر على فقد وهبه الله هبة عظيمة ، وهبه ذرية من نسل رسول
 الله ﷺ — . وانشرح صدر فاطمة بوليدها فراحت ترقصه وهى
 فرحانة تقول له :
 أشبهه أباك يا حسن واخلع عن الحق السرسن^(١)
 واعبد إلها ذا منن ولا توالى ذا الإحســن
 وكان يوم أحد فخرجت الزهراء فى نساء وهرعت إلى أبيها عليه السلام
 وإلى زوجها ، وقد رأت الذى بوجه أبيها فاعتنقته ، وأراد على أن يذهب
 ليأتى بماء ليغسل الدم عن وجه رسول الله فقال لفاطمة :
 أفاطم هاء^(٢) السيف غير ذميم فلست برعديـد ولا بلـيم
 لعمرى لقد جاهدت فى نصر أحمد وطاعة رب بالعباد رحيم
 فنظر إليه رسول الله ﷺ — مختضباً بالدم فقال :
 — لئن كنت أحسنت القتال اليوم فلقد أحسن عاصم بن ثابت
 والحارث بن الصمة وسهل بن حنيف ، وسيف أبى دُجانة غير مذموم .
 وما انقضى شهر حتى حملت فاطمة ثانية فكانت أم الفضل ترضع
 الحسن ، وفى ذات يوم جاءت به إلى النبى فوضعت فى حجره فبال ،
 فضربت كتفه فنظر إليها النبى عليه السلام فقال :
 — أوجعت ابنى رحمك الله .
 وغسلت السيوف بعد معركة أحد واستمر التراشق بالأشعار ورتاء
 القتلى ، قال هبيرة بن أبى وهب الخزومى :

(١) الرس : الحبل يتخذ زماماً (٢) هاء السيف : هذا السيف جئت به .

ما بال هم عميد بات يطرقنى
باتت تعابنى هند وتعذلنى
مهلا فلا تعذلبنى إن من خلقي
مساعف لبنى كعب بما كلفوا
وقد حملت سلاحى فوق مشترف
كأنه إذ جرى غير بفدفة (١)
من آل أعوج يرتاح الندى له
أعدته ورقاق الحد منتحلا
هذا وبيضاء مثل النهى محكمة
سقنا كنانة من أطراف ذى يمن
قالت كنانة : أنى تدهبون بنا ؟
نحن الفوارس يوم الجر من أحد
هابوا ضرابا وطعننا صادقا خلما (٢)
ثمت رحنا كأننا عارض برد
كأن هامهم عند الوغى فلق (٣)
أو حنظل ذعذعته الريح فى غضين
قد نبذل المال سحلا حساب له
ولما كان الشعر فى جزيرة العرب ينتشر انتشار الريح فقد أجابه حسان
ابن ثابت شاعر الرسول فقال :
سقم كنانة جهلا من سفاهتكم

بالود من هند إذ تعدو عواديا
والحرب قد شغلت عنى مواليا
ما قد علمت وما إن لست أخفيا
حمل عبء وأثقال أعانيا
ساط سبوح إذا تجرى يساريا
مكدم لاحق بالعون يحميا
كجذع شعراء مستعل مراقيا
ومارنا لخطوب قد ألقيا
نيطت على فما تبدو مساويا
عرض البلاد على ما كان يزجيا (٤)
قلنا : النخيل ، فأموها ومن فيها
هابت معذ فقلنا نحن نأتيا
مما يرون وقد ضمت قواصيا
وقام هام بنى النجار يكميا
من قيض ريد نفته عن أداحيا
بال تعاورة منها سوافيا
ونطعن الخيل شزرا فى ماقيا

(١) الفدفة : الصحراء .

(٢) يزجيا : يقدمها .

(٣) الضرب الخدم : للقوى العنيف (٤) الفلق : المشقوقة .

أوردتموها حياض الموت ضاحية
جمعتموها أحابيشا بلا حسب
ألا اعتبرتم بخيل الله إذ قتلث
كم من أسير فككناه بلا ثمن
فالنار موعدها والقتل لاقية
أئمة الكفر غرتكم طواغية
أهل القلب ومن ألقينه فيها
وجز ناصية كنا موالية
وأجاب كعب بن مالك هبيرة بن أوى وهب أيضا ، قال :

مجالدنا عن ديننا كل فحمة
وكل صموت في الصوان كأنها
ولكن بيدر سائلوا من لقيتم
وإنا بأرض الخوف لو كان أهلها
إذا جاء منا راكب كان قوله
فهمها يهم الناس مما يكيدنا
وقال عبد الله بن الزُّبَيْرِ يَجِيبُ حسان :

يا غراب البين أسمعته فقل
إن للخير وللشر مدى
والعطيات خساس بينهم
كل عيش ونعيم زائل
أبلغا حسان عنى آية
كم ترى بالجر من جمجمة
وسراييل حسان سریت
إنما تنطق شيئا قد فعل
وكلا ذلك وجه وقَبْل
وسواء قبر مثر ومُقْبَل
وبنات الدهر يلعبن بكُل
فقريض الشعر يشفى ذا الغلل
وأكف قد أترت ورجل
عن كَآء (٣) أهلكوا في المنزل

(١) السيف المدرب : المسموم

(٢) القوانس : بيضات الحديد يضعها المحاربون على رؤوسهم .

(٣) الكماء : الأبطال المسلحون .

كم قتلنا من كريم سيد
صادق النجدة قزم^(١) بارع
ليت أشياخى يسدر شهدوا
حين حكّت بقباء بركها^(٢)
ثم خفوا عند ذاكم رقصا
فقتلنا الضّعف من أشرافهم
لا ألوم النفس إلا أننا
بسيوف الهند تعلو هامهم
فأجابه حسان بن ثابت قال :

ذهبت يا بن الزبعرى وقعة
ولقد نلتم ونلنا منكم
نضع الأسياف في أكثافكم
تخرج الأضياع^(٣) من أستاذكم
إذ تولون على أعقابكم
إذ شددنا شدة صادق
بخناطيل^(٤) كأشدا الملا
ضاق عنا الشعب إذ نجزعه

كان منا الفضل فيها لو عدل
وكذاك الحرب أحيانا دول
حيث نهوى عللا بعد نهل
كسلاح الثيب يأكلن العصل
هربا في الشعب أشباه الرسل^(٥)
فأجأناكم إلى سفح الجبل
من يلاقوه من الناس يهل
وملأنا الفرط منه والرّجل

(١) القرم : السيد الكريم

(٢) البرك : الإبل ، وباطن صدرها . (٣) الحفان : الكثير الحفن .

(٤) الأضياع : من العسل أو اللبن . (٥) الرسل : الأغنام .

(٦) الخناطيل : الإبل المتفرقة .

برجال لستم أمثالهم
وعلوننا يوم بدر بالتقى
وقتلنا كل رأس منهم
وتركننا في قريش عورة
ورسول الله حقاً شاهداً
في قريش من جموع جمعوا
نحن لا أمثالكم ولدت استها

أيدوا جبريل نصراً فنزل
طاعة الله وتصديق الرسل
وقتلنا كل جحاح (١) رفل (٢)
يوم بدر وأحاديث المثل
يوم بدر والتنايل (٣) الهمل (٤)
مثل ما يجمع في الخطب الهمل (٤)
تحضر الناس إذا البأس نزل

وقال كعب بن مالك يكي حمزة بن عبد المطلب وقتل أحد :

نشجت وهل لك من منشج
تذكر قوم أتاني لهم
فقلبك من ذكرهم خافق
وقتلهم في جنان النعيم
بما صبروا تحت ظل اللواء
غداة أجابت بأسياها
وأشيع أحمد إذا شايعوا
فما برحوا يضربون الكماة
كذلك حتى دعاهم ملك
فكلهم مات حر البلاء

وكنت متى تذكر تلجج
أحاديث في الزمن الأعوج
من الشوق والحزن المنضج
كرام المداخل والخروج
لواء الرسول بذى الأضوج
جميعاً بنو الأوس والخزرج
على الحق ذى النور والمنهج
ومضون في القسطل (٥) المريج (٦)
إلى جنة دوحه الموج
على ملّة الله لم يخرج

(١) الجحاح : السيد .

(٣) التنايل : الجماعات .

(٥) القسطل : الغبار .

(٢) رفل : مختال .

(٤) الهمل : ما يهمل .

(٦) المريج : المثار .

كحمرزة لما وفي صادقاً
فلاقاه عبد بنى نوفل
فأوجره حربة كالشهاب
ونعمان أولى بميثاقه
عن الحق حتى غدت روحه
أولئك لا من ثوى منكم
فأجابه ضرار بن الخطاب الفهري فقال :

أبجزع كعب لأشياءه
عجيج المذكى رأى إلفه
فراح الروايا وغادرته
فقولا لكعب يثنى البكا
لمصرع إخوانه في مكر
فيا ليت عمرا وأشياعه
فيشفوا النفوس بأوتارها
وقتل من الأوس في معرك
ومقتل حمزة تحت اللواء
وحيث انثنى مصعب ثاويها
ويكى من الزمن الأعوج
تروح في صادر مُحَنَج
يجمع (٥) قسرا ولم يُحَدَج (٦)
وللنبي من لحمه ينضج
من الخليل ذى قسطل مُرْمَج (٧)
وعتبه في جمعنا السورج (٨)
بقتلى أصيبت من الخزرج
أصيبوا جميعا بذى الأضوح
بمطرده ، مارن (٩) ، مخرج (١٠)
بضربة ذى هبة سَلَجَج

- (١) سلجج : لامع .
(٢) الدعجة : سواد العين .
(٣) لم يحنج : لم يهزم .
(٤) الزبرج : الزينة .
(٥) يجمع : يرفع صوته .
(٦) يحجج : يمدق بعينه .
(٧) يقصد أن الخليل قد أثارت الغبار (٨) السورج : القوى .
(٩) مارن : أنف .
(١٠) مخرج : مطعون .

وراح عبد الله بن الزبعرى يبكى القتل فأجابه حسان بن ثابت ،
واستمرت سهام الشعر تتراشق بين المدينة ومكة ، المسلمون يفخرون
بيوم بدر والمشركون يتهبون بانتصارهم يوم أحد ، وقد قال عمرو بن
العاص في يوم أحد :

خرجنا من الفيفا عليهم كأننا من الصبح من رضوى الحبيك المنطق
تمنت بنو النجار جهلا لقاءنا لدى جنب سلع والأمانى تصدق
فما راعهم بالشرا إلا فجاءة كراديس^(١) خيل في الأزقة تمرق^(٢)
أرادوا لكيما يستيحيوا قبائنا ودون القباب اليوم ضرب محرق
وكانت قبابا أومنت قبل ما ترى إذا رامها قوم أبيضوا وأحنقوا
كأن رعوس الخزر جين غدوة وأيمانهم بالمُشرِفة بروق^(٣)

فأجابه كعب بن مالك ورد عليه حسان بن ثابت ، ثم راح حسان يعير
قريشا بما أصاب أصحاب اللواء . واشتد أوار معركة الشعر وكثر النواح
على القتلى فقالت صفية بنت عبد المطلب تبكى أخاها حمزة :

أسائلة أصحاب أحد مخافة بنات أبى من أعجم وخبير
فقال الخبير إن حمزة قد ثوى وزير رسول الله خير وزير
دعاه إلى الحق ذو العرش دعوة إلى جنة يحيا بها وسرور
فذلك ما كنا نرجى ونرتجى لحمزة يوم الحشر خير مصير
فوالله ما أنساك ما هبت الصبا بكاء وحزنا محضرى ومسرى
على أسد الله الذى كان مدرها^(٤) يذود عن الإسلام كل كفور

(١) كراديس : جماعات .
(٢) تمرق : تسرع .
(٣) بروق : لامعة .
(٤) مدره : شجاع مهاجم .

— ١٠٩ —

فيا ليت شلوى^(١) عند ذاك وأعظمى لدى أضبع تعادنى ونسور
أقول وقد أعلى النعى عشيرتى جزى الله خيرا من أخ ونصير
وقالت هند بنت عتبة حين انصرف المشركون من أحد :

رجعت وفى نفسى بلا بل جمة

وقد فاتنى بعض الذى كان مطلبى

من أصحاب بدر فى قريش وغيرهم

بنى هاشم منهم ومن أهل يثرب

ولكنى قد نلت شيئا ولم يكن

كما كنت أرجو فى مسيرى ومركبى

وكان الركبان يسرون بالشعر بين مكة والمدينة ، وكان المشركون
فرحين بنصرهم ولكن المستقبل لم يكن واضحا أمامهم ، أما المسلمون
فكانوا على ثقة بالمستقبل فقد قال — ﷺ : لن ينالوا منا مثلها حتى
يفتح الله مكة علينا ، فانتشت القلوب بالأمل ، وبات المسلمون يرقبون
الغد فى رجاء ، ويتظرون فى لهفة ذلك اليوم المجيد يوم أن يفتح الله مكة
عليهم .

(١) الشلوى : العضو والجسد .

قدم على رسول الله ﷺ — رهط من عضل والقارة ، من الهون
ابن خزيمة بن مدركة فقالوا :

— يا رسول الله إن فينا إسلما ، فابعث معنا نفرا من أصحابك
يفقهوننا في الدين ويقرئونا القرآن ويعلموننا شرائع الإسلام .

فبعث رسول الله ﷺ — معهم عشرة ، ستة من المهاجرين
وأربعة من الأنصار ، وأمر رسول الله ﷺ — على القوم عاصم بن
ثابت .

وانطلق المسلمون مع من جاءوا إلى رسول الله ﷺ — يلتمسون
أن يبعث معهم نفرا من أصحابه يفقهونهم في الدين ، حتى إذا ما بلغوا
الرجيع وهى ماء لهديل بناحية الحجاز غدروا بالمسلمين ، فلم يرع
المسلمون وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف . فهب المسلمون
إلى أسيافهم ليقاتلوهم فقالوا لهم :

— إنا والله لا نريد قتلكم ، ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل
مكة ولكم العهد والميثاق ألا نقتلكم .

وئارت الدماء في عروق عاصم بن ثابت وملأ الحنق قلب مَرثد بن أبى
مَرثد ، وغضب خالد بن البكير لذلك الغدر الآثم فقالوا :

— والله لا نقبل من مشرك عهدا ولا عقدا أبدا .

وراح الرجال الثلاثة يقاتلون القوم في بسالة ، ولكن ماذا تجدى

الشجاعة والقوم كثيرون وأسيافهم تحيط بهم من كل جانب ؟ وجالوا
جولة انتهت بقتل عاصم بن ثابت وصاحبيه .

وكانت سلافة بنت سعد بن شهيد قد نذرت حين أصاب عاصم ابنها
يوم أحد : لئن قدرت على رأس عاصم لتشرين في قحفه الخمر ، فرأى
القوم أن يحزوا رأسه وأن يبعثوا به إلى سلافة لتبر قسمها وأن يقبضوا
الثمن ، فلما تقدموا منه إذا بالزنابير والنحل قد حالت بينه وبينهم فقالوا :
— دعوه حتى يمسى فتذهب عنه فنأخذه .

وأمرت السماء وحمل السيل عاصما فذهب به ولم تحمل رأسه إلى
سلافة ولم تبر قسمها ، فقد حفظ الله عبده المؤمن الذى دافع عن رسوله
يوم أحد دفاع المستميت .

ولان زيد بن الدثنة وخبيب بن عدى وعبد الله بن طارق ورقوا ورغبوا
فى الحياة ، فأعطوا بأيديهم فأسروهم ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها ،
حتى إذا كانوا بالظهران انتزع عبد الله بن طارق يده من الحبل الذى ربط
به ثم أخذ سيفه واستأخر عن القوم ، فرموه بالحجارة حتى قتلوه .

وكانت الرحلة إلى مكة مليئة بالمتاعب ، فلم يدخل القوم إلى مكة
إلا بأسيرين هما خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة ، فابتاع خبيبا حجير بن
أبى إهاد التميمى حليف بنى نوفل لعقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل ،
وكان أبو إهاب أخا الحارث بن عامر لأمه ، ليقتله بأبيه .

وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف ،
وبعث به صفوان بن أمية مع مولى له يقال له نسطاس إلى التنعيم ، وهو
مكان بين مكة وسرف على فرسخين من مكة ، وأخرجوه من الحرم
ليقتلوه وقد التف الناس حوله شامتين .

واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب ، فقال له أبو سفيان حين قدم ليقتل :

— أتشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمدا عندنا الآن مكانك نضرب عنقه وإنك في أهلك ؟

— والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وإني جالس في أهلى .

فراح أبو سفيان يلتفت إلى من عنده في دهش ثم قال :
— ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا .
ثم قتله نسطاس وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ،
ليكتب الكفرة وليعكر عليهم سرور لحظة الانتقام .

وأما حبيب بن عدى فقد حبسه حُجير بن أبى وهب عند مولاته ماوية في بيتها لأن ذلك كان في الأشهر الحرم وظل عندها حتى حان وقت قتله لما انقضت الأشهر الحرم فقال لها :

— ابعثنى إلىّ بحديدة أتطهر بها للقتل .

فأعطت غلاما من الحى الموسى فقالت :

— ادخل بها على هذا الرجل البيت .

فما هو إلا أن ولى الغلام بها إليه حتى قالت ماوية لنفسها في فزع :

— ماذا صنعت ؟ أصاب والله الرجل ثأره ، بقتل هذا الغلام فيكون

رجل برجل .

فلما ناوله الموسى أخذها بيده ثم قال :

— لعمرك ما خافت أمك غدري حين بعثتك بهذه الحديدة إلىّ .

ثم خلى سبيله .

— ١١٣ —

ثم خرجوا بخبيب إلى التنعيم ليصلبوه فإذا بأبى سفيان بن حرب وابنه معاوية وسادات قريش قد حضروا لينظروا قتله ، فقال لهم :
— إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا .
— دونك فاركع .

فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما ، ثم أقبل على القوم فقال :
— أما والله لولا أن تظنوا بأبى إنما طولت جزعا من القتل لاستكثرت من الصلاة .

فكان خبيب بن عدى أول من سن هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين ، ثم رفعوه على خشبة فلما أوثقوه قال :

— اللهم إنا قد بلغنا رسالة رسولك ، فبلغه الغداة ما يصنع بنا .
ونظر أبو سفيان وأكابر قريش إلى خبيب المصلوب في شماته فقال :
— اللهم أحصهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا تغادر مهم أحدا .
فألقي أبو سفيان ابنه معاوية إلى الأرض فرقا من دعوة خبيب ، لقد كانوا يعتقدون أن الرجل إذا دعى عليه فاضطجع لجنبه زالت عنه !
وكان عقبة بن الحارث صغيرا فأخذ أبو ميسرة أخو بني عبد الدار الحربة فجعلها في يد عقبة ثم أخذ بيده وبالحربة ، ثم طعن بها خبيبا حتى قتله .

وقال رجال من المنافقين لما أصيبت البعثة التي كان فيها عاصم ومرثد بالرجيع :

— يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا ، لا هم قعدوا في أهليهم ولا هم أدوا رسالة صاحبهم .

فأنزل الله تعالى في ذلك من قول المنافقين وما أصاب أولئك النفر من

(غزوة أحد)

الخير بالذى أصابهم ، فقال لله تعالى : ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ﴾ وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد * ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد ﴿ (١) .

فرح أبو سفيان لما نزل من البلاء على من وجههم النبي — ﷺ — إلى عضل والقارة وأظهر الشهامة تقتلهم وغدا يسخر من الإسلام والمسلمين ، فبعث عليه السلام عمرو بن أمية الصمري إلى مكة مع رجل من الأنصار وأمرهما بقتل أبي سفيان ، ثم تحمعت حوله أحقاد الكافرين على المسلمين بعد مقتل أبي جهل في بدر .

وخرج عمرو بن أمية معه بعير وليس مع صاحبه بعير وبرجله علة ، فكان عمرو يحمله على بعيره حتى جاءا بطن يأجج فعقلا بعيرهما في فناء شعب ثم انطلقا فقال عمرو لصاحبه :

— انطلق بنا إلى دار أبي سفيان فإني محاول قتله ، فانظر فإن كانت محاولة أو خشيت شيئا فالحق ببعيرك فاركبه والحق بالمدينة فأت رسول الله — ﷺ — فأخبره الخبر ، وخل عني فإني رجل عالم بالبلد جرىء عليه نجيب الساق . فلما دخل مكة ومع عمرو خنجر قد أعدده إن عاقه إنسان قتله به ، قال له صاحبه :

— هل لك أن نبدأ فنطوف بالبيت أسبوعا ونصلي ركعتين ؟
— أنا أعلم بأهل مكة منك ، إنهم إذا أظلموا رشوا أفئيتهم ثم جلسوا بها ، وأنا أعرف بها من الفرس الأبلق .

فلم يزل به حتى أتيا البيت فطافا به سبعا وصليا ركعتين ثم خرجا ،
فمرا بمجلس من مجالسهم فعرف عمرا رجل منهم فصرخ بأعلى صوته :
— هذا عمرو بن أمية .

فخف إليهما أهل مكة وقالوا :
— تالله ما جاء بعمرو خير ، والذي يحلف به ما جاءها قط إلا لشر .
وكان عمرو رجلا فاتكا متشيطنا في الجاهلية فقاموا في طلبه وطلب
صاحبه ، فقال له عمرو :
— النجاة هذا والله الذي كنت أحذر ، أما الرجل فليس إليه سبيل فأنج
بنفسك .

فخرجوا يشتدان حتى صعدا في الجبل ، فدخلوا في غار فباتا فيه ليلتهما
وأعجزاهم فرجعوا وقد استترا دونهم بأحجار حين دخلوا الغار .
وقال عمرو لصاحبه :
— أمهلني حتى يسكن الطلب عنا فإنهم والله ليطلبنا ليلتهم هذه
ويومهم هذا حتى يمسوا .

وبينا كانا في الغار أقبل عثمان بن مالك بن عبيد الله التيمي يختل بفرس له
فلم يزل يدنو ويختل بفرسه حتى قام عليهما بباب الغار ، فقال عمرو
لصاحبه :

— هذا والله ابن مالك ، والله لئن رأنا ليعلمن بنا أهل مكة .
فخرج إليه عمرو فوجأه بالخنجر تحت الثدي فصاح ابن مالك صيحة
أسمعت أهل مكة فأقبلوا إليه ، ورجع عمرو إلى مكانه فدخل فيه وقال
لصاحبه :
— مكانك .

— ١١٦ —

واتبع أهل مكة الصوت يشتدون فوجدوه وبه رمق فقالوا :

— ويلك ! من ضربك ؟

— عمرو بن أمية .

وما أدركوا ما يستطيع أن يخبرهم بمكانهما فقالوا :

— والله لقد علمنا أنه لم يأت لخير .

وشغلهم صاحبهم عن طلب عمرو بن أمية وصاحبه فاحتملوه ،

ومكثا في الغار يومين حتى سكن عنهما الطلب ، ثم خرجا إلى التنعيم فإذا

خشبة تُحبيب فقال له صاحبه :

— هل لك في تُحبيب تنزله عن خشبته ؟

— أين هو ؟

— هو ذاك حيث ترى .

ورأى عمرو تُحبيبا مرفوعا على خشبته فقال :

— نعم ، فأمهلني وتنح عني .

— وحوله حرس يحرسونه !؟

— إن خشيت فخذ الطريق إلى جملك فاركبه والحق برسول الله

ﷺ — فأخبره الخبر .

فاشتد إلى خشبته فاحتمله على ظهره ، فوالله ما مشى به إلّا نحو أربعين

ذراعا حتى رأوه فطرحه وراح يعدو فاشتدوا فرجعوا ، وانطلق صاحبه

إلى بعيره فركب ليأتى رسول الله ﷺ — يخبره أمرهما .

وأقبل عمرو يمشى حتى إذا أشرف على الغليل ، غليل ضجنان دخل

غارا فيه ومعه قوسه وسهمه . فبينما هو فيه إذ دخل عليه رجل من بني

الدليل بن بكر أعور طويل يسوق غنما له فقال :

— من الرجل ؟

— رجل من بنى بكر .

— وأنا من بنى بكر ثم أحد بنى الدليل .

ثم اضطجع معه في الغار ، وشاء سوء طالعه أن يتغنى فقال :
ولست بمسلم ما دمت حيا ولست أدين دين المسلمين
فقال عمرو في نفسه :

— سوف تعلم .

فلم يلبث الأعرابي أن نام وغط فقام إليه فقتله أسوأ قتلة قتلها أحد
أحدا . قام إليه فجعل سية قوسه في عينه الصحيحة ثم تحامل عليها حتى
أخرجها من قفاه ، ثم خرج مثل السبع وأخذ المحجة كأنه نسر وكان
النجاة .

وبلغ النقيع فإذا رجلا من أهل مكة بعثهما قريش يتحسسان من أمر
رسول الله ﷺ — فعرفهما ، فقال :
— استأسرا .

فقالا في سخرية :

— أنستأسر لك ؟

فرمى أحدهما بسهم فقتله ثم قال للآخر :
— استأسر .

فاستأسر فأوثقه ، فلما قدم المدينة مر بمشيخة من الأنصار فقالوا :
— هذا والله عمرو بن أمية .

فسمع الصبيان قولهم فاشتدوا إلى رسول الله ﷺ — يخبرونه .

وقد شد عمرو وإيهام أسيره بوتر قوسه فنظر النبي ﷺ — إليه فضحك

حتى بدت نواجهه .

وأقام رسول الله ﷺ — بقية شوال وذا القعدة وذا الحجة والمحرم فانقضى على يوم أحد أربعة أشهر ، وإذا بأبي براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسننة يقدم على رسول الله ﷺ — بالمدينة ويهدى له هدية ، فأبى رسول الله ﷺ — أن يقبلها وقال :
— يا أبا براء ، لا أقبل هدية مشرك ، فأسلم إن أردت أن أقبل هديتك .

فعرض عليه رسول الله ﷺ — عليه السلام — الإسلام ودعاه إليه ، فلم يسلم ولم يبعد من الإسلام وقال :
— يا محمد لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك ، رجوت أن يستجيبوا لك .
— إلى أخشى عليهم أهل نجد .

— أنا لهم جار ، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك .
فبعث رسول الله ﷺ — المنذر بن عمرو أخا بني ساعدة في سبعين رجلا من أصحابه من خيار المسلمين ، منهم الحارث بن الصمة وحرام بن ملحان أخو بني عدى بن النجار وعروة بن أسماء بن الصلت السلمي ونافع بن بديل بن ورقاء الخزاعي وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق فساروا حتى نزلوا بئر معونة وهي بين أرض بني عامرة وحرمة بني سليم ، كلا البلدين منها قريب .

فلما نزلوا بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ — إلى عامر بن الطفيل ، فلما أتاه قدم إليه الكتاب فلما قرأه أخذته العزة بالإثم فثار ثورة عامرة ثم قام إلى الرجل فقتله .

ثم استصرخ عليهم بنى عامر فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه وقالوا :
 — لن نخفر (ننقض عهد) أبا براء وقد عقد لهم عقدا وجوارا .
 فبعث إلى قبائل من بنى سليم من عصابة ورعل وذكوان وطلب منهم أن
 يخرجوا القتال هؤلاء المسلمين الذين وفدوا ليفسدوا فى الأرض ، فأجابوه
 وخرج الرجال فى عدة القتال وقد عزموا على القضاء على أتباع محمد .
 كان المسلمون فى حالهم وإذا بالرجال قد أحاطوا بهم وشرعوا السيوف
 وصاحوا صيحات الحرب ، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم وراحوا يقاتلون
 فى إيمان وقد تراقص المنون على شفرات أسلحتهم .

خاضوا فى صفوف أعدائهم وهووا بكل بتر على الرقاب ، ولكن
 الرجال على خيولهم أحاطوا بهم وجعلوا يضربون بالسيوف ويصربون
 إلى صدورهم السهام ، فسقط واحد إثر واحد ؟

وكان جبار بن سلمى بن مالك بن جعفر إلى جوار عامر بن الطفيل
 يصول ويجول فى القوم ، فطعن رجلا من المسلمين بالرمح بين كتفيه فنظر
 إلى سنان الرمح حين خرج من صدره فسمعه يقول :

— فزتُ والله .

فقال فى نفسه :

— ما فاز . ألسنت قد قتلت الرجل ؟

واستمر المسلمون فى القتال حتى قتلوا من عند آخرهم ، إلا كعب بن
 زيد أخا بنى دينار بن النجار ، فإنهم تركوه وبه رمق .

وكان عمرو بن أمية الضميرى ورجل من الأنصار يرفعون إبل المسلمين
 فرأيا الطير تحوم على العسكر فقالا :

— والله إن لهذه الطير لشأنا .

— ١٢٠ —

فأقبلا لينظرا فإذا القوم في دمائهم وإذا الخيل التى أصابتهم واقفة ،
فقال الأنصارى لعمر بن أمية :

— ما ترى ؟

— أرى أن تلحق برسول الله ﷺ — فتخبره الخبر .

فقال الأنصارى :

— ما كنت لأرغب بنفسى عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو ،
وما كنت لتخبرنى عنه الرجال .

وراح يعدو إلى حيث كانت الخيل وغدا يضرب بسيفه فى الرجال
ويقاتل القوم حتى قتل .

ولم يستطع عمرو بن أمية أن يفعل شيئا ، وقف فى مكانه حتى أخذ
أسيرا فقال له عامر بن الطفيل :

— ممن أنت ؟

— من مضر .

— وما اسمك ؟

— عمرو بن أمية .

فأطلقه عامر بن الطفيل وجز ناصيته وأعتقه عن رقبة زعم أنها كانت
على أمه ، فخرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقرقرة من صدر قناة أقبل
رجلان من بنى عامر حتى نزلا معه فى ظل هو فيه ، فسألهما حين نزلا :

— ممن أنتم ؟

— من بنى عامر .

بنو عامر ١٩ الذين قتلوا الأحبة وغدروا بهم ! إنه لو قتلها أصاب
ثأره ، فأمهلها حتى إذا ناما عدا عليهما فقتلها ثم انطلق إلى المدينة .

فلما قدم على رسول الله ﷺ — أخبره الخبر وذكر له أنه قتل اثنين من بنى عامر فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ .
 كان مع العامرين عقد من رسول الله ﷺ — وحوار لم يعلم به عمرو بن أمية ، فقال — عليهما :
 — لقد قتلت قتيلين ، لأدينهما !
 وعزم رسول الله ﷺ — أن يدفع دية القتيلين ، ثم قال عليه السلام :

— هذا عمل أبى براء ، قد كنت لهذا كارها متخوفا .
 فبلغ ذلك أبا براء فشق عليه إخفار عامر إياه وما أصاب أصحاب رسول الله ﷺ — بسببه وجواره ، وقال حسان يخرض بنى براء على عامر بن الطفيل :
 بنى أم البنين ألم يرعكم وأنتم من ذوائب أهل نجد
 تهكم عامر بأبى براء ليخفره وما خطأ كعمد
 ألا أبلغ ربيعة ذا المساعى فما أحدث في الحدثن بعدى
 أبوك أبو الحروب أبو براء وخالك ماحد حكم بن سعد
 وخرج ذلك الغدر ربيعة بن عامر عم عامر بن الطفيل ، فحمل ربيعة على عامر فطعنه بالرمح فوق في فخذة فلم يقتله ، ووقع عامر عن فرسه فقال :

— هذا عمل أبى براء . إن مت فدمى لعمى فلا يتبعن به ، وإن أعش فسأرى رأيي فيما أوتى إلي .

وكان جبار بن سلمى بن مالك بن جعفر يشرد بذهنه فيسمع في عين ذاته صوت المسلم وهو يقول لما طعنه بالرمح : « فزت والله » فيقول في

— ١٢٢ —

نفسه : « ما فاز ! أليست قد قتلت الرجل ؟ » .
حيرة ذلك القول فراح يسأل عن ذلك الفوز الذي ناله الرجل وقد
قتل ، فقبل له الشهادة . وظل يسأل عن الإسلام وما يدعو إليه وإذا بأنوار
اليقين تشرق في قلبه ، فانطلق إلى المدينة وقابل رسول الله ﷺ —
وألقى إليه سمعه ، وما قام من عنده إلا بعد أن شهد أن لا إله إلا الله وأن
محمدًا رسول الله .

استشهد في أحد رجال أعزاء ، فلم يترك المسلمون أزواجهم وذريتهم للضياع بل راح كل قادر يضم إليه زوجة شهيد وأبناءه ليمسح عن قلوبهم ألم اليم والفرق .

إن حمنة بنت جحش ولدت على زوجها مصعب بن عمير وقالت : واحزنه ! فقال لها رسول الله — ﷺ — : لم قلت ذلك ؟ قالت : تذكرت يتم بنيه فراغني . فدعا لها رسول الله — ﷺ — ولولدها أن يحسن الله تعالى عليهم الخلف ، فتزوجت طلحة بن عبيد الله فكان أوصل الناس لولدها .

واستشهد في أحد زوج (١) زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله ابن عمرو بن عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة ، فتزوجها النبي — ﷺ — وبني لها دارا إلى جوار دارى عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر ، وقد زوجه إياها عمها قبيصة بن عمرو الهلالى وأصدقها الرسول عليه السلام أربعمئة درهم .

ولم تستشعر عائشة ولا حفصة نحو الوافدة الجديدة أية غيرة ، فقد كانتا تعرفان أن رسول الله — ﷺ — قد ضمها إليه عطا منه ورحمة ، وما كانت زينب بنت خزيمة راغبة في منافسة ضربتها اللتين سبقتاها إلى

(١) قيل إنها كانت عند عبد الله بن جحش وقيل إنها كانت عند الطفيل بن الحارث .

دور رسول الله ﷺ — فقد كانت تحس سعادة في رحمة المساكين ورفقتها عليهم ، فكرست كل وقتها في رعاية المساكين وإطعامهم والتصدق عليهم فسميت أم المساكين .

كانت زينب بنت خزيمة طيبة خيرة وما كان يخرج من دارها إلا الصدقات ، وكانت قريرة العين بأن أصبحت زوج رسول الله ﷺ — ، وما كانت الغيرة تنهش فؤادها فهي سعيدة راضية بأن أصبحت أم المؤمنين وأم المساكين ، وقد غمرت أهل الصفة ولا ريب الذين انقطعوا للعبادة في المسجد وحراسة رسول الله ﷺ — ومصاحبته ببرها وعطفها وخيرها .

ولم يطل مقام زينب بنت خزيمة في دور رسول الله ﷺ — ، فما كاد ينقضى عام أو بعض عام حتى علا الوجوم وجوه من كانوا في مسجد الرسول فقد خرج من دار رسول الله ﷺ — من أعلن للملأ موت زينب بنت خزيمة أم المساكين .

دخلت زينب بنت خزيمة دور رسول الله ﷺ — في صمت وخرجت منه في صمت لتقبر في البقيع إلى جوار الأبرار الذين سبقوها إلى دار السلام ولنعم دار المتقين .

ونكأ موت زينب بنت خزيمة جرح قلب رسول الله ﷺ — ، تذكر خديجة بنت خويلد الطاهرة التي كانت له وزير صدق على الدوام ، من صدقته لما كذبه الناس وواسته لما عزت المواساة وأنفقت أموالها عن رضا في سبيل دعم رسالة الله ، أول أمهات المسلمين وأجهن إليه حاضنة الإسلام .

وانقضى على معركة^٤ أحد شهران ، وبلغ رسول الله ﷺ — أن

بنى أسد يدعون إلى مهاجمته عليه السلام في داره بالمدينة ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم — إليه أبا سلمة عبد الله بن عبد أسد بن هلال ابن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، ابن عمته برة بنت عبد المطلب بن هاشم وأخاه من الرضاعة وصاحب المهجرتين : الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة ، فعقد له لواء سرية عدتها مائة وخمسون رجلاً منهم أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وأمره عليه السلام بالانطلاق إلى بني أسد . كان أبو سلمة قد أصيب بجرح بالغ في أحد وقد ضمده فالتأم وكان الثمامه من السطح ، فلم يعبأ بجرحه وخرج لينفذ أمر رسول الله عليه السلام ، وسار بسريته حتى أخذ العدو على غرة فأحاط بأعداء الله وأعداء رسول في عماية الصبح ، وراحت السيوف تضرب منهم كل بنان وتطايرت السهام لتستقر في أفئدة القوم ، واستمات المسلمون في القتال وأهلوا بلاء حسناً فقد كانوا يحسون أن هذه المعركة التي يخوضونها معركة مهمة ، فالنصر فيها يغسل هزيمة أحد ويعيد ما ضيعت أحد من هيبه المسلمين .

وارتفعت صيحات المسلمين تجلجل بين الأرض والسماء :
— الله أكبر ، الله أكبر .

وغطت جثث بني أسد الأرض ، وراح أبو سلمة يصول ويجول حتى أجهده النضال فنفر جرحه وهو لا يأبه به حتى تم للمسلمين النصر المبين . وعاد المسلمون إلى المدينة وفي ركبهم النصر ولكن الوجوه كانت باسرة ، فأبو سلمة قائد السرية مريض قد ذبل ودخل على أهله وهو ينوء ، فاستقبلته أم سلمة خافقة القلب منقبضة الصدر ، وكادت أن تند منها صرخة يأس ولكنها كتمتها حتى لا تفرع الزوج العزيز الذي شاركته

هجرة الحبشة وحبسها بنو المغيرة عندهم سنة أو قريبا منها لما هاجر إلى المدينة فلم يرفأ لها دمع حتى لحقت به هناك .

وسجى أبو سلمة في فراش الموت فجاء رسول الله — ﷺ — ليعوده فألفاه يجود بآخر الأنفاس ، فبقى إلى جواره يدعو له بخير حتى مات ، فأسبل عليه السلام بيده عينيه وكبر عليه تسع تكبيرات فقبل له :

— يا رب إن الله ، أسهوت أم نسيت ؟

— لم أسهوت ولم أس ، ولو كبرت على ألى سلمة ألفا كان أهلا لذلك .

وخلف أبو سلمة زوجته هند بنت أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وكانت عريقة الأصل فهي ابنة أمية بن المغيرة زاد الركب ، فلما انتهت عدتها تقدم إليها أبو بكر الصديق خاطبا فرفضته في رفق ، ثم تقدم إليها عمر بن الخطاب يخطبها فرفضته بحجة أنها مسنة وأن معها عيالا صغارا .

وبعث إليها رسول الله — ﷺ — يخطبها فإذا بالنشوة تملؤها من الرأس إلى القدم ، فهو شرف عظيم أن تصبح زوج رسول الله — ﷺ — وأم المؤمنين ، ولكنها تذكرت الشابتين اللتين عند رسول الله عليه السلام : عائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر فتحركت غيرها ، فبعثت إلى رسول الله عليه السلام تقول إنها غيرى مسنة ذات عيال ، فأرسل إليها رسول الله — ﷺ — يقول :

— أما أنك مسنة فأنا أكبر منك ، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك ، وأما العيال فإلى الله ورسوله .

وعرفت عائشة أن رسول الله عليه السلام تزوج أم سلمة فحزنت حزنا شديدا لما ذكر لها من جمالها ، فتلطفت حتى رأتها فرأت أضعاف

ما وصفت به ، فذهبت إلى حفلة :
بينهما وطفقت تتحدث عن أم سليمة :
— ما هي كما يقال .

وعدت تتحدث عن زمر سنها فعلا
بعد ذلك فكانت في عينها كما قالت
وجاءت أم سلمة - رضي الله عنها -
رسول الله - ﷺ - يأتى أم سلمة
— أين زنا ب ؟

وكان يداعب الطفلة ويغمرها بحبها أن عمار بن ياسر
وكان أخو أم سلمة من الرضاعة جاء يوم فاته حجر أمها وهو
يقول :

— دعيا فقد آذيت بها رسول الله — توبيخه .
وبعثت زينب إلى حاضنة ، وقد شعلت أه . سمعت . . أم المساكين
ولكن حفظها من قلب رسول الله — صلواته من حفظ
أم المؤمنين زينب بنت خزيمة .

ووضعت فاطمة الزهراء مولودها الثاني ، فجاء النبي فقال :

— أرونی ابنی ما سمیتموه ؟

فقال علي :

— حرباً .

فقال رسول الله — ﷺ :

— بل هو حسين .

وكان رسول الله - ﷺ - ذات يوم عند أم سلمة وابنتها زيب

هناك ، فجاءته الزهراء بولديها الحسن والحسين فضمهما إليه ثم قال :

— رحمة الله وبركاته أهل البيت إنه حميد مجيد .

فبكت أم سلمة فنظر إليها رسول الله — ﷺ — وسألها في حنو :

— ما يبكيك ؟

— يا رسول الله خصصتهم وتركتني وابنتي .

— إنك وابنتك من أهل البيت .

وبلغ النبي — ﷺ — أن سفيان بن خالد بن نبيح قد جمع له

الجموع ، فدعا رسول الله عليه السلام عبد الله بن أنيس فقال :

— إنه قد بلغني أن ابن سفيان الهدى جمع الناس ليغزوني وهو بنخلة

أو بعرة^(١) فأتته فاقتله .

— يا رسول الله انعته لى حتى أعرفه .

— إنك إذا رأيته أذكرك الشيطان ، وآية ما بينك وبينه أنك إذا رأيته

وجدت له قشعيرة .

فخرج عبد الله بن أنيس متوشحا بسيفه حتى دفع إليه وهو فى ظعن

يرتاد هن منزلا وذلك وقت العصر ، فلما رآه وجد له قشعيرة فأقبل

نحوه ، وخشى أن يكون بينه وبينه مجاورة^(٢) تشغله عن الصلاة فصلى وهو

يمشى نحوه يومئ برأسه ، فلما انتهى إليه قال :

— من الرجل ؟

— رجل من العرب سمع بك وجمعت لهذا الرجل فجاءك لذلك .

حسب ابن سفيان أن الرجل ما قدم إلا لينضم إليه لقتال محمد

(١) موقع قرب عرفة . (٢) الجولة : تكون فى الحرب .

— ﷺ — ، فقال :

— أجل أنا في ذلك .

فمضى معه شيئا والنساء خلفهما في منازلهن ، حتى إذا وجد ابن أنيس فرصته حمل عليه بالسيف فقتله ، فندت منه صرخة بلغت النساء فجهن مفزوعات ، فلما وجدنه يلفظ الأنفاس شققن الجيوب وذرفن الدموع .
وانسل عبد الله بن أنيس وهو ينشد :

تركت ابن ثور كالحُوار^(١) وحوله

نوائح تفرى كل جيب مُقْدَد

تناولته والظعن خلفى وخلفه

بأبيض من ماء الحديد مهْد

عجوم هام^(٢) الدارعين كأنه

شهاب عض^(٣) من ملهب متوقد

أقول له والسيف يعجم رأسه

أنا ابن أنيس فارسا غير قُعد

أنا ابن الذى لم ينزل الدهر قدره

رحيب فناء الدار غير مزند

فقلت له خذها بضربة ماجد

حنيف على دين النبى محمد

وكنت إذا هم النبى بكافر

سبقْتُ إليه باللسان وباليد

(١) الحوار : ولد الناقة إذا كان صغيرا .

(٢) هام الدارعين : يتلهم .

(٣) شجر نخشه من أجود الوقود .

— ١٣٠ —

وقدم على رسول الله — ﷺ — فقال عليه السلام :

— أفلح الوجه .

— قد قتلته .

— صدقت .

ثم قام عليه السلام به فأدخله بيته فأعطاه عصا فقال :

— أمسك هذه العصا عندك .

فخرج بها إلى الناس فقالوا :

— ما هذه ؟

— أعطانيها رسول الله — ﷺ — وأمرني أن أمسكها عندي .

— أفلا ترجع إليه فتسأله لِمَ ذلك ؟

فرجع إليه فقال :

— يا رسول الله لِمَ أعطيتني هذه العصا ؟

— آية بيني وبينك يوم القيامة .

فقرنها عبد الله بن أنيس بسيفه وقد عزم أن تظل معه حتى الموت ، وأمر

أن تضم إليه في كفه .

قتل عمرو بن أمية الضمري رجلين غيلة عند رجوعه من بئر معونة ،
فرأى رسول الله — ﷺ — أن يدفع دية الرجلين وكان بينه وبين اليهود
عهد أن يعاونوه في الديات ، فخرج عليه السلام في نفر من أصحابه فيهم
أبو بكر وعمرو وعلى إلى بنى النضير ليستعين بهم في دية الرجلين .

وحدثهم عليه السلام في أمر الدية فقالوا :

— نعم يا أبا القاسم حتى تطعم وترجع بحاجتك .

وكان جالسا إلى حنب جدار من بيوتهم فخلا بعضهم ببعض وقالوا :

— إنكم لن تجدوا الرجل على مثل هذه الحالة ، فمن رجل يعدو على

هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟

فقال عمرو بن جحاش أبجد ساداتهم :

— أنا لذلك .

وقال لهم سلام بن مشكم :

— لا تفعلوا ، والله ليخبرن بما همتم به وإنه لنقض للعهد الذى بيننا

وبينه .

— نقتله ونأخذ أصحابه أسارى إلى مكة .

فلما صعد ذلك الرجل ليلقى الصخرة أتى رسول الله — ﷺ —

الخبر من السماء بما أراد القوم . فقام رسول الله مظهرا أنه يقضى حاجته

وترك أصحابه في مجالسهم ورجع مسرعاً إلى المدينة ، ولم يعلم من كان معه من أصحابه فقاموا في طلبه لما استبطئوه ، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسألوه فقال :

— رأيته داخل المدينة .

فأقبل أصحابه حتى انتهوا إليه فأخبرهم رسول الله ﷺ — بما أرادت بنو النضير من غدر .

وعاد بنو النضير لمحاولة اغتياله — ﷺ — فأرسلوا إليه عليه السلام : — اخرج إلينا في ثلاثين من أصحابك وليخرج منا ثلاثون حبراً ، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك .

فخرج إليهم في ثلاثين من أصحابه ، وأتى رسول الله ﷺ — نعمان بن أضياد وبحرى بن عمرو وشامس بن عدي فكلموه وكلمهم رسول الله ﷺ — ودعاهم إلى الله وحذرهم نقمته ، فقالوا : — ما نخوفنا يا محمد ؟ نحن والله أبناء الله وأحباءه .

فأنزل الله فيهم : ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُل فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِر لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (١) .

واستمر رسول الله ﷺ يدعوهم إلى الإسلام ويرغبهم فيه ويحذرهم غير الله وعقوبته فأبوا عليه وكذبوا بما جاءهم به ، فقال لهم نفر من الأنصار : — يا معشر يهود اتقوا الله فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله ولقد كنتم تذكرونه لنا قبل مبعثه وتصفونه لنا بصفته .

فقال رافع بن خريملة ووهب بن يهوذا :
— ما قلنا لكم هذا قط ، وما أنزل الله من كتاب بعد موسى ولا أرسل
بشيرا ولا نذيرا من بعده .

فأنزل الله تعالى في ذلك قوله : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يبين
لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم
بشير ونذير والله على كل شيء قدير ﴾ (١) .

وسألوهم عن من يؤمن به من الرسل فتلا عليه السلام عليهم : ﴿ قولوا
آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب
والألسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين
أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ (٢) .

فلما ذكر عيسى ابن مريم جحدوا نبوته وقالوا :

— لا نؤمن بعيسى ابن مريم ولا بمن آمن به .

فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا
بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون ﴾ (٣) .

وقال رافع بن حارثة وسلام بن مشكم ومالك بن الضيف ورافع بن
خريملة :

— يا محمد ألسنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه وتؤمن بما عندنا من
التوراة وتشهد أنها من الله حق ؟

— بلى ، ولكنكم أحدثتم وجحدتم ما فيها مما أخذ الله عليكم من الميثاق

(٢) مخرج : مطعون .

(١) المائدة ١٩ .

(٣) بروق : لامعة .

فيها وكنتم منها ما أمرتم أن تبينوه للناس ، فبرئت من أحداثكم .
— فإننا نأخذ بما في أيدينا فإننا على الهدى والحق ولا نؤمن ؛
ولا نتبعك .

فأنزل الله تعالى : ﴿ قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيم
التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل
إليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين ﴾ (١) .

وقام التمام بن زيد وقردم بن كعب وبحري بن عمرو :

— يا محمد أما تعلم أن مع الله إلها غيره ؟

— الله لا إله إلا هو بذلك بعثت وإلى ذلك أدعو .

فأنزل الله تعالى فيهم قوله : ﴿ قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شه
بينى وبينكم وأوحى إلى هذا القرآن أنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدوا
أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإننى برء
مما تشركون * الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم الذ
خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون ﴾ (٢) .

وقال جبل بن ألى قشير وشمویل بن زيد :

— يا محمد أخبرنا متى تقوم الساعة إن كنت نبيا كما تقول ؟

فأنزل الله تعالى فيهما : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؛
إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السموات والأرء
لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولك
أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (٣) .

(١) المائدة ٦٨ . (٢) الأنعام ١٩ — ٢٠ (٣) الأعراف ١٨٧

وقال سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى و شامش بن قيس ومالك بن الضيف :

— كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيرا ابن الله .
فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم : ﴿ وقال اليهود عزير ابن الله
وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين
كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ (١) .

— أحق يا محمد أن هذا الذى جئت به لحق من عند الله ، فإننا لا نراه
متسقا كما تتسق التوراة ؟

— أما والله إنكم لتعرفون أنه من عند الله تجدونه مكتوبا عندكم في
التوراة . ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله ما جاءوا به .

— يا محمد ، ألا يعلمك هذا إنس ولا جن ؟

— أما والله إنكم لتعلمون أنه من عند الله وأنى لرسول الله ، تجدون
ذلك عندكم في التوراة .

— يا محمد فإن الله يصنع لرسوله إذا بعثه ما يشاء ويقدر منه على
ما أراد ، فأنزل علينا كتابا من السماء نقرؤه ونعرفه وإلا جئناك بمثل ما تأتى
به .

فأنزل الله تعالى فيهم وفيما قالوا : ﴿ قل لمن اجتمعت الإنس والجن
على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض
ظهيرا ﴾ (٢) .

— يا محمد هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟

— يا محمد هذا الله خلق الخلق ، فمن خلق الله ؟
فغضب رسول الله — ﷺ — حتى انتفخ لوؤه ثم ساورهم غضبا
لربه .

فجاء جبريل عليه السلام فسكنه فقال :
— خفض عليك يا محمد .
وجاءه من الله جواب ما سأله عنه : ﴿ قل هو الله أحد * الله الصمد *
لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ﴾ (١) .
فلما تلاها عليهم قالوا :

— صف لنا يا محمد كيف خلّقه ؟ كيف ذراعه ؟ كيف عضده ؟
فغضب رسول الله — ﷺ — أشد من غضبه الأول وساورهم .
فأتاه جبريل عليه السلام وقال له :
— خفض عليك يا محمد .

وجاءه من الله تعالى بجواب ما سأله بقول الله تعالى :
﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة
والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ (٢) .
كان رسول الله عليه السلام في ثلاثين من أصحابه فقال بعض اليهود
لبعض :

— كيف تخلصون إليه ومعه ثلاثون كل يحب أن يموت قبله ؟
فانتهى الحوار بينهم وبين رسول الله — ﷺ — دون أن يشرق نور
الإيمان في صدورهم . وكيف يشرق النور في أفئدة قد طمسها ظلمات

الحقد والحسد والغدر ؟

وعاد رسول الله ﷺ — والذين معه إلى المدينة وبقي يهود بنى النضير لا شاغل لهم إلا تدبير اغتياله عليه السلام ، فأرسلوا إليه :
— اخرج في ثلاثة من أصحابك ويلقاك ثلاثة من علمائنا ، فإن آمنوا بك اتبعناك .

واشتملت اليهود الثلاثة على الخناجر وقد بيتوا الغدر ، وخرج رسول الله عليه السلام في ثلاثة من أصحابه قاصدا بنى قريظة وفي صدره أمل بأن يهديهم الله إلى الصراط المستقيم . وبينما رسول الله ﷺ — في الطريق إذ أرسلت امرأة من بنى النضير لأخ لها مسلم تعلمه بذلك ، فخرج أخوها يعدو خلف النبي وأصحابه حتى لحق به فأعلم رسول الله ﷺ — أن القوم يريدون اغتياله ومن معه ، فقفل عليه السلام وأصحابه عائدين إلى المدينة .

ووضحت النوايا الخبيثة ، فما كان هدف بنى النضير التماس الهداية بل غطاء عملية الاغتيال بغلاف يجذب لا يمكن أن يرفضه داعية . وكيف يرفض صاحب دعوة حوارا بينه وبين الناس تتضح فيه ملامح دعوته ؟ إنه الغدر ، إنها الخيانة ، فأرسل إليهم عليه السلام محمد بن مسلمة أن اخرجوا من بلدى فلا تسكنوني بها ، فقد هممت بما هممت به من الغدر . فسكتوا ولم يقولوا حرفا ، وقال لهم ابن مسلمة :
— ويقول لكم قد أجلتكم عشرا ، فمن روى بعد ذلك ضربت عنقه .

فأرسلوا في إحضار الإبل ليجلوا عن المدينة ، فأرسل إليهم المنافقون :
— لا تخرجوا من دياركم ، ونحن معكم إن قوتلتم فلكم علينا النصر ،

وإن خرجتم لن نتخلف عنكم .

وأرسل لهم عبد الله بن أبي بن سلول يقول :

— لا تخرجوا من دياركم وأقيموا في حصونكم ، فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون حصونكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يوصل إليكم ، وتمدكم قريظة وحلفاؤكم من غطفان .

فطمع بنو النضير فيما قال ابن أبي ، وقرر حُيى بن أخطب سيد بني النضير ووالد صفية أن يرفض ذلك الإنذار ، فجاءه سلام بن مشكم وقال له :

— منتك نفسك والله يا حبي الباطل ، فإن قول ابن أبي ليس بشيء وإنما يريد أن يورطك في الهلكة حتى تحارب محمدا فيجلس في بيته ويتركك . ألا ترى أنه أرسل إلى كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة أن تمدكم بنو قريظة فقال له : لا ينقض رجل واحد منا العهد ، فأيس من بني قريظة ؟ وأيضا قد وعد حلفاءه من بني قينقاع مثل ما وعدك حتى حاربوا ونقضوا العهد وحصروا أنفسهم في صياصيمهم وانتظروا ابن أبي فجلس في بيته وسار إليهم محمد حتى نزلوا على حكمه ؟ فإذا كان ابن أبي لا ينصر حلفاءه ومن كان يمنعه من الناس ونحن لم نزل نصره بسيفنا مع الأوس في حروبهم ، فكيف يقبل قوله ؟

فأبى إلا عداوة محمد وإلا قتاله .

— فهو والله جلاؤنا من أرضنا وذهاب أموالنا وشرفنا وسبى ذرارينا مع قتل مقاتلينا .

فأبى حُيى إلا محاربة رسول الله ﷺ — ، وقالت له بنو النضير : — أمرنا لأمرك تبع لن نخالفك .

— ١٣٩ —

فأرسل إلى رسول الله ﷺ :

— إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك .

فأظهر رسول الله ﷺ — التكبير وكبر المسلمون لتكبيره وقال :
— حاربت يهود .

فتبهاً الناس للحرب ، فلما اجتمعوا خرج رسول الله ﷺ — بهم إلى بنى النضير واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم ، وحمل رايته على بن أبى طالب كرم الله وجهه وسار بالناس حتى نزل بهم ، وصلى العصر بفنائهم وقد تحصنوا وقاموا على حصنهم ، فقال — ﷺ — لهم :
— اخرجوا من المدينة .

— الموت أهون من ذلك .

ثم تبادروا بالحرب فراح يهود بنى النضير يرمون بالنبل والحجارة والمسلمون يرسلون السهام حتى إذا ما جاء وقت العشاء رجع رسول الله ﷺ — إلى بيته في عشرة من أصحابه عليه الدرع وهو على فرس ، واستعمل على العسكر على بن أبى طالب ، وبات المسلمون يحاصرونهم ويكبرون حتى أصبحوا .

وأذن بلال بالفجر فغدا رسول الله ﷺ — في أصحابه الذين كانوا معه فصلى بالناس ، فأمر بلالا فضرب القبة وهى قبة من خشب عليها مسوح ، فدخل رسول الله ﷺ — فيها .

وكان رجل من يهود يقال له غزول وكان أعسر راميا يبلغ نبه ما لا يبلغه نبل غيره ، فوصل نبه تلك القبة فأمر بها — ﷺ — فحولت .
وطال الحصار وغدا سعد بن عبادة يحمل التمر للمسلمين ، وفي ليلة من الليالي فقد على رضى الله عنه قرب العشاء فقال الناس :

— ١٤٠ —

— يا رسول الله ما نرى عليا .

— دعوه فإنه في بعض شأنكم .

كان على يكمن لغزول على حين خرج يطلب غرة من المسلمين ومعه جماعة ، فشد على عليه فقتله ، ولما كانت قلوب اليهود هواء فقد فروا لما وجدوا عليا يحمل على صاحبهم . وجاء على إلى رسول الله عليه السلام برأس غزول فأرسل رسول الله مع على أبا دجانة وسهل بن حنيف في عشرة فأدركوا أولئك الجماعة الذين كانوا مع غزول فقتلوهم .

وحاصرهم رسول الله ﷺ — خمسة عشر يوما وهم في حصونهم يرمون التبل والحجارة ، وأمر عليه السلام بقطع النخل واستعمل على قطع النخل أبا ليلى المازني وعبد الله بن سلام . فراح أبو ليلى يقطع العجوة وعبد الله يقطع اللين ، وكانت العجوة خير أموال بنى النضير فهم يقتاتونها . فلما قطعت شق النساء الجيوب وضربن الحدود ودعون بالويل وعند ذلك ناداه الرجال :

— يا أبا القاسم قد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه ،

فما بال قطع النخل وتحريقها !

— يا محمد زعمت أنك تريد الإصلاح أفمن الإصلاح قطع النخل ؟

وهل وجدت فيما زعمت أنه أنزل عليك الفساد في الأرض ؟

وقالوا للمؤمنين :

— إنكم تكرهون الفساد وأنتم تفسدون .

ووقع في نفوس بعض المسلمين من ذلك شيء ونسوا أنها الحرب ،

فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْنَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ

الله وليخزي الفاسقين ﴿١﴾ .

ولا زال عبد الله بن أبي بن سلول يبعث لبنى النضير :
— اثبتوا وتمنعوا فإنكم إن قوتلتم قاتلنا معكم وإن أخرجتم خرجنا معكم .

ومعه على ذلك جمع من قومه ، فانتظر بنو قريظة نصر ابن أبي فخذلهم ولم يحصل منه شيء ، وجعل سلام بن مشكم وكنانة بن صوريا يقولان لحيى :

— أين نصر ابن أبي الذى زعمت ؟

— ما أصنع ؟ هى ملحمة كتبت علينا .

ولزم رسول الله — ﷺ — حصارهم ، وقال يامين بن عمير لأبي سعد بن وهب :
— والله إنك تعلم أنه رسول الله ، فما ننتظر أن نسلم فنأمن على دماننا وأموالنا ؟

فنزلا من الليل وأسلما وقال رسول الله — ﷺ — ليامين :

— ألم تر ما لقيت من ابن عمك وما هم به من شأنى ؟

كان عمرو بن جحاش ابن عمه وكان أراد أن يلقي الحجر على رسول الله — ﷺ — ليقنتله ، فجعل يامين لرجل من قيس جعلاً قدره عشرة دنانير على قتل عمرو بن جحاش ، فذهب الرجل وقتل ابن جحاش غيلة ، وقذف الله في قلوبهم الرعب ، فسألوا رسول الله — ﷺ — أن يجلبهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموال إلا آلة الحرب ، ففعل :

وجاءوا بستمائة بعير وغدا الرجال يهدمون بيوتهم عما استحسنا من خشبها كالأبواب ويضعونها على ظهور البعير ، وصاروا ينقضون العمد والسقوف وينزعون الخشب حتى الأوتاد ، وينقضون الجدران حتى لا يسكنها المسلمون حسدا وبغضا ، ونسوا ما كانوا يعيرون على المؤمنين الفساد لما قطعوا النخل لإرغامهم على التسليم .

وخرجوا مظهرين التجلد ، خرجت النساء على الهودج وعليهن الديباج والحريير وقطف الخبز الأخضر والأحمر وحل الذهب والفضة وخلفهم القيان بالدفوف والمزامير ، وخرجت معهم سلمى صاحبة عروة ابن الورد وكان عروة قد نزل في بني النضير فسقوه الخمر ، فلما انتشى منعه ولا شيء معه إلا سلمى فرهنها ولم يزل يشرب حتى استحق اليهودي الرهن ، فلما قال لها عروة انطلقى ، قالت لا سبيل إلى ذلك قد أغلقتنى . وبهذا صارت عند بني النضير فقالت في ذلك :

سقوني الخمر ثم تكنفوني	عداء الله من كذب وزور
وقالوا لست بعد فداء سلمى	بمغن ما لديك ولا فقير
فلا والله لو ملكت أمرى	ومن لى فى التدبير فى الأمور
إذا لعصيتهم فى حب سلمى	على ما كان من حسك ^(١) الصدور
فيا للناس كيف غلبت أمرى	على شيء ويكرهه ضميرى

وانطلق بنو النضير وشقوا سوق المدينة ، وصف لهم الناس فجعلوا يبرون قطارا فى إثر قطار وإن سلام بن أبى الحقيق رافع جلد جمل مملوء حليا وينادى بأعلى صوته :

(١) الحسك الحقد والعداوة .

— هذا أعددناه لرفع الأرض وخفضها ، وإن كنا تركنا بخلافه خبير النخل .

وحزن المنافقون لخروجهم أشد الحزن ، وذهب أكابر اليهود كحبيى ابن أخطب وابنته صفية وسلام بن أبى الحقيق وكنانة بن أبى الربيع بن أبى الحقيق إلى خيبر ، وسار آخرون إلى الشام وكان فيهم جماعة من أبناء الأنصار ، لأن المرأة من الأنصار كان إذا لم يعيش لها ولد تجعل على نفسها إن عاش لها ولد تهوده .

ووجد — ﷺ — من الحلقة (آلة السلاح) خمسين درعا وخمسين بيضة وثلاثمائة وأربعين سيفاً ، ثم دعا الأنصار الأوس والخزرج فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين من إنزالهم في منازلهم وإيثارهم على أنفسهم بأموالهم ثم قال لهم : — إن إخوانكم المهاجرين ليس لهم أموال فإن شئتم قسمت هذه الأموال بينكم جميعاً ، وإن شئتم أمسكتُم أموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة .

فقالوا :

— بل اقسم هذه فيهم واقسم لهم من أموالنا ما شئت .

وقال سعد بن معاذ وسعد بن عباد :

— يا رسول الله بل تقسم بين المهاجرين ويكونون في دورنا كما كانوا ، بل نحب أن تقسم ديارنا وأموالنا على المهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وعشائرتهم وخرجوا بالله ورسوله ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها .

ونادت الأنصار :

— رضينا وسلمنا يا رسول الله .

فقال رسول الله — ﷺ :

— اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار .

وقسم رسول الله — ﷺ — ما أفاء الله عليه من بنى النضير على المهاجرين ، لأنه لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة قدموا وليس بأيديهم شيء . وكان الأنصار أهل الأرض والعقار فأثروهم بمتاع من أشجارهم فمن المهاجرين من قبلها منيحة محضة ومنهم من قبلها بشرط أن يعمل في الشجر والأرض وله نصف الثار ولم تطب نفسه أن يقبلها منيحة محضة لشرف نفوسهم وكراهة أن يكونوا كلاً . ولم يعط عليه السلام أحداً من الأنصار إلا رجلين كانا محتاجين وهما سهل بن حنيف وأبو دجاجة ، وأعطى سعد بن معاذ سيف ابن أبي الحقيق وكان سيفاً له ذكر عندهم . وأعطى عليه السلام أبا بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف وصهيباً وأبا سلمة بن عبد الأسد أراضى من أراضى بنى النضير ، وأمر المهاجرين برد ما كان للأنصار ، وراح المسلمون يتلون سورة الحشر التي نزلت في بنى النضير : ﴿ سُبْحَ اللَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار * ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار * ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب * ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليعزى الفاسقين * وما أفاء الله على رسوله منهم

فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير * ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذی القرى والیتامى والمساكين وابن السبیل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب * للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون * والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون * والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم * ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتكم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون * لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون * لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون * لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدار بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون * كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم * كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين * فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين * يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون * ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم

(غزوة أحد)

أنفسهم أولئك هم الفاسقون * لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون * لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته حاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون * هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم * هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون * هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم ﴿١﴾ .

(١) سورة الحشر .

١٣

صنعت فاطمة مسكتين^(١) من ورق^(٢) وقلادة وقرطين وسترت باب البيت لقدم أبيها وزوجها ، فلما قدم — ﷺ — دخل المسجد فصلى فيه ركعتين ثم ثنى بفاطمة فدخل عليها وأطال عندها المكث ووقف أصحابه على الباب لا يدرون أقيمون أو ينصرفون لطول مكثه عندها . فخرج رسول الله — ﷺ — وقد عرف العضب في وجهه حتى جلس على المنبر ، ففطنت فاطمة أنه فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والستر .

وكانت فاطمة تبدل نفسها لإرضائه فزعت قرطبيها وقلادتها ومسكتيها ونزعت الستر وبعثت به إلى رسول الله — ﷺ — وقالت للرسول :

— قل له تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول لك : اجعل هذا في سبيل الله .

فلما أتاها قال عليه السلام :

— قد فعلت فداها أبوها ، قد فعلت فداها أبوها ، قد فعلت فداها أبوها . ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير حناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء .

(١) المسكة : السوار . (٢) ورق : فضة .

وأعطى رسول الله ﷺ — بعض أراضى بنى النضير للمهاجرين وأبقى بعضها يزرع له ينفق على أهله منها وكانت صدقاته منها ، ولما أعطى المهاجرين أمرهم برد ما كان للأنصار .

وكانت أم أنس أعطته ﷺ — نخلات فأعطها عليه السلام أم أيمن ، فظنت أم أيمن أن ذلك ملك لها فامتنعت عن رده ، ولم ينكر عليه السلام امتناع أم أيمن عن رد ما كان لأم أنس تطيبا لقلبها وصار يعطيها وهي تمتنع من رده إلى أن أعطها عشرة أمثاله أو قريبا من ذلك وكان ذلك العطاء مما أفاء الله عليه ، فما كان يحفل بالدنيا ولا يريد منها ما يزيد على حاجته ، وكان دعاؤه :

— اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا .

كان زاهدا وكان رده ثقة في الله ، فلم يكن يدعو إلى إضاعة المال ولا إلى تحريم ما أحل الله ، وكان يقول لأصحابه : « ليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ، ولكن الزهادة أن تكون بما في يد الله تعالى أوثق مما في يدك ، وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾ (١) .

وأذن بلال بصلاة الصبح فأتى — ﷺ — باب علي وفاطمة وحسن وحسين ، وأخذ بعصا دق الباب وقال :

— السلام عليكم أهل البيت . الصلاة .. الصلاة .. الصلاة ، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا .
ووقف رسول الله عليه السلام يصلى بالمسلمين فجاء الحسن وهو

ساجد فجلس على ظهره فرفعه النبي رفعا رفيقا ، فلما فرغ من صلاته وضعه في حجره فكان يدخل أصابعه في لحية النبي عليه السلام ، والنبي يضمه ويقبله في حنان ويقول :

— اللهم إني أحبه .

ورأى المسلمون ذلك الحب الدافق فقالوا :

— يا رسول الله إنا رأيناك تصنع بهذا الصبي شيئا ما رأيناك تصنعه بأحد .

— إن هذا ريحانتي وإن هذا ابني سيد ، وعسى الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين .

ونفض النبي وحمل الحسن ، فنظر إليه عمر بن الخطاب فقال :

— نعم المركب ركبت يا غلام .

فقال — ﷺ :

— ونعم الراكب هو .

ودخل عليه السلام دار فاطمة فرأى الحسين صبغيرا قصيرا ، فوضع الحسن وراح يستدرج الحسين حتى إذا أقبل عليه غدا يرقصه ويداعبه ويقول :

— حزقة (١) .. حزقة .. تركة .. ترق عين بقة .

وكان من عادته — ﷺ — أن يبيت عندهم حينما بعد حين ، ففي إحدى هذه الليالي سمع الحسن يستسقى فقام — ﷺ — إلى قربة فجعل يعصرها في القدح ، ثم جعل يععبه ، فتناوله الحسين فمنعه وبدأ بالحسن ، قالت فاطمة :

(١) الحزقة القصير .

— ١٥٠ —

— كأنه أحب إليك ؟

— إنما استسقى أولاً !

كان يحب فاطمة من جوامع الفؤاد ، كانت إذا دخلت عليه قام إليها وقبلها وأجلسها مكانه ، ولكن ذلك الحب لم يشنه يوماً عن أن يجحد عن جوهر رسالته أو أن يرضى لأهله أن يعيشوا عيشة ترف بينا سواد المسلمين فقراء ، فقد جاءته الزهراء ذات يوم تشكو من آلام الرحى وتجرح يديها أحياناً من حمل الماء ، فطلبت إليه خادماً من الأسرى فأبى وقال لعلى :
— كيف تطمعون فى شيء من هذا وأهل الصفة على ما هم عليه من الفقر ؟

ودخل على فاطمة يوماً وفى يدها سلسلة من ذهب وهى تقول لامرأة عندها :

— هذه أهداها أبو الحسن .

فقال — عليه السلام :

— يا فاطمة ، أيسرك أن يقول الناس ابنة رسول الله فى يدها سلسلة من نار ؟

ثم خرج ولم يقعد ، فأرسلت فاطمة بالسلسلة فباعتها واشترت بشمنها عدا فأعتقته ، فحدث رسول الله بذلك فقال :

— الحمد لله الذى نجى فاطمة من النار .

لقد خاف فى الله ما لم يخف وأوذى فى الله ما لم يؤذ أحد ، وقد أتى عليه ثلاثون ما بين يوم وليلة وما له ولبلال من الطعام إلا شيء يسير يواريه إبط بلال .

كانت السعادة ترفرف على دور النبى — عليه السلام — على الرغم من حياة

التعشف التي فرضها النبي عليه السلام على أهله ، فقد كانت تمر الأيام والأسابيع ولا توقد في دور النبي — ﷺ — نار ، كانوا يأكلون الأسودين التمر والماء . حياة سعيدة مع الشطف والفاقة ، سعيدة بالعطف الذي كان يغمر به الجميع صاحب القلب الكبير ، حتى صار حطام الدنيا عند أهله ومن لا ذ به لا يساوى مثقال ذرة من هباء .

وكانت السعادة تغمر دار فاطمة الزهراء ، فهي سعيدة بزوجها البطل الذي يجدل أعداء الإسلام ، وهو سعيد ببنت رسول الله ربيبه وحببيه وقدوته وأمله في الحياة وفي الممات ، ولكن رجل الحرب كان يعود أحيانا إلى بيته وهو منحرف المزاج فكان يقسو على زوجه قسوة لم تكن تألفها فكانت تذهب إلى رسول الله — ﷺ — تشكو إليه ما لقيت من ابن أبي طالب ، فكان عليه السلام يصلح بينهما . وقد رأت عليه السلام ذات مساء وهو يسعى إلى دار بنته الزهراء ووجهه باسر ، فأمضى وقتا هناك ثم خرج ووجهه يفيض بالبشر ، فقال قائل من أصحابه :

— يا رسول الله دخلت وأنت على حال ، وخرجت ونحن نرى البشر في وجهك !

— وما يمنعني وقد أصلحت بين أحب اثنين إليّ ؟

وأسلمت بنت عمرو بن هشام بن المغيرة (أبي جهل) ورأت أهلها الذين أسلموا من قبل أن ليس لها كفء بين المسلمين غير علي بن أبي طالب ، فعرضوا على عليّ الزواج منها . وذاع الخبر في المدينة حتى بلغ الزهراء فاستولى عليها حزن عميق ، وذهبت إلى أبيها تقول والدموع في عينيها :

— يزعمون أنك لا تغضب لبناتك .

وأثرت دموع الزهراء في قلب أبيها فإذا به يغضب لابنته ، أيجمع على ابن أبي طالب بين بنت رسول الله وبنت عدو الله ؟ إن هذا لن يكون . وجاء بنو هشام بن المغيرة يستأذنونهم في تزويج بنتهم من زوج فاطمة فإذا بوجهه يظهر فيه الضيق ، وعجب بنو المغيرة فما كان الإسلام ليحول بين علي وبين الزواج من أخرى وقد تزوج رسول الله ﷺ — أكثر من امرأة ، ولكن عليه السلام ظل وفيا لأول زوجة خفق بحبها قلبه ، ظل وفيا لخديجة لم يثر غيرها بزوجة أخرى حتى خرجت من الدنيا ، فما بال عليّ يريد أن يجمع بين ابنته وبين بنت عدوه ، وثارت بشريته فصعد إلى المنبر وقال :

— إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم عليّ بن أبي طالب ، فلا أذن لهم ثم لا أذن لهم ، اللهم إلا أن يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم فإن ابنتي بضعة مني يرييني ما رابها ويؤذييني ما آذاها ، وإنّي أتخوف أن تفتن في دينها .

وراح يثنى على أبي العاص بن الربيع زوج زينب في مصاهرته إياه ثم قال :

— حدثني فصدقني ووعدني فأوفى لي ، وإنّي لست أحرم حلالا ولا أحل حراما ولكن الله لا يجمع بنت رسول الله وبنت عدو الله ببيت واحد أبدا .

لأنه بشر ، وقد عبر عن بشريته بقوله : إنما فاطمة بضعة مني يرييني ما رابها . ولم يحرم حلالا ولا أحل حراما وقد رد الأمر إلى ابن عمه وربيبه ليختار ، وقد اختار علي بنت رسول الله عليه السلام . وعادت المودة والصفاء إلى بيت الزوجية التي هبت عليها ريح قاسية

— ١٥٣ —

أرقت كل من فيها ، وراحت فاطمة ترقص طفلها وهي تقول مداعبة
للزوج الذى فكر فى أن يجيء لها بضرة :

وأبأى شبه النبى لست شبيها بعلى
ودنا على من زوجه وقال لها فى رقة :
— والله لا آتى شيئا تكرهينه أبدا .

وعادت الحياة فى المدينة إلى ما كانت عليه عقب أن باتت ساهرة بعدما
كان من بنى هشام بن المغيرة وخطبة رسول الله ﷺ . ووقف
رسول الله عليه السلام يخطب فى مسجده وبينما هو يعظ المسلمين أقبل
الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يعثران ويقومان ، فنزل إليهما
عليه السلام وأخذهما وعاد إلى المنبر وهو يضمهما إليه ، ثم وضعهما فى
حجره وقال :

— صدق الله ، إنما أموالكم وأولادكم فتنة .

١٨

قدم إلى المدينة أبو سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبو الأسود
السلمي فنزلوا على عبد الله بن أبي ، وقد أعطاهم النبي — ﷺ — الأمان
على أن يكلموه ، فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبي السرح وطعمة بن
أبيرق ، فقالوا للنبي — ﷺ — وعنده عمر بن الخطاب :
— ارفض ذكر آلهتنا اللات والعزى ومناة وقل إن لها شفاعاة ومنعة لمن
عندها ، وندعك وربك .

فشق على النبي — ﷺ — قولهم ، فقال عمر بن الخطاب في ثورة :
— ائذن لنا يا رسول الله — ﷺ — في قتلهم .
— إني قد أعطيتهم الأمان .
فقال عمر :

— اخرجوا في لعنة الله وغضبه .

وأمر رسول الله أن يخرجوا من المدينة فخرجوا مذمومين . وقد أنزل
الله تعالى فيهم : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون
خبيرًا * وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً ﴿ ١ ﴾ .

وقام رسول الله — ﷺ — بعد غزوة بنى النضير شهر الربيع
الأول ، وبلغه أن بنى محارب وبنى ثعلبة جمعوا الجموع من غطفان لمحاربتة

فخرج — ﷺ — في سبعمائة من أصحابه ليغزوا نجدا واستخلف على المدينة عثمان بن عفان .

ولم يكن عدد البعير كافيا فسار المسلمون على الأقدام كل ستة نفر بينهم بعير واحد يتعاقبونه ، وكانت الشقة بعيدة فنقبت الأقدام وسقطت أظافرها فكان الرجال يلفون على أرجلهم الخرق ، فسميت غزوة ذات الرقاع .

وبلغ المسلمون نجدا وقد بلغ بهم الجهد ، فلم يجد رسول الله — ﷺ — بها أحدا ووجد نسوة فأخذهن وفيهم جارية وضيعة ، ثم لقي جمعا فتقارب الجمعان وقد خاف بعضهم بعضا فلم يكن بينهما حرب ، وحانت صلاة الظهر فصلاها — ﷺ — بأصحابه فهم بهم المشركون فقال قائلهم :

— دعوهم فإن لهم صلاة بعد هذه هي أحب إليهم من أبنائهم .
وحانت صلاة العصر والعدو في غير جهة القبلة ، ففرق رسول الله عليه السلام المسلمين فرقتين : فرقة وقفت في وجه العدو وفرقة صلى بها ركعة ثم قيامه للثانية فارقتهم بقية صلاتها ثم جاءت ووقفت في وجه العدو ، وجاءت تلك الفرقة التي كانت في وجه العدو واقتدت به في ثانيته فصلى بها ركعة ثم قامت وهو في جلوس التشهد وأتمت بقية صلاتها ولحقته في جلوس التشهد وسلم بها . وكانت صلاة الخوف .

وكان جبريل قد نزل عليه بالقرآن موضعا صلاة الخوف : ﴿ وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا ﴾ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا

سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا معكم وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم * ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا * فإذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبكم فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا * ولا تنهوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما ﴿١﴾ .

ونزل — ﷺ — ليلا وكان نزوله في شعب استقبله ، وكانت تلك الليلة ذات ربح فقال :

— من رجل يكلؤنا (يحفظنا) هذه الليلة ؟

فقام عباد بن بشر وعمار بن ياسر فقالا :

— نحن يا رسول الله نكلؤكم .

ونزل المسلمون الشعب في خيام ضربوها وجلس عباد وعمار على فم

الشعب ، فقال عباد بن بشر لعمار بن ياسر :

— أنا أكفيك أول الليل وتكفيني آخره .

فنام عمار رضي الله عنه وقام عباد رضي الله عنه يصلي . وكان زوج

بعض النسوة اللاتي أصابهن رسول الله — ﷺ — غائبا ، فلما جاء أخبر

الخبر فتبّع الجيش وحلف لا ينثنى حتى يصيب محمدا أو يهريق في أصحاب

محمد دما .

ورأى الرجل عباد بن بشر قائما قال :

— هذا ريثة^(١) القوم .

فصوب إليه سهماً فوضعه فيه فانتزعه عباد وهو صابر على ألمه ، فرماه
بآخر فوضعه فيه فانتزعه ، فرماه بآخر فانتزعه ، فلما غلبه الدم قال
لعمار :

— أجلس فقد أتيت .

فلما رأى ذلك الرجل عباداً جلس علم أنه قد نذر به فهرب ، فقال
عمار :

— أى أخى ، ما منعك أن توقظنى له فى أول سهمرمى به ؟

— كنت أقرأ فى سورة الكهف فكرهت أن أقطعها .

وجاء رجل بفرخ طائر فأقبل أحد أبويه حتى طرح نفسه بين يدى
الذى أخذ فرخه ، فعجب الناس من ذلك ، فقال رسول الله ﷺ :
— أتعجبون من هذا الطائر أخذتم فرخه فطرح نفسه رحمة لفرخه !
والله لربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه .

وجيء له — ﷺ — بثلاث بيضات من بيض النعام ، فقال لجابر :
— دونك يا جابر فاعمل هذه البيضات .

فعملهن ثم جاء بهن فى قصعة ، فجعل من عند الرسول عليه السلام
يطلبون خبزاً فلم يجدوا ، فجعل — ﷺ — وأصحابه يأكلون من ذلك
البيض بغير خبز حتى انتهى .

ولم يلق رسول الله ﷺ — كيدا فلم تنشب معركة بينه وبين
غطفان فقفل عائداً إلى المدينة ، حتى إذا ما دنا منها بعث جعالم بن سراقه
مبشراً بسلامته وسلامة المسلمين ، وكان جعالم من أهل الصفة الذين

(١) الريثة : الطليعة .

— ١٥٨ —

انقطعوا للعبادة في مسجد الرسول وحراسته — ﷺ — وملازمته في غدواته وروحاته .

ولاحت أرباض المدينة فأغذ^(١) المسلمون السير ، وكان جابر بن عبد الله على جمل ثقال إنما هو في آخر القوم ، فمر به النبي — ﷺ — فقال :

— من هذا ؟

— جابر بن عبد الله .

— فما لك ؟

— إني على جمل ثقال .

— أمعك قضيب ؟

— نعم .

— أعطينيه .

فضرب الجمل فزجره فكان من ذلك المكان من أول القوم ، ودنا رسول الله — ﷺ — من جابر وقال :

— بعنيه .

— بل هو لك يا رسول الله .

— لا . ولكن بعنيه .

— فسُمنيه يا رسول الله .

فقال عليه السلام مداعبا جابر :

— قد أخذته بدرهم .

— لا . إذن تغبنني يا رسول الله .

(١) أغذ : أسرع :

— فيدرهمين .

— لا .

فلم يزل يرفع له رسول الله — ﷺ — في ثمنه حتى قال :

— بل بعنيه فقد أخذته بأربعة دنانير ولك ظهري إلى المدينة .

وقال عليه السلام :

— يا جابر هل تزوجت بعد ؟

— نعم يا رسول الله .

— أثيبا أم بكرا ؟

— لا . بل ثيبا .

— أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك !

— يا رسول الله إن أبى أصيب يوم أحد وترك بنات له تسعا ، فنكحت

امراة جامعة ، تجمع رعوسهن وتقوم عليهن .

— أصبت إن شاء الله .

ودخل النبي المدينة فاستقبله المسلمون بالبشر والترحاب ، ثم انطلق إلى

المسجد يصلي ركعتين لله شكرا . ودخل جابر إليه فعلف الجمل في ناحية

البلاط ، ودخل رسول الله — ﷺ — دار فاطمة ثم راح يطوف بدور أزواجه .

وذهب إليه جابر فقال :

— يا رسول الله هذا جملك .

فخرج رسول الله — ﷺ — يطوف بالجمل ثم قال :

— الثمن والجمل لك .

والتفت رسول الله عليه السلام إلى بلال خازن الرسول وقال :

— يا بلال اقضه وزده .

فأعطاه أربعة دنانير وزاده قيراطا ، وأعطاه الجمل وسهمه مع القوم .

١٥

قال أبو سفيان حين منصرفه من أحد :

— موعد ما بيننا وبينكم بدر .

فقال — ﷺ — لعمر بن الخطاب قل : نعم إن شاء الله .

وقد وافى موسم بدر بعد أن أقام بالمدينة عقب غزوة ذات الرقاع بقية جمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجبا في سنة أربع من هجرته ، ثم تهيأ للخروج إلى بدر لميعاد أبي سفيان .

واستخلف عليه السلام على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول ، وكان عبد الله من المتقين ولم يؤثر في رسول الله أنه ابن رأس المنافقين ، فما كان عليه السلام يخلط عملا حسنا بعمل سيئ ، وما كان يحكم على الأبناء بفعل الآباء ولا تزر وازرة وزر أخرى .

ورأى نعيم بن مسعود الأشجعي تهيؤ المسلمين للخروج لقتال قريش ، فقدم إلى مكة وأخبر قريشا أن المسلمين تهيؤوا للخروج لقتالهم ببدر ، فكره أبو سفيان الخروج وقال لنعيم :

— إنه بدا لي ألا أخرج وأكره أن يخرج محمد ولا أخرج أنا فيزيدهم ذلك جراءة ، فلأن يكون الخلف من قبلهم أحب إلي من أن يكون من قبلي ، فالحق بالمدينة وأعلمهم أنا في جمع كثير ولا طاقة لهم بنا ، ولك عندي من الإبل عشرون بعيرا أدفعها لك على يد سهيل بن عمرو .

فجاء نعيم إلى سهيل بن عمرو فقال له :

— ١٦١ —

— يا أبا يزيد تضمن لي هذه الإبل وأنطلق إلى محمد وأثبطه .

— نعم .

فقدم نعيم المدينة وأرجف بكثرة جموع أنى سفيان ، وصار يطوف في المسلمين حتى قذف الرعب في قلوبهم ولم يبق لهم نية في الخروج ، واستبشر المنافقون واليهود وقالوا في فرح :

— محمد لا يفلت من هذا الجمع .

وسمع أبو بكر وعمر ما أرجف به المسلمون فجاءا إلى رسول الله ﷺ — وقالوا له :

— يا رسول الله إن الله مظهر نبيه ومعز دينه ، وقد وعدنا القوم موعدا لا نحب أن نتخلف عنه فيرون أن هذا جبن ، فسر لموعدهم فوالله إن في ذلك لخيبة .

فسر رسول الله ﷺ — بذلك ثم قال :

— والذي نفسى بيده لأخرجن وإن لم يخرج معى أحد .

فأذهب الله عنهم ما كانوا يجدون ، وحمل لواء رسول الله ﷺ — على بن أبى طالب وخرج في ألف وخمسمائة من أصحابه ، وكان الخيل عشرة أفراس ، وخرج المسلمون معهم بتجارا إلى بدر . وقال أبو سفيان لقريش :

— لقد بعثت نعيما ليخذل أصحاب محمد عن الخروج .

ولكن نخرج نحن ففسير ليلة أو ليلتين ثم نرجع ، فإن كان محمد لم يخرج وبلغه أنا خرجنا فرجعنا ، لأنه إن لم يخرج كان هذا لنا عليه ، وإن خرج أظهرنا أن هذا عام جذب ولا يصلحنا إلا عام عشب .

— نعم ما رأيت .

(غزوة أحد)

فخرج أبو سفيان في قريش وهم ألفان ومعهم خمسون فرسا حتى انتهوا إلى سوق مجنة .

وصار المسلمون كلما سألوا عن قريش قيل لهم :
— قد جمعوا لكم .

فيقولون :

— حسبنا الله ونعم الوكيل

فلما اقتربوا من بدر قيل لهم :

— إنها قد امتلأت من الذين جمعهم أبو سفيان .

كانوا يريدون إرهابهم وإلقاء الرعب في قلوبهم ، ولكن المسلمين كانوا يقولون في إيمان :

— حسبنا الله ونعم الوكيل .

وقابل المسلمين ركب من عبد القيس كانوا قاصدين إلى المدينة للميرة^(١) ، فجعل لهم أبو سفيان حمل أبعرتهم زبيبا إن خذلوا المسلمين وأرجفوههم ، فطفقوا يقولون لهم :

— إنما أنتم أكلة رأس^(٢) ، وإن ذهبتم إليهم لا يرجع منكم أحد .
فقال المسلمون في إيمان :

— حسبنا الله ونعم الوكيل .

وبدا لأبي سفيان الرجوع فقال :

— يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن ، وإن عامكم هذا عام جذب فارجعوا .

فرجع ورجع الناس ، واستمر المسلمون في زحفهم متوكلين على ربهم

(١) الميرة : الطعام المجلوب . (٢) أكلة رأس : كناية عن القلة .

— ١٦٣ —

حتى إذا قدموا بدرا أقام رسول الله ﷺ — ينتظر أبا سفيان لميعاده ،
فأتاه فحش بن عمرو الضمري وهو الذي وادعه على بنى ضمرة في غزوة
ودان فقال :

— يا محمد أجمعت للقاء قريش على هذا الماء ؟
— نعم يا أخا بنى ضمرة ، وإن شئت مع ذلك ردونا إليك ما كان بيننا
وبينك ثم جالدناك حتى يحكم بيننا وبينك .
— لا والله يا محمد ، ما لنا لذلك منك من حاجة .

وأقام رسول الله ﷺ — ينتظر أبا سفيان ، فمر به معبد بن أبي
معبد الخزاعي وقد رأى مكان رسول الله ﷺ — وناقته تهوى به
فقال :

قد نفرث من رُفقتي محمد وعجوة من يثرب كالعسجد
تهوى على ديسن أبيها الأتلد قد جعلت ماء قديد موعدي
وماء ضجنان لها ضحى الغد

ووجدوا بيدرا أسواقا لا ينازعهم فيها أحد فراحوا يتجرون فربحت
تجارهم الضعف ، وكانوا أصحاب الموسم .

وانقضت أيام سوق بدر الثمانية فخرج معبد بن أبي معبد الخزاعي
سريعا إلى مكة ، وغدا يقص على سادات قريش ما كان من محمد عليه
السلام وأصحابه في سوق بدر وكيف كانت لهم العزة ، فأحس
القرشيون كمدا ، وتذكر صفوان بن أمية أنه نهى أبا سفيان يوم أحد أن
يعد المسلمين لغزوة أخرى فقال لأبي سفيان في غضب :

— قد نهيتك يومئذ أن تعد القوم وقد اجترعوا علينا ورأونا أخلفناهم ،
وإنما خلفنا الضعف .

وشعر القرشيون بالخزى وذاقوا طعم الهزيمة وإن لم ينهزموا في قتال ،
فقد كان نكوصهم عن الخروج أقسى من الهزيمة ، بعد أن قال زعيمهم
أبو سفيان يوم أحد في خيلاء مزهوا بانتصاره :
— موعدا ما بيننا وبينكم بدر .

فلقد خرج محمد عليه السلام إلى بدر الموعد ولم يأت تخذيل الناس
للمسلمين بما كان يشتهي أبو سفيان ، فرفع تخلف قريش عن مواعدها من
روح المسلمين المعنوية وفت في عضد الكافرين والمنافقين ومن في قلوبهم
مرض .

وعاد رسول الله ﷺ — إلى المدينة فاستقبله الناس بالبشر
والترحاب ، وما كاد العائدون يستقرون في دورهم حتى نشبت معركة
الشعر ، فقال عبد الله بن رواحة :

وعدنا أبا سفيان بدرا فلم نجد	لميعاده صدقا وما كان وافيا
فأقسم لو وافيتنسا فلقيتنسا	لأيت ذميما وافقتدت المواليا
تركنا به أوصال عتبة وابنه	وعمرأ أبا جهل تركناه ثاويا
عصيتم رسول الله أف لدينكم	وأمركم السيئ الذي كان غاويا
فإني وإن عنفتموني لقائل	فدى لرسول الله أهلي وماليا
أطعناه لم نعدله بغيره	شهابا لنا في ظلمة الليل هاديا

وقال حسان بن ثابت :

دعوا فلجات^(١) الشام قد حال دونها
جلاد كأفواه الخماض^(٢) الأوارك^(٣)

(١) فلجات : الماء الجاري . (٢) الخماض : الحوامل من الإبل .

(٣) الأوارك التي ترعى الأراك .

— ١٦٥ —

بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم
 وأنصاره حقاً وأيدي الملائك
 إذا سلكت للقفور من بطن عاج^(١)
 فقولاً لها ليس الطريق هنالك
 أقمنا على الرأس^(٢) الشزوع ثمانيا
 بأرعن جرار عريض المبارك
 بكل كمي^(٣) جوزة تخلقه
 وقب^(٤) طوال مشرفات الحوارك
 ترى العرفج^(٥) العامي تدرى أصوله
 مناسم أخفاف المطي الرواتك^(٦)
 فإن نلق في تطوانا والتماسنا
 فرائ بن حيّان يكن رهن هالك
 وإن نلق قيس بن امرئ القيس بعده
 يزد في سواد لونـه لونُ حالك
 فأبلغ أبا سفيان عنى رسالة
 فإنك من عرّ الرجال الصعالك
 فأجابه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، ابن عم النبي الذي
 ما كان يفارقه أبداً قبل الرسالة وشبيهه وشاعر قريش بعد الزبير بن
 عبد المطلب وأبى طالب :

-
- | | |
|--------------------------------|-------------------------------------|
| (١) مكان به رمل كثير | (٢) الرس : البئر المطوبة بالحجارة . |
| (٣) الكمي ^٣ : الفرس | (٤) القب : الفحل من الإبل . |
| (٥) العرفج : شجر . | (٦) رتك البعير : قارب خطوه . |

أحسان إنا يا بن آكلة الغفا^(١)
خرجنا وما تنجو اليعافير^(٢) بيننا
إذا ما انبعثنا من مُناخ حسبتَه
أقمت على الرس النزوع تريدنا
على الزرع تمشي خيلنا وركابنا
أقمنا ثلاثا بين سلع وفارع
حسبتم جلاد القوم عند قبابهم
فلا تبعث الخيل الجياد وقل لها
سعدتم بها وغيركم كان أهلها
فإنك لا في هجرة إن ذكرتها

وجدك نغتيال الخروق كذلك
ولو وألث^(٣) منا بشد مُدارك
مدمن أهل الموسم المتعارك
وتتركنا في النخل عند المُدارك
فما وطئت ألصقنه بالذكادك
بجرّد الجياد والمطىّ الرواتك
كما أخذكم بالعين أُرطال آنك^(٤)
على نحو قول المعصم المتماسك
فوارس من أبناء فهر بن مالك
ولا حرّمت الدين أنت بناسك

(١) الغفا : القمر . (٢) اليعافير : الطباء .

(٣) وأل : طلب النجاة . (٤) العين هنا : المال الحاضر ، آنك : القزدير .

كانت عائشة بنت أبى بكر خفيفة الجسم ذات عينين واسعتين وشعر جعد ووجه مشرق مشرب بحمرة ، وكانت تعرف مكانتها من قلب رسول الله — ﷺ — ، ولكنها كانت تغار من أم سلمة بنت أبى أمية زاد الركب ، وكان يزيد فى غيرتها ذلك التقارب بين أم سلمة وفاطمة الزهراء الذى أحس به كل من يعيشون فى دور النبى عليه السلام .

وكان بين بيت فاطمة وبيت النبى — ﷺ — خوخة وكانت فيه كوة إلى بيت عائشة ، فكان رسول الله — ﷺ — إذا قام اطلع من الكوة إلى فاطمة فعلم خبرها وخبر أبنائها ، وكانت عائشة تستشعر شيئا من الغيرة من ذلك العطف السابغ الذى يغمر به رسول الله عليه السلام ابنته وزوجها وأبناءهما ، ولكنها كانت تحاول جاهدة أن تخفى ما فى نفسها .

وقالت فاطمة ذات ليلة لزوجها :

— إن ابنى أمسيا عليّين فلو نظرت لنا أدما نستصبح به !
فخرج على إلى السوق فاشتري لها أدما وجاء به إلى فاطمة فاستصبحت ، فقامت عائشة فى جوف الليل فأبصرت المصباح عندهم فكان بينها وبين فاطمة كلام أغضب الزهراء ، فلما أصبحوا وجاء النبى عليه السلام لزيارة ابنته وسبطيه سألت فاطمة النبى — ﷺ — أن يسد الكوة ، فسدها رسول الله — ﷺ — .

كانت عائشة تحب رسول الله ﷺ — بكل عواطفها وإحساساتها فهو الرجل الأول في حياتها ، وهو رسول الله الذي يشرف كل أنثى أن تكون له زوجة ، فكانت تبذل كل ما في وسعها البذل لتثبت مكانتها في قلبه وتتمنى من أعماق نفسها لو تستطيع أن يكون لها وحدها دون أهل بيته ، فلم تحجم عن الكفاح في سبيل الاستئثار بحبه .

وكانت ترجو أن يكون لها ولد من رسول الله ﷺ — كما كان للخصية ، ولكن الأيام مرت دون أن تنجب ، وكانت غيرتها تتحرك كلما كانت ترى النبي ﷺ — يسأل عن الحسن والحسين ويلاعبهما ويضاحكهما ويقول إذا حاول أحد أن يبعد أحدهما عنه : — دعوا لى ابني .

كانت تستشعر مرارة لأنها عاجزة عن أن تنجب له ولدا يعوضه عن القاسم والطاهر ، وعن أن تشبع عواطف الأمومة التي كانت تتحرك بين ضلوعها كلما ضمت عبد الله ابن أختها أسماء في أحضانها . وأحبت أن تكنى وأن تنادى باسم ابن من أبنائها كما تكنى أم سلمة وغيرها من نساء أهل البيت ، فاستأذنت رسول الله ﷺ — في الكنية فقال لها عليه السلام :

— اكننى بابنك عبد الله بن الزبير .

فكانت كنيته أم عبد الله .

أرادت عائشة أن تحتل مكان خديجة في دار الرسول وفي قلبه منذ أول يوم وطئت فيه قدماها دار محمد عليه السلام ، ولكن محمدا ﷺ — كان خالصا للخصية لم تشاركها فيه امرأة أخرى ، أما هي فقد جاءت إلى دور النبي وقد سبقها إليها امرأة أخرى هي سودة بنت زمعة العجوز التي

كان زواجه منها عن عطف ومواساة لا عن حب ورغبة .
 إنها لم تحس نحو سودة أية غيرة وكانت كثيرا ما تداعبها لتضحك النبي
 عليه السلام ، وكانت تقسو أحيانا في مداعبتها وما كانت سودة تغضب
 إذا ما رأت رسول الله — ﷺ — يتنسم ، فقد كانت غاية أمانها أن
 تدخل السرور على قلب الرجل الكريم الذي ضمها إليه لتصبح أول أم
 للمؤمنين بعد خديجة الطاهرة سيدة نساء قريش .

أعدت عائشة ذات يوم طعاما وجلست إليه هي وسودة ورسول الله
 بينهما ، وقدمت لسودة الطعام فاعتذرت بأنها لا تحبه ، فقالت لها عائشة
 مداعبة إنها ستلطيخ به وجهها إن لم تأكل منه فعادت سودة تعتذر عن
 تناوله ، فقامت عائشة ولطخت به وجه سودة وهي تضحك ، فضحك
 النبي ولم يقل شيئا . فلما رأت سودة ابتسامة النبي عليه السلام
 لم تغضب ، فقد كان يسعددها أن تراه يضحك . إنها لا تنسى ليلة أن قالت
 له :

— صليت خلقتك الليلة يا رسول الله فركعت لى حتى أمسكت بأنفى

مخافة أن يقطر الدم !

إنه تبسم تلك الليلة ضاحكا من قولها ، وإنها كلما تذكرت بسمته
 أحست راحة ورضا فيكفيها أن تنجح مرة في أن تدخل السرور على قلبه .
 وكانت تعرف حب رسول الله عليه السلام لعائشة فأحبها لحبه إياها
 وراحت ترعاها ، فأحبها عائشة ولم تشعر نحوها غيرة ، وكيف تغار شابة
 جميلة مثل عائشة من امرأة عجوز لا تريد ما تريد النساء .

وجاءت إلى دور الرسول عليه السلام حفصة بنت عمر ، شباب دافق
 وأب له مكانته في الإسلام وبين المسلمين . ليت أبا بكر قد تزوجها يوم أن

عرضها عليه عمر وأراحها من الغيرة التي تتلظى في أحشائها . ولكن كيف يتزوجها أبو بكر وقد ذكرها رسول الله ، فإن أبا بكر قد قال لعمر بعد أن خطب محمد عليه السلام حفصة :

— لا تجد عليّ يا عمر ، فإن رسول الله — ﷺ — ذكر حفصة ، فلم أكن لأفشي سر رسول الله — ﷺ — ولو تركها لتزوجها .

كان رسول الله عليه السلام يريد بزواجه عائشة وحفصة أن يوطد الأواصر بصاحبيه أبي بكر وعمر ، فأبو سفيان قد تزوج في القبائل وزوج أبنائه وبناته لسادات القوم لتكون له العزة بأصهاره وأنسابه ، ورسول الله — عليه السلام — قد تزوج من بنتي صاحبيه المؤمنين القويين ليربط بينه وبينهما الأسباب توطيدا لأركان الإسلام .

كان رسول الله — ﷺ — يتزوج لحكمة ، وكانت عائشة تفتن إلى تلك الحكمة . ولكن طبيعتها البشرية كانت تغلبها فكانت تغار من كل أنثى تدخل دور الرسول كزوجة . وقد لسعتها عقارب الغيرة من بنت عمر وإن كانت واثقة من أنها هي نفسها أحب نساء النبي إلى قلب النبي . ووفدت على دور النبي عليه السلام زينب بنت خزيمة ، ولم تحفل عائشة لمقدمها كثيرا فلم تكن ذات جمال ، وقد انصرفت إلى رعاية المساكين والحدب عليهم والبر بهم حتى عرفت بأمر المساكين ، وكانت قريرة العين بالشرف الرفيع الذي نالته بالأمومتين اللتين عرفت بهما : أم المؤمنين وأم المساكين ، ولم يطل بها المقام في دور الرسول عليه السلام فقد ماتت بعد بضعة أشهر دون أن تحاول أن تنافس عائشة حبها أو تستأثر بقلب الزوج الكريم الذي ضمها إليه شفقة بها ورحمة .

وقدمت إلى دور النبي عليه السلام أم سلمة بنت زاد الركب وكانت

ذات جمال وشرف فحزنت عائشة حزنا شديدا ، وقد كانت أم سلمة زوجة ابن عمه الرسول وأخيه في الرضاعة فكان رسول الله عليه السلام يعتبرها من أهله ، وقد توطدت الصداقة بينها وبين فاطمة الزهراء . فرأت عائشة أن تضم إليها بنت الخطاب وأن تكون منهما حزبا يقف في وجه حزب الزهراء وأم سلمة .

كانت الزهراء سعيدة في كنف أبويها ، فلما ماتت خديجة سيدة نساء قريش كانت فاطمة ترعى أباهما وتحاول أن تمسح عن قلبه حزنه الكبير على من كانت له وزير صدق على الدوام ، حتى عرفت فاطمة بأم النبي . فلما جاءت عائشة إلى دار النبي لتحتل مكان خديجة أحست فاطمة نحوها بإحساسات غيرة الابنة ممن أخذت مكان أمها . وأحب رسول الله عليه السلام بنت أبي بكر وعرف الناس أنها زوجة الأثيرة عنده ، فلم ترتح الزهراء إلى أن تقاسمها عائشة قلب أبيها وعطفه الكبير . ولما كانت النساء محدثات الليل فقد حدثت فاطمة عليا زوجها بما تشعر به نحو عائشة فانتقل ما في نفسها إلى صدر ابن أبي طالب ، فأصبح ينظر إلى بنت الصديق بعين فاطمة ويحس نحوها بإحساسات زوجه .

وكانت عائشة تتيه على ضرائرها بأن الوحي ينزل في دارها وكان ذلك حقا حتى ذلك الوقت ، فما نزل الوحي في دار سودة ولا حفصة ولا زينب بنت خزيمة ولا أم سلمة ، وقد قالت عائشة :

— تبارك الذى وسع سمعه كل شيء . إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى على بعضه وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله — ﷺ — وهى تقول : يا رسول الله أبلى شباى ونثرت له بطنى حتى إذا كبرت سى وانقطع ولدى ظاهر منى . اللهم إني أشكو . فمابرحت حتى نزل جبريل

عليه السلام بقول الله تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكى إلى الله .. ﴾ (١) .

كانت خولة بنت ثعلبة عند أوس بن الصامت أخى عبادة بن الصامت ، فدخل عليها ذات يوم وكلمها بشيء وهو فيه كالضجر ، فردته بغضب فقال :

— أنت على كظهر أمى .

ثم خرج في نادى قومه ثم رجع إليها فراودها عن نفسها فامتنعت منه ، فحاول أن يضمها إليه قسرا فدفعته وهى تقول :

— كلا والذى نفس خولة بيده لا تصل إليّ حتى يحكم الله تعالى فيّ وفيك بحكمه .

وانطلقت إلى رسول الله عليه السلام وكان عند عائشة ، وراحت تجادله وعائشة في جانب البيت لا تدرى ما يقول ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير * الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور * والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتأسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير * فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتأسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾ (٢) . ورفع عن رسول الله — ﷺ — الوحي فالتفت إلى

— ١٧٣ —

حولة وقال :

- مريه فليعتق رقبة .
- يا نبى الله والله ما عنده رقبة يعتقها .
- مريه فليصم شهرين متتابعين .
- يا نبى الله شيخ كبير ما به من صيام .
- فليطعم ستين مسكينا .
- يا نبى الله والله ما عنده ما يطعم .
- بلى ، سنعيه بعرق من تمر مكتمل يسع ثلاثين صاعا .
- وأنا أعينه بعرق آخر .
- قد أحسنت ، فليتصدق .

١٧

كان بدومة الجندل جمع كثير يظلمون من مربيهم ، يغيرون على القوافل يقتلون الرجال ويسبون النساء يأخذون ما بها من أموال . وكانت دومة الجندل أقرب مدن الشام إلى المدينة فبينها وبينها ست عشرة ليلة وبينها وبين دمشق خمس ليال وهى بقرب تبوك .

كان بها أبناء دومة بن إسماعيل عليه السلام قد طال عليهم الأمد وقست قلوبهم وعبدوا الأوثان بعد التوحيد ومارسوا غزو القوافل وقطع الطريق ، وقد عزموا على أن يمدوا نشاطهم ويدنوا من المدينة ويغيروا على ما يخرج منها من قوافل أو يهاجموا أطرافها ثم يعودون بما سلبوا من غنائم وما وقع فى أيديهم من أسرى إلى مدينتهم الحصينة .

وبلغ رسول الله ﷺ — ما يدبر رجال دومة الجندل فلم ينتظر حتى يفاجئوه بهجومهم بل ندب الناس للخروج ، فخرج فى ألف من المسلمين واستخلف على المدينة سباع بن عرقعة الغفارى ، وخرجت معه عليه السلام عائشة بنت أبى بكر فى هودجها مع نساء المسلمين . وراحوا يسرون بالليل ويكمنون النهار ، وكان دليله عليه السلام من بنى عذرة يقال له مذكور ، حتى إذا كانوا بالبيداء انقطع عقد لعائشة فأقام رسول الله ﷺ — على التماسه وأقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء ، فأتى الناس إلى أبى بكر فقالوا :

— ألا ترى ما صنعت عائشة ؟ أقامت برسول الله ﷺ —

وليسوا على ماء وليس معهم ماء .
فجاء أبو بكر إلى عائشة ورسول الله ﷺ — واضع رأسه على
فخذها قد نام ، فقال :
— حبست رسول الله ﷺ — والناس وليسوا على ماء وليس
معهم ماء .

وغدا أبو بكر يعاتبها وجعل يطعن بيده في خاصرتها ، ولا يمنعها من
التحرك إلا مكان رأس رسول الله ﷺ — على فخذها ، فقام رسول
الله ﷺ — حين أصبح على غير ماء . فأنزل الله تعالى : ﴿ ... وإن
كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم
تجدوا ماء فميمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إن الله كان
عفوًا غفورًا ﴾ (١) .

فقام المسلمون مع رسول الله ﷺ — فضربوا بأيديهم إلى الأرض
ثم رفعوا أيديهم ولم يفضوا من التراب شيئا ، فمسحوا بها وجوههم
وأيديهم إلى المناكب ومن بطون أيديهم إلى الآباط ثم وقفوا خلفه يصلون
وقد أضاء الفجر البيداء وأشرق نفوسهم بأنوار اليقين ، وقضيت
الصلاة فقال أسيد بن الحضير :

— ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر .

وجاء أوان الرحيل فبعث رجال البعير الذي كانت عليه عائشة
فوجدوا العقد ، وفرحت به عائشة . وانطلق المسلمون في طريق الشام
قاصدين دومة الجندل ليؤدبوا من يظلمون من مر بهم ولينزلوا الرعب في
قلوبهم حتى ينشئوا عن فكرة الدنو من المدينة .

ودنا رسول الله — ﷺ — من أهل دومة الجندل فإذا هم مغربون وإذا آثار النعم والشاء ، فهجم على ماشيتهم ورعائهم فأصاب من أصاب وهرب من هرب .

وجاء الخبر أهل دومة الجندل فتفرقوا ، ونزل رسول الله — ﷺ — بساحتهم فلم يجد بها أحدا ، فأقام بها أياما وبث السرايا وفرقها فرجعت ولم تصب منهم واحدا وأخذ منهم رجل واحد ، فسأله رسول الله — ﷺ — عنهم فقال :

— هربوا حيث سمعوا أنك أخذت نَعْمهم .

فعرض عليه الإسلام فأسلم . ورجع رسول الله — ﷺ — إلى المدينة ، وفي رجوعه رأى عيينة بن حصن يرعى بمحل بينه وبين المدينة ستة وثلاثون ميلا لأن أرضه كانت قد أجذبت ، فصالحه عليه السلام وتركه يرعى حتى يسمن حافره وخفه ، وكان يقال لعيينة الأحق المطاع ، كان يتبعه عشرة آلاف فتاة .

ودخل المسلمون المدينة فاتجه عليه السلام إلى المسجد فصلى لله ركعتين ، ثم بدأ ببيت ابنته الزهراء فلما دخل عليها قامت إليه ورحبت به وأخذت بيده فقبلتها وراحا يتحدثان ، فما كان أحد من خلق الله أشبه حديثا وكلاما برسول الله — ﷺ — من فاطمة .

وراح يدور على بيوت نسائه : سودة بنت زمعة وحفصة بنت عمر وأم سلمة ، ودخلت عائشة بنت أبي بكر دارها لتستريح من وعشاء الطريق .

وخرج عليه السلام إلى أصحابه فإذا سعد بن معاذ يقبل عليه بوجه باسر فقد ماتت أمه وهو مع رسول الله — ﷺ — ، فذهب عليه السلام

— ١٧٧ —

إلى قبرها وصلى عليها وقد تذكر ما كان منها يوم أحد . إنها خرجت تعدو نحوه وهو واقف على فرسه وابنها سعد أخذ بعنان فرسه ، فقال سعد :
— يا رسول الله أُمى .

— مرحبا بها .

فدنت حتى تأملتة فعزاها بابنها عمرو بن معاذ ، فقالت :
— أما إذ رأيتك سالما فقد اشتويت المصيبة .

— يا أم سعد بشرى أهلكهم أن قتلهم قد توافقوا فى الجنة جميعا وقد شفّعوا فى أهلكهم .

— رضينا يا رسول الله ومن ييكى عليهم بعد هذا ؟
صلى عليه السلام على قبرها بعد شهر من موتها . ولما أتم صلاته دنا منه سعد بن معاذ وقال :

— يا رسول الله أتصدق عنها ؟

— نعم .

— أى الصدقة أفضل ؟

— الماء .

فحفر بئرا وقال :

— هذه لأم سعد .

وراح رسول الله يطوف على أصحابه فى عالية المدينة وفى سافلها حتى أتى بنى ظفر ، فجلس على الصخرة ومعه ابن مسعود ومعاذ بن جبل وناس من أصحابه ، فالتفت إلى ابن مسعود فقال :

— اقرأ علىّ .

فقال عبد الله بن مسعود فى دهش :

(غزوة أحد)

— أقرأ عليك وعليك أنزل ؟

— نعم إلى أحب أن أسمعه من غيري .

وراح ابن مسعود يتلو : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا * وآتوا اليتامى أموالهم ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوبا كبيرا * وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا * وآتوا النساء صدقاتهن نحلة ، فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا * ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا ﴿ (١) .

واستمر ابن مسعود يقرأ سورة النساء حتى أتى إلى هذه الآية : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » . فقال عليه السلام :

— حسبك الآن .

فبكى رسول الله ﷺ — حتى اضطرب لحياه وجنباه ، فقال :

— يا رب ، شهدت على من أنا بين ظهره فكيف بمن لم أره ؟

ثم صمت قليلا وقال :

— شهيد عليهم ما دمتُ فيهم ، فإذا توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم .

١٨

لما أراد زيد بن حارثة أن يتزوج زينب بنت جحش جاء إلى النبي عليه السلام وقال :

— يا رسول الله اخطب على .

— من ؟

— زينب بنت جحش .

كانت زينب ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب ، وكان زيد مولاه وقد اختاره على أبيه وأبى مفارقتها ، فأخذ رسول الله — ﷺ — بيده وقام به على الملاء من قريش فأشهدهم أن زيدا ابنه وارثا وموروثا .

كانت زينب ابنة عمته وكان زيد ابنه ، ولم تكن امرأة خيرا منها في الدين وأتقى لله وأصدق حديثا وأوصل للرحم وأعظم صدقة وأشد بذلا في نفسها في العمل الذي تتصدق به وتتقرب إلى الله عز وجل ، ولم يكن شاب خيرا منه في الدين فهو ربيب نبي الله الذي نهل الحكمة من أصفى ينابيعها وأغزرها ، وكان حب رسول الله — ﷺ — ، فكان كفوا لابنة عمه رسول الله عليه السلام . ولكن تقاليد الجاهلية لم تكن قد انمحت بعد من نفوس المسلمين ، وكان النبي عليه السلام يعلم ذلك فقال له :

— لا أراها تفعل ، إنها أكرم من ذلك نفسا .

— يا رسول الله إذا كلمتها أنت وقلت زيد أكرم الناس على فعلت .

— إنها امرأة لسناء .

فذهب زيد إلى علي بن أبي طالب ، إلى الرجل الذي شب معه في كنف خديجة في بيت النبوة فحمله على أن يكلم له النبي — ﷺ — ، فانطلق معه إلى النبي عليه السلام فكلمه ، فقال :

— إني فاعل ذلك ومرسلك يا علي إلى أهلها فتكلمهم .

وانطلق علي إليها وحدث أخاها أبا أحمد بن جحش فرفض ورفضت ، وعاد علي إلى النبي عليه السلام ، وأخبره بكراتها وكراهة أخيها .

كان في زواج زيد من زينب بنت جحش حكمة وتشريع ، ولولا ذلك ما بعث نبي الله الذي يحترم رغبة المرأة ويترك لها حق إبداء رأيها في بعلمها إلى زينب ابنة عمته وأخيها وأهلها يقول :

— قد رضيته لكم وأقضى أن تنكحوه .

ورضيت زينب بقضاء رسول الله — ﷺ — وقبلت أن تتزوج الشريفة سليمة المطلبين عبدا ، فقد كانت مؤمنة عميقة الإيمان وكانت تعرف أنه ما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن تكون لهم الخيرة من أمرهم .

وساق زيد لهم عشرة دنانير وستين درهما ودرعا وخمارا وملحفة وإزارا وخمسين مدا من الطعام وعشرة من التمر ، أعطاه ذلك كله رسول الله — ﷺ — ، ولا غرو فهو زيد بن محمد .

وبنى زيد بزينب وأكد الإسلام أن الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي ولا أبيض على أسود ولا حر على عبد إلا بالتقوى ، وأن الناس لآدم وآدم من تراب ، ومن أراد أن يتفاخر فليتفاخر بالتراب .

وكان زيد أفطس الأنف ولم يكن جميل الصورة فلم ينشرح له قلب

زينب ، ولم يكتب للبيت الجديد السعادة . وأحسن زيد نفورا من زوجه ، ولما كان ربيب النبي فقد غذى على الكرامة ، أى أن يرتبط بزوجة زاهدة فيه . فذهب إلى رسول الله ﷺ — يعرض عليه أن يطلقها فقال له النبي عليه السلام :

— ما لك ؟ أراك منها شيء ؟

— لا والله يا رسول الله ما رابنى منها شيء ولا رأيت إلا خيرا ، ولكنها تتعظم على لشرفها وإن فيها كبرا ، تؤذيني بلسانها .
— أمسك عليك زوجك .

حطم زواج زيد من زينب حلقة من تقاليد الجاهلية : ترفع السادة عن الزواج من العبيد وإن كانوا أتقياء أكفاء ، وكان هناك حلقة أخرى كتب على رسول الله ﷺ — أن يحطمها ، فقد كان العرب قبل الإسلام لا يتزوجون أزواج أذعياهم إذا قضوا منهن وطرا .

كانت زينب كارهة للبقاء مع زيد ، وكان زيد يأبى إلى رسول الله يلتمس منه أن يوافق على طلاق ابنه لابنة عمته عليه السلام ، وكانت الحكمة تقضى أن يقبل عليه السلام ذلك الفراق وأن يخطب ابنه عمته لنفسه لتمام شريعة الإسلام وليعوضها عن تضحياتها الغالية إطاعة لله ورسوله ، ولكنه يخشى الناس فقال لزيد :

— أمسك عليك زوجك .

وأصبحت الحياة بين زينب وزيد لا تطاق وكان لا بد من الطلاق ، فلما وقع وانقضت عدتها كان لا بد أن تتم حكمة زواج زيد من زينب ثم انفصلهما ، وما كانت تلك الحكمة لتمام إلا بأن يتقدم رسول الله ﷺ — ليخطب زينب ، فأرسل زيد بن حارثة ليخطبها له ، فذهب

زيد إليها وجعل ظهره إلى الباب فقال :

— يا زينب بعث رسول الله — ﷺ — يذكرك .

كانت زينب امرأة لم تكن امرأة خيرا منها في الدين ، فاعتكفت تصلي لله تنتظر أمر السماء فيما عرض عليها ابن خالها رسول الله — ﷺ . وأنزل الله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا * مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا * الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رَسُولَاتِ اللَّهِ وَيُخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (١) .

فدخل رسول الله — ﷺ — على زينب بغير إذن يتلو عليها ما أنزل الله فإذا بها تهلل بالفرح فقد كانت تنتظر أمر الله في هذا الزواج فإذا بالله تعالى أنكحها رسوله من فوق سبع سموات .

وفي هلال ذي القعدة سنة أربع من الهجرة تزوجها نبي الله وأولم عليها وأطعم المساكين خبزا ولحما ، وطعم القوم وتبأ — ﷺ — للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام وقام من قام وقعد ثلاثة نفر ، فجاء النبي — ﷺ — ليدخل فإذا القوم جلوس فلم يدخل ، فأُنزل الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَظِيرٍ إِنَّهُ لَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنَسِينَ لَحْدِيثٌ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ

وقلوبهم وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا وإن ذلكم كان عند الله عظيما * إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما * لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا نساءهن ولا ما ملكت أيمانهن واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيدا ﴿١﴾ .

ولم تنم المدينة تلك الليلة ، كان زواج النبي عليه السلام من ابنة عمته حديث الدور ، وراح المؤمنون يتلون الآيات التي نزلت على نبي الله ﷺ — في بيت عائشة فرحين ، بينما تكلم في ذلك المنافقون فقالوا : — حرم محمد نساء الولد وقد تزوج امرأة ابنه .

فأنزل الله عز وجل : ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما ﴾ ﴿٢﴾ .

وظل الناس ينادون زيد بن حارثة بزيد بن محمد ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائق تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أدعياءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل * ادعوهم لأبائهم هو أقصط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فأخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيم ﴾ ﴿٣﴾ .

وكانت زينب مفزع اليتامى والأرامل وأطول نساء النبي ﷺ — يدا ، كانت تقضى نهارها في محرابها وتقوم الليل إلا قليلا ، وقد قال رسول الله ﷺ — لعمر :

(٣) الأحزاب ٣—٥

(٢) الأحزاب ٤٠

(١) الأحزاب ٥٣—٥٥

— إن زينب بنت جحش أواهة .

فقال رجل :

— يا رسول الله ما الأواه ؟

— الخاشع المتضرع ﴿١﴾ إن إبراهيم لحليم أواه منيب ﴿١﴾ .

وأصبحت زينب بنت جحش تسامى عائشة بنت أبى بكر فى المنزلة عند رسول الله — ﷺ ، وأخذ عائشة ما قرب وما بعد لما تعرف من

جمال زينب ، وعلى الرغم من غيرتها فإنها لم تقل إلا خيرا ، قالت :

— ولم أر امرأة قط خيرا فى الدين من زينب وأتقى لله وأصدق حديثا وأوصل للرحم وأعظم صدقة وأشد ابتذالا لنفسها فى العمل الذى يتصدق به ويتقرب به إلى الله عزو وجل .

ولا غرو فقد كانت عائشة تترعرع فى مدرسة القرآن وتتلقى العلم من رسول الله عليه السلام وتتأدب بآدابه وتنهل من كريم أخلاقه .

وكانت زينب بنت جحش التقية النقية تعرف مكانتها فى دور النبى عليه السلام ، فقد قالت لثناء النبى ذات يوم :

— أنا أكرمكم ولما وأكرمكم سفيرا : زوجكن أهلكن وزوجنى الله

من فوق سبع سموات !

١٩

بلغ رسول الله ﷺ — أن الحرث بن ضرار سيد بنى المصطلق جمع لحرب رسول الله ﷺ — من قدر عليه من قومه ومن العرب ، فأرسل عليه السلام بريدة بن الحُصيب ليعلم علم ذلك . واستأذن بريدة رسول الله عليه السلام أن يقول ما يتخلص به من شرهم وإن كان خلاف الواقع ، فأذن له رسول الله ﷺ .

وخرج بريدة من المدينة إلى بنى المصطلق وهم بطن من خزاعة لهم ماء يعرف بالمريسيع وذلك الماء في ناحية قديد حيث يقوم صنم مناة ، وكانت إلهة الأوس والخزرج قبل أن يلقي الله في قلوبهم أنوار اليقين ومن ظل على دينه من خزاعة . واستمر بريدة يضرب في الأرض حتى ورد عليهم ورأى جمعهم ، فقالوا له :

— من الرجل ؟

— رجل منكم قدمت لما بلغنى من جمعكم لهذا الرجل ، فأسير في قومي ومن أطاعنى فنكون يدا واحدة حتى نستأصلهم .

فقال له الحرث :

— فنحن على ذلك فعجل علينا .

— أركب الآن فأتاكم بجمع كثير من قومي .

فسروا بذلك منه ورجع إلى رسول الله ﷺ — فأخبره خبر القوم

فندب رسول الله ﷺ — الناس إليهم فأسرعوا الخروج ، وقادوا

الخيـل وهى ثلاثون فرسا عشرة للمهاجرين منها فرسان له — ﷺ :
اللزاز والظرب ، وعشرون للأنصار ، واستخلف على المدينة زيد بن
حارثة . وخرج معه عليه السلام من نسائه عائشة وأم سلمة ، وخرج معه
— ﷺ — ناس كثير من المنافقين لم يخرجوا فى غزوة قط مثلها منهم
عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين وزيد بن الصلت ليس لهم رغبة فى
الجهاد ولكن غرضهم أن يصيبوا من عرض الدنيا مع قرب المسافة .

وسار رسول الله — ﷺ — حتى بلغ محلا نزل به ، فأتى برجل من
عبد القيس فسلم على رسول الله — ﷺ — ، فقال له عليه السلام :
— أين أهلك ؟

— بالروحاء .

— أين تريد ؟

— إياك ، جئت لأومن بك وأشهد أن ما جئت به حق وأقاتل معك
عدوك .

— الحمد لله الذى هداك للإسلام .

— أى الأعمال أحب يا رسول الله ؟

— الصلاة لأول وقتها .

ووجه الحـرث رجلا ليأتيه بخبر رسول الله — ﷺ — فوقع فى أيدي
المسلمين ، فسأله رسول الله — ﷺ — عن الحرث والذين معه فلم
يذكر من شأنهم شيئا ، فعرض عليه الإسلام فأبى ، فأمر رسول الله
— ﷺ — عمر بن الخطاب أن يضرب عنقه فضرب عنقه وكان ذلك
جزاء كل عين على الجيوش يفتضح أمره .

وبلغ الحرث مسير رسول الله — ﷺ — وأنه قتل عينه فسيء بذلك

ومن معه وخافوا خوفا شديدا ، وتفرق عنه جمع كثير ممن كان معه .
وانتهى رسول الله — ﷺ — إلى المُرَيْسِعِ فضربت له قبة من آدم وكان
معه فيها عائشة وأم سلمة ، فتهيا المسلمون للقتال ودفع راية المهاجرين إلى
أبى بكر وراية الأنصار إلى سعد بن عباد ، وأمر رسول الله — ﷺ —
عمر بن الخطاب أن يقول لهم :

— قولوا لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم .

كان عمر سفير قريش في الجاهلية فأصبح سفير المسلمين في الإسلام ،
فمشى إلى الحَرِث ومن معه وقال لهم :

— قولوا لا إله إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم .

عرض عليهم رسول الله — ﷺ — أن يجنحوا للسلام وأن يدخلوا في
دين الله وكان إسلامهم أحب إليه من قتالهم ، ولكنهم أبوا السلام
والإسلام فنشب القتال فتراموا بالنبل ساعة ، ثم أمر رسول الله
— ﷺ — أصحابه فحملوا حملة رجل واحد ، وضج المكان بشعار
المسلمين :

— يا منصور أمت .

وثبت الحَرِث والذين معه وصفوا للقتال ، ومشى الرجال إلى الرجال
وإذا بسيف ترتفع لتسقط على هامات الرجال ، وإذا بالله يلقي الرعب في
قلوب المشركين فقتل منهم عشرة وأسر سائرهم الرجال والنساء
والذرية ، واستاق رسول الله — ﷺ — إبلهم وشيائهم ، فكانت
الإبل ألفى بعير والشيء خمسة آلاف شاة . واستعمل — ﷺ — على
ذلك مولاة شُقران ، وكان السبى مائتى أهل بيت وكانت برة بنت الحَرِث
سيد بنى المصطلق فيهم .

وأمر رسول الله ﷺ — بالأسارى فكتفوا واستعمل عليهم
بريدة ، ثم فرق السبى فصار فى أيدي الناس ، وبعث — ﷺ — أبا ثعلبة
الطائى إلى المدينة بشيرا من المريسيع .

ووقعت برة بنت الحرث فى سهم ثابت بن قيس وابن عم له ، فجعل
ثابت لابن عمه نخلات له بالمدينة فى حصته من برة ، وأرادت أن تسترد
حريتها فكاتبت ثابت على تسع أواق من ذهب فوجدت أن لا طاقة لها بدفع
ما طلب ، فانطلقت إلى قبة رسول الله ﷺ — تعرض عليه أمرها .
كان النبی — ﷺ — عند عائشة فقدمت برة تلتمس مقابلة رسول
الله — ﷺ — ، فوالله ما هو إلا أن رأتها عائشة بباب الخباء فكرهت
دخولها على النبی — ﷺ — وعرفت أنه سیرى منها مثل الذى رأت ،
كانت برة فى العشرين من عمرها جميلة ذات شخصية آسرة تأخذ بمجامع
القلوب ، لا يكاد يراها أحد إلا أخذت بنفسه .

ودخلت برة على رسول الله ﷺ — فقالت له :
— يا رسول الله إني امرأة مسلمة لأنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك
رسول الله ، وإني برة بنت الحرث سيد قومه أصابنا من الأمر ما قد علمت
ووقعت فى سهم ثابت بن قيس وابن عم له ، وخلصنى ثابت من ابن عمه
بنخلات فى المدينة وكاتبني على ما لا طاقة لى به ، وإني رجوتك فأعني فى
مكاتبتى .

فقال رسول الله ﷺ — :

— أُوخِر من ذلك ؟

— ما هو ؟

— أُوْدَى عنك كتابتك وأتزوجك .

— ١٨٩ —

— نعم يا رسول الله قد فعلت .
فأرسل رسول الله — ﷺ — إلى ثابت بن قيس فطلبها منه ، فقال
ثابت :

— هي لك يا رسول الله بأبي أنت وأمي .
فأدى رسول الله — ﷺ — ما كان كاتبها عليه وأعتقها وتزوجها
وسماها جُوَيْرِيَّة .

وكان هوى خُزاعة مع رسول الله — ﷺ — ، وقد أراد
— ﷺ — بزواجه من جويرة أن يصبح الخزاعيون أصهاره لعل ذلك
يشرح صدورهم للإسلام .

ورأى المسلمون أنه — ﷺ — تزوج جويرة فقالوا في حق بنى
المصطلق :

— أصهار رسول الله — ﷺ — .
فأعتقوا ما بأيديهم منهم وجاءت جارية من بنات عم جويرة تخبرها
الخبر ، فاغرورقت عينها جويرة من التأثر ثم خرت ساجدة لله رب العالمين
أن جعلها بركة على قومها .

واختصم جهجاه أجير لعمر بن الخطاب ، كان يقود له فرسه مع رجل
من حلفاء الخزرج حليف عبد الله بن أبي بن سلول يقال له سنان بن قروة
وكان المسلمون لا يزالون على ماء المريسيع فضرب أجير عمر حليف
الخزرج فسال الدم ، فنادى حليف الخزرج :

— يا للخزرج !

ونادى أجير عمر :

— يا لكتانة ! يا لقريش !

وسمع عبد الله بن أبي بن سلول النداء فغضب وكان عنده رهط من قومه من الخزرج من المنافقين ، وكان عندهم زيد بن أرقم وهو غلام حديث السن ، فقال عبد الله بن أبي :

— والله ما رأيت كاليوم مذلة وقد فعلوها ، نافرنا وكاثرونا في بلادنا ، والله ما أعدنا وقریش هؤلاء إلا كما قال الأول في أمثالهم : سمن كلبك يأكلك . والله إلى لقد ظننت أنى سأموت قبل أن أسمع هاتفا يهتف بما سمعت . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منا الأذل .

ثم أقبل على من حضر من قومه فقال :

— هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم ، ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضا للمنايا فقتلتم دونه فأيتتم أولادكم وقللتم وكثروا ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عند محمد .

فثارت الدماء في عروق زيد بن أرقم فقال لابن أبي :

— أنت والله الذليل المنقص في قومك . ومحمد — ﷺ — في عز من

الرحمن وقوة من المسلمين .

فغاص لون ابن أبي وامتقع فقد كان يحسب أن الحاضرين كلهم من المنافقين وما كان يدري أن عندهم غلاما حديث السن أضاء الله بصيرته وألقى في قلبه أنوار اليقين ، فقال ابن أبي في صوت مضطرب :

— اسكت ، إنما كنت ألعب .

وأقبل جمع من الجيشين وشهروا السلاح حتى كاد أن تكون فتنة

عظيمة ، فخرج رسول الله — ﷺ — فقال :

— ما بال دعوى الجاهلية ؟

— ١٩١ —

— رجل من المهاجرين ضرب رجلا من الأنصار .
 إنها دعوى مذمومة تثير الأحقاد وتدعوى إلى الفرقة بين المسلمين بعد أن
 ألف الله بينهم ، فقال — ﷺ :
 — دعوها إنها مفتنة (مذمومة) ، من دعا دعوى الجاهلية كان من
 محشى جهنم .

— وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم ؟
 — وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم .
 ثم كلموا ذلك المضروب فترك حقه فسكنت الفتنة وانطفأت نائرة
 الحرب ، ولكن زيد بن أرقم كان كالحموم يريد أن يمشى إلى رسول الله
 — ﷺ — ليخبره خبر عبد الله بن أبى راس المنافقين . وفيما هو يجد في
 السير نحو نبي الله عليه السلام إذ التقى بعمر بن الخطاب فقص عليه ما سمع
 في مجلس النفاق ، فانطلق عمر إلى رسول الله — ﷺ — فذكره للنبي
 عليه السلام فدعا زيدا فحدثه ، فكره رسول الله — ﷺ — ذلك وتغير
 وجهه وقال له :

— يا غلام لعلك غضبت عليه !
 — والله يا رسول الله لقد سمعته منه .
 — لعله أخطأ سمعك .
 ولامه من حضر من الأنصار وقالوا :
 — عمدت إلى سيد قومك تقول عليه ما لم يقل .
 وقام زيد بن أرقم يجر رجله وقد أصابه هم لم يصبه قط لما كذبه رسول
 الله عليه السلام .
 وانطلق إلى الخباء وهو حزين فجاء إليه عمه فقال له :

— ١٩٢ —

— ما أردت إلا أن كذبك رسول الله — ﷺ — ومقتك .

فقال زيد والدموع في مآقيه :

— والله لقد سمعت ما قال ولو سمعت هذه المقالة من أبى لنقلتها إلى رسول الله — ﷺ — ، وإني لأرجو أن ينزل الله على نبيه ما يصدق حديثى .

وجلس رسول الله في فء شجرة وقد تغير وجهه ، فجاء عمر إلى رسول الله — ﷺ — عنده غليم أسود يكبس ظهره فقال عمر :

— يا رسول الله كأنك تشتكى ظهرك .

— تقحمت بى الناقة الليلة (أى ألقته عليه السلام) .

— يا رسول الله ائذن لى أن أضرب عنق ابن أبى أو مر محمد بن مسلمة بقتله .

— كيف يا عمر إذا تحدث الناس بأن محمدا يقتل أصحابه ؟

وذهب بعض الأنصار الذين سمعوا قول النبى — ﷺ — ورده على الغلام إلى ابن أبى فقال له :

— يا أبا الحباب إن كنت قد قلت ما نقل عنك فأخبر به النبى — ﷺ — فليستغفر لك ولا تجرده فينزل فيك ما يكذبك ، فإن كنت لم تقله فأنت رسول الله — ﷺ — فاعتذر له واحلف ما قلته .

فحلف بالله العظيم ما قال من ذلك شيئا . ثم مشى إلى رسول الله — ﷺ — فقال له رسول الله — ﷺ — :

— يا بن أبى إن كانت سبقت منك مقالة فتب .

— والذى أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئا من ذلك وإن زيدا لكاذب .

— ١٩٣ —

فقال من حضر رسول الله ﷺ — من الأنصار :
— يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال
الرجل .

— يا رسول الله شيخنا وكبيرنا لا يصدق عليه غلام .
وجاء عبد الله ولد عبد الله بن أبي لما بلغه مقالة عمر من قتل أبيه إلى
رسول الله عليه السلام فقال :

— إنه قد بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه ، فإن
كنت فاعلا فمرفى أن أحمل لك رأسه . فوالله لقد علمت الخزرج ما كان
بها رجل أبر بوالده مني . إني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فأقتل مؤمنا
بكاfer فأدخل النار .

— ما أردت قتله ولا أمرت به ، ولنحسن صحبته ما كان بين
أظهرنا .

وشاع الخير ولم يعد للناس حديث إلا ما رواه زيد عن عبد الله بن أبي ،
أناس يكذبون زيد بن الأرقم ، وأناس يصدقون مقالته . واستولى على زيد
هم ثقيل فراح يبتهل إلى الله بكل كيانه أن ينزل على نبيه ما يصدق حديثه .
وخشى رسول الله ﷺ — أن تشيع الفتنة في الناس فأذن بالرحيل ،
وكان ذلك في ساعة لم يكن يرحل فيها لشدة الحر ، فارتحل الناس وسار
رسول الله ﷺ — فجاءه أسيد بن حضير وقال له :

— السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته .
— وعليك السلام ورحمة الله وبركاته .
— يا نبي الله لقد رحلت في ساعة منكرة ما كنت تروح في مثلها .
— أما بلغك ما قال صاحبكم ؟

(غزوة أحد)

— ١٩٤ —

— أى صاحب يا رسول الله ؟
 — عبد الله بن أبي بن سلول .
 — وما قال ؟
 — زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل .
 — فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز .

وصمت أسيد بن حضير قليلا ثم قال :
 — يا رسول الله الرفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه ما بقيت عليهم إلا خرزة واحدة عند يوشع اليهودى ، فإنه ليرى أنك استلبته ملكا .

ثم سار رسول الله ﷺ — بالناس سيرا حثيثا وصار يضرب راحلته بالسوط أسفل بطنها ، وسار يومهم ذلك وليتهم وصدر ذلك اليوم الثانى حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض حتى وقعوا نياما ، وقد فعل — ﷺ — ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي بن سلول .

وغابت ناقة رسول الله ﷺ — القصواء من بين الإبل فجعل المسلمون يطلبونها من كل وجه وقد أرخى الليل سدوله ، فنظر زيد بن الصلت ، وكان منافقا إلى المسلمين وهم يخرجون فى طلب القصواء وقال وهو فى مجمع من الأنصار :

— أين يذهب هؤلاء فى كل وجه ؟
 — يطلبون ناقة رسول الله ﷺ — قد ضلت .
 — ألا يخبره الله بمكانها ؟ كيف يدعى أنه يعلم الغيب ولا يعلم مكان

— ١٩٥ —

ناقته ولا يخبره الذى يأتيه بالوحى ؟

فأنكر عليه القوم وقالوا :

— قاتلك الله يا عدو الله نافقت .

وأرادوا قتله فعمد هاربا إلى رسول الله ﷺ — متعوذا به ، فقال

رسول الله عليه السلام وذلك الرجل يسمع :

— إن رجلا من المنافقين شمت أن ضلت ناقة رسول الله ﷺ —

وقال : ألا يخبره الله بمكانها ؟ والله لقد أخبرني بمكانها ولا يعلم الغيب إلا الله وإنما في الشعب مقابلكم قد مست زمامها بشجرة فاعمدوا نحوها .

فأتوا بها من حيث قال — ﷺ — فقام ذلك الرجل سريعا إلى رفقاءه

فقالوا له حين دنا :

— لا تدن منافقا .

فقال لهم في دهش :

— أنشدكم الله هل أتى أحد منكم محمدا فأخبره خبرى ؟

— لا والله ولا قمنا من مجلسنا .

— إني وحدث ما تكلمت به عنده .

وأوقع — ﷺ — السباق بين الإبل فسابق بلال على ناقته

— ﷺ — القصواء فسبقت غيرها من الإبل . واستمر المسلمون

يضيئون في الأرض قاصدين المدينة وزيد بن أرقم يسترق النظر إلى عبد الله ابن أبى وهو حزين يتهل من أعماقه إلى الله أن يفضح ابن أبى كبير المنافقين وأن ينزل على رسوله ما يصدق حديثه .

دنا المسلمون من المدينة راجعين فنزل رسول الله ﷺ — والذين معه ليستريحوا قبل أن يدخلوا على أهلهم ، بعد غيبة ثمانى وعشرين ليلة ملأت قلوبهم شوقا إلى الأحبة .

وجاء الليل فأذن بالرحيل ، فقامت عائشة وذهبت لتقضى حاجة حتى تجاوزت الجيش ، فلما قضت شأنها أقبلت إلى رحلها فإذا عقد لها من جزع ظفار (خرز من بلدة ظفار باليمن) كان ثمنه يسيرا لا يساوى أكثر من اثنى عشر درهما قد انقطع ، فذهبت إلى التماسه فى المحل الذى قضت فيه حاجتها وحبسها التماسه .

وأقبل أبو مويهبة مولى رسول الله ، والرهط الذين كانوا يجعلون هودجها على الرحل فاحتملوا هودجها فرحلوه على بعيرها الذى كانت تركب وهم يحسبون أنها فيه ، ولم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه فقد كان النساء خفافا لقلة أكلهن ، وساروا حتى اختفت القافلة فى جوف الليل البهيم .

ووجدت عائشة عقدها فجاءت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، وأقامت بمنزلها الذى كانت فيه وظنت أنهم سيفتقدونها فيرجعون إليها ، فبينا هى جالسة فى منزلها غلبتها عينها فنامت .

وكان صفوان السلمى على ساقة الجيش يتخلف عن الجيش ليلتقط ما يسقط من متاع ، فسار ليلا حتى أصبح عند منزل عائشة فرأى سوادا

— ١٩٧ —

فأتاه ، فإذا عائشة أم المؤمنين نائمة فقال :

— إنا لله وإنا إليه راجعون ، أظعينة رسول الله ؟!

فاستيقظت عائشة باسترجاعه فخمزت (حجبت) وجهها
بجلابها ، ثم قرب البعير وقال :

— أمة قومي فاركبي .

إنه يحترمها ويجلها ويعظمها فهي أم المؤمنين وزوج رسول رب
العالمين ، وصمت ما يكلمها كلمة وأخذ برأس البعير وسار ليلحق
بركب المؤمنين .

وانتهى رسول الله ﷺ — إلى وادى العقيق فتقدم عبد الله بن
عبد الله بن أبي بن سلول وجعل يتصفح الركاب حتى مر أبوه فأناخ به
ثم وطئ على يد راحلته ، فقال أبوه :

— ماذا تريد يا لكع (١) ؟

— والله لا تدخل حتى تقرأ أنك الدليل وأن رسول الله ﷺ —
العزیز حتى يأذن لك رسول الله ، لتعلم أيكما الأعز من الأذل أنت أو
رسول الله ﷺ :

— أنت من بين الناس .

— نعم أنا من بين الناس . لعن لم تقرأ لله ولرسوله بالعزة لأضربن
عنقك .

— ويحك ! أفاعل أنت ؟

— نعم .

ولما رأى منه الجدد قال :

(١) الكع : اللئيم .

— أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .
ورأى زيد بن أرقم رسول الله ﷺ — تأخذه البرحاء^(١) ويعرق
جبينه وتثقل يدا راحلته ، فقال :
— إن رسول الله ﷺ — يوحى إليه :
وخفق قلب زيد ولفه انفعال شديد وهو يرجو أن ينزل الله تصديقه ،
فلما سرى عن رسول الله أخذ بأذنه وزيد على راحلته يرفعها إلى السماء ،
حتى ارتفع زيد عن مقعده ورسول الله عليه السلام يقول له :
— وعت أذنك يا غلام وصدق الله حديثك وكذب المنافقين .
وراح رسول الله يتلو ما أنزل إليه : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ إذا
جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله
يشهد إن المنافقين لكاذبون * اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم
ساء ما كانوا يعملون * ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم
لا يفقهون * وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم
خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله
أنى يؤفكون * وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوأرعوهم
ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون * سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر
لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين * هم الذين يقولون
لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله خزانة السماوات
والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون * يقولون لئن رجعنا إلى المدينة
ليخرجن الأعز منها الأذل والله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين
لا يعلمون * يأبى الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله

(١) البرحاء : شدة الحمى وغيرها .

ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون * وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين * ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خير بما تعملون ﴿١﴾ .

ونزلت سورة المنافقين وفيها تكذيب ابن أبي بن سلول فتهللت أسارير زيد بن أرقم وامتلأ نشوة بينا ظهر الأسى في وجوه أصحاب ابن أبي ، إنهم سألوه من قبل أن يذهب إلى رسول الله ﷺ — يعتذر إليه ويتمس الغفران قبل أن ينزل فيه قرآن ولكنه لوى رأسه وأبى . أما وقد نزل القرآن وفيه تكذيبه فإن الأمر أصبح لا يحتمل عنادا ولا استكبارا فانطلقوا إليه وقالوا :

— اذهب إلى رسول الله ﷺ — يستغفر لك .
فلوى رأسه ثم قال :

— أمرتموني أن أومن فأمنت ، وأمرتموني أن أعطي زكاة أموالى فأعطيت ، فما بقى إلا أن أسجد لحمد .

وساء عبد الله بن عبد الله بن أبي أن يصرح القرآن بنفاق أبيه . إنه غاضب على أبيه وحزين أن الله لم يطهر قلبه ، وكان جالسا إلى النبی ﷺ — فشرب رسول الله عليه السلام فقال له :

— بالله يا رسول الله أما أبقيت فضلا من شرايك أسقها أبى لعل الله

يطهر بها قلبه ؟

فأفضل له فأتاه بها ، فقال له أبوه عبد الله بن أبي :

— ما هذا ؟

— ٢٠٠ —

— هي فضلة من شراب النبي — ﷺ — جئتكم بها تشربها لعل الله يطهر قلبك بها .

— فهلا جئتني ببول أمك فإنه أطهر منها .

فغضب وجاء إلى النبي — ﷺ — وقال :

— يا رسول الله بالله أما أذنت لي في قتل أبي ؟

— بل ترفق به وتحسن إليه .

وصار قوم عبد الله بن أبي يعاتبونه ويعنفونه وقد امتلأت أفئدتهم ببغضه ، فقال — ﷺ — لعمر :

— كيف ترى يا عمر ؟ إني والله لو قتله يوم قلت لأرعدت له أنوف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته .

فقال عمر في اقتناع :

— قد والله علمت ، لأمر رسول الله — ﷺ — أعظم بركة من أمرى .

سار صفوان بن المعطل السلمى يقود بعائشة أم المؤمنين الراحلة طوال الليل حتى أتيا الجيش بعدما نزلوا وذلك في نحر الظهر وكان عبد الله بن أبي بن سلول ينزل مع جماعة من المنافقين مبتعدين من الناس فمرت عليهم فقال :

— من هذه ؟

— عائشة وصفوان .

— فاجر بها ورب الكعبة .

وفجر الناس أفواههم ، لن يصدقوا في يسر ما قال كبيرهم فعاد ابن أبي يقول :

— ما برئت منه وما برىء منها .

وقدم رسول الله ﷺ — المدينة هلال رمضان وما درت عائشة شيئا ولا سمع رسول الله ﷺ — بما بدأ يوسوس به غريمه للناس . ودخل عليه السلام مسجده وصلى لله ركعتين ثم دخل على ابنته فاطمة الزهراء ليظفيء شوقه إليها وليضم إليه أبناءها ، ثم راح يدور على أزواجه . واشتكت عائشة حين قدمت ، واستمر عبد الله بن أبي في غيه وجعل يوسع الأرض إشاعة ، فأخذ بعض الناس يتقولون ، وغدا مسطح بن أثانة الذي كان يعيش على ما يتصدق به أبو بكر عليه يخوض مع الخائضين في حديث الإفك . ورأت حمزة بنت جحش أن تزيد النار لهيبا لعل النبي عليه السلام يطلق عائشة فيخلو وجهه لأختها زينب .

وراحت امرأة أبي أيوب الأنصاري تحدث زوجها حديث الناس فقالت :

— يا أبا أيوب ألم تسمع بما تحدث الناس ؟

— وما يتحدثون ؟

فحدثته بقول أهل الإفك فقال :

— ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم .

وكان قد شاع في بني المصطلق ما كان من رسول الله ﷺ — ومن تزوجه من جويرية ، ومن المسلمين وإكرامهم لما كان بأيديهم من السبي ، فشد الحرث بن ضرار سيد بني المصطلق الرحال إلى المدينة ودخل على رسول الله ﷺ — وأعلن إسلامه ثم دخل بنو المصطلق في دين الله أفواجا .

وسر رسول الله ﷺ — بإسلام بني المصطلق ، ولكن سرعان

— ٢٠٢ —

ما نزل بقلبه حزن ثقیل فقد انتهى حديث الإفك إليه وإلى أبى بكر وأم رومان ، فأما أبو بكر وأم رومان فقد حزنا حتى الموت فقلباهما يحترقان ولا يحرکان لسانهما بكلمة ينتظران فى قلق رحمة الله ، ولا يذكران لعائشة شيئا فهي تشتكى شكوى شديدة وإن ألم نفسيهما الذى يعانيانه لأشد من ألمها وأوجع .

ودخل أبو أيوب الأنصارى على زوجه وهو فى ضيق من حديث الإفك وقال فى حزن عميق :
— ألا ترين ما يقال ؟
فقلت أم أيوب :

— لو كنت بدل صفوان أكنت تهم بسوء لمحرم رسول الله ﷺ —
— لا .

— ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله ﷺ — فعائشة خير منى وصفوان خير منك .

وآذى رسول الله ﷺ — ما بلغه ومال إلى ألا يصدق حديث السوء فهو لا يعلم عن عائشة إلا خيرا ، ولكن ما بال الناس يتقولون عليها ؟ ودخل يعودها فلم يستطع أن يدارى ما به فلم يلاطفها كما اعتاد أن يفعل كلما وعكت ، فأنكرت عائشة منه ذلك وخطر لها أن جويرية قد شغلته عنها ، وخرج النبى ولم يمكث طويلا فانطلق إلى زينب بنت جحش وهى التى كانت تسامها من أزواج النبى فقال :
— ماذا علمت أو رأيت ؟

كانت زينب من خير الناس تقى فقلت :

— ٢٠٣ —

— يا رسول الله أحمى سمعى وبصرى والله ما علمت إلا خيرا .
وحز الحزن فى نفس الرسول عليه السلام . إنه عزيز عليه أن يتقبل
الناس على عائشة الأثيرة عنده . وكان يقلقه أنه لا يملك أن يتهمها
أو يبرئها ، فدخل عليها ذات يوم وأمها تمرضها فقال :

— كيف تيكم ؟

ولم يزد على ذلك فأحست عائشة فى صوته عدم اللطف الذى كانت
ترى منه حين تشتكى ، فوجدت فى نفسها وعزمت على أن تترك له الدار
فقالت :

— يا رسول الله لو أذنت لى فانتقلت إلى أمى فمرضتنى ؟

— لا عليك .

— وانتقلت عائشة إلى دار أمها لا تعلم شيئا ، وأحست فى نفسها
موجدة على الرسول — ﷺ — فقد ولى لطفه وقد ظنت أنه تخلى عنها فى
مرضها . واستمر الناس يخوضون فى حديث الإلفك فضاق به صدر النبى
فقام فى الناس يخطبهم :

— أيها الناس ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق ؟
والله ما علمت منهم إلا خيرا ، ويقولون ذلك لرجل ما علمت منه
إلا خيرا ، وما دخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى ؟

فقال سعد بن معاذ :

— إن يكونوا من الأوس نكفيكم وإن يكونوا من إخواننا الخزرج
فمرنا بأمرك ، فوالله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم .

فقام سعد بن عبادة وقال :

— كذبت لعمر الله لا تضرب أعناقهم ، أما والله ما قلت هذه المقالة

إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو أنهم من قومك ما قلت هذا .
— كذبت لعمر الله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين .

وتتاور الناس حتى كاد أن يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج
شر ، فانشرح صدر عبد الله بن أبي بن سلول فقد أيقظ الفتنة التي نامت
بالإسلام وابتدأ معول الهدم يدك دولة ابن عبد الله . ولكن محمدا
— عليه السلام — أحمد الفتنة قبل أن يندلع لهيبها ، فكاد ابن أبي يموت بغيبه .

وهجا حسان بن ثابت صفوان بن المعطل فذهب صفوان إليه
واعترضه وضربه بالسيف ، فوثب ثابت بن قيس بن الشماس على
صفوان حين ضرب حسان فجمع يديه إلى عنقه بجبل ثم انطلق به إلى دار
بنى الحارث بن الخزرج ، فلقيه عبد الله بن رواحة فقال :

— ما هذا ؟

— أما أعجبك ضرب حسان بالسيف ؟ والله ما أراه إلا قد قتله .
قال له عبد الله بن رواحة :

— هل علم رسول الله — عليه السلام — بشيء مما صنعت ؟
— لا والله .

— لقد اجترأت ! أطلق الرجل .

فأطلقه . ثم جاءوا إلى رسول الله — عليه السلام — فقال حسان :

— يا رسول الله شهر على السيف في نادى قومي ثم ضربني ولا أراى
إلا ميتا من جراحى .

فقال — عليه السلام — لصفوان :

— ولم ضربته وحملت السلاح عليه ؟

وأظهر التغيظ على صفوان بسبب إظهاره السلاح على حسان وضربه

— ٢٠٥ —

به ، فقال صفوان :

— يا رسول الله ﷺ آذاني وهجاني فاحتملني الغضب فضربتني .

وقال عليه السلام لقوم حسان :

— احبسوا صفوان فإن مات حسان فاقتلوه .

فحبسوه ، فبلغ ذلك سيد الخزرج سعد بن عباد فاقبل على قومه

ولامهم على حبسه فقالوا :

— أمرنا رسول الله ﷺ بحبسه وقال لنا : إن مات صاحبكم فاقتلوه .

— والله إن أحب الأمر إلى رسول الله ﷺ — العفو عنه ، ولكن

رسول الله ﷺ — قضى بالحق ، والله لا أبرح حتى يطلق .

فاستحى القوم وأطلقوه ، وأخذ سعد وانطلق به إلى منزله وكساه

حلة وجاء به إلى المسجد ، فلما رآه — ﷺ — قال :

— صفوان ؟

— نعم يا رسول الله .

— من كساه ؟

— سعد بن عباد .

— كساه الله من ثياب الجنة .

ثم إن رسول الله ﷺ — كلم حسان في العفو عن صفوان فقال

له :

— يا حسان أحسن فيما أصابك .

— كل حق لي قبل صفوان فهو لك .

— قد أحسنت وقبلت ذلك منك .

ونقته عائشة وخرجت في الليل مع أم مسطح قبل الناصع وكان

— ٢٠٦ —

متبرزهم ، فلما فرغتا من شأنهما وأقبلتا قبل البيت عثرت أم مسطح في مرطها فقالت :

— تعس مسطح .

— بئس ما قلت . أتسيين رجلا شهد بدرا ؟

— يا هتاه (يا هذه) أولم تسمعى ما قال ؟

— وما قال ؟

فأخبرتها بقول أهل الإفك فازدادت مرضا على مرضها وقالت وهى يكاد يغشى عليها :

— وقد كان هذا ؟

— نعم .

فأخذتها حمى نافضة ورجعت إلى البيت فمكثت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع ولا اكتحل بنوم ، ثم أصبحت تبكى ما زالت تبكى حتى ظنت أن البكاء سيصدع كبدها . وأقبلت أمها فقالت لها والدموع تملأ عينها :

— يغفر الله لك . تحدث الناس بما تحدثوا به وبلغك ما بلغك ولا تذكرين لى من ذلك شيئا .

— أى بنية خفضى الشأن ، فوالله قل ما كانت امرأة وضيفة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرت وكثر الناس عليها .

ودعا رسول الله — ﷺ — على بن أبى طالب وأسامة بن زيد يسألهما ويستشيرهما فى فراق أهله ، فقال أسامة :

— يا رسول الله أهلك ولا نعلم عليهن إلا خيرا ، وهذا الكذب والباطل .

وقال على :

— يا رسول الله إن النساء لكثير وإنك لقادر على أن تستخلف . وسل الجارية فإنها تصدقك .

ودعا رسول الله بريرة جارية عائشة يسألها :

— أى بريرة ، هل رأيت من شئ يريك ؟
— لا .

فقام إليها على فضر بها ضربا شديدا وهو يقول :
— أصدق رسول الله .

فالتفتت إلى رسول الله وقالت :

— والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرا قط أغمطه^(١) . غير أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأقى الدواجن فتأكله .
ورأت عائشة فى منامها فتى فقال لها :
— ما لك ؟

— حزينة مما ذكر الناس .

— ادعى بهذه يفرج الله عنك .

— وما هى ؟

— قولى : يا سابغ النعم ، ويا دافع النقم ، ويا فارج الغمم ، ويا كاشف الظلم ، ويا أعدل من حكم ، ويا حسيب من ظلم ، ويا أول بلا بداية ، ويا آخر بلا نهاية ، اجعل لى من أمرى فرجا ومخرجا .

وفى سكون الليل راحت عائشة تبتهل إلى الله أن يرئها مما نسب إليها ظلما ، وأصبح الصباح وعائشة تبكى وأبو بكر وأم رومان جالسان والألم

(١) أغمطه : لا أشكره .

الشديد يرتسم على وجهيهما ، فاستأذنت امرأة من الأنصار في الدخول فأذن لها ، فجلست مع عائشة تسح الدموع . وبينما هم على ذلك دخل رسول الله ﷺ — فسلم ثم جلس ، ولم يجلس عند عائشة قبلها منذ قيل ما قيل ، وقال حين جلس :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، أما بعد يا عائشة إنه قد كان ما بلغك من قول الناس ، فإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب تاب الله عليه .

فلما قضى رسول الله ﷺ — مقالته قلص دمعها حتى ما تحس منه بقطرة ، فقالت لأبيها :

— أجب رسول الله ﷺ — فيما قال .
— فوالله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ — .
فقالت لأُمها :

— أجيبي رسول الله .
— والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ — .
فقالت عائشة في ضيق :

— لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في نفوسكم ، فلئن قلت لكم إنى بريئة والله يعلم أنى بريئة لا تصدقوني بذلك . ولئن اعترفت لكم بأمر يعلم الله أنى منه بريئة لتصدقني . والله لا أجد لى ولكم مثلاً إلا قول أبى يوسف إذ يقول : ﴿ فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ﴾ (١) .
ثم تحولت واضطجعت على فراشها وما كانت تظن أن الله ينزل في شأنها قرآناً يقرأ به في المسجد ويصلى به ، ولشأنها في نفسها كان أحقر من

— ٢٠٩ —

أن يتكلم الله فيها بأمر يتلى . وكانت ترجو أن يرى رسول الله — ﷺ —
رؤيا في النوم يبرئها الله بها .
وقال أبو بكر في أسي :

— ما أعلم أهل بيت من العرب دخل عليهم ما دخل عليّ . والله ما قيل
لنا هذا في الجاهلية حيث لا يعبد الله فيقال لنا في الإسلام .
وأقبل على عائشة مغضبا ، فأخذ رسول الله — ﷺ — ما كان
يأخذه عند نزول الوحي فغطى بثوبه فوضعت له وسادة من آدم تحت
رأسه ، فأما عائشة حين رأت من ذلك ما رأت فوالله ما فزعت فإنها قد
عرفت أنها بريئة وأن الله غير ظالمها ، وأما أبوها ما سرى عن رسول الله
حتى أحسالتخرجن أنفسهما فرقا من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس .
فلما سرى عن رسول الله — ﷺ — سرى عنه وهو يضحك وإنه
ليتحدر منه العرق كالجمان^(١) وكان اليوم شاتيا فجعل يمسح العرق عن
وجهه ، فكان أول كلمة تكلم بها :

— أبشرى يا عائشة فقد أنزل الله تعالى براءتك .

فقالت عائشة :

— نحمد الله لا نحمد أحدا .

وقام إليها أبو بكر فقبل رأسها فقالت :

— هلا كنت عذرتني ؟

— أى بنية ، أى سماء تظلنى وأى أرض تقلنى إن قلت بما لا أعلم ؟

وقالت أم رومان لابنتها :

— قومى إليه .

(١) الجممان : اللؤلؤ .

— ٢١٠ —

— والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله .

وتناول رسول الله — ﷺ — درعها فدفعت يده عن درعها ، فأخذ أبو بكر النعل ليعلوها بها فمنعته ، فضحك رسول الله — ﷺ — وقال له :

— أقسمت عليك لا تفعل .

وخرج رسول الله — ﷺ — إلى الناس وخطبهم وتلا عليهم : ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ ﴾ (١) منكم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم * لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين * لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون * ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم * إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم * ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم * يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين * ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم * إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم * يأيتها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم ﴿ (١) .

وأمر — ﷺ — بجلد أصحاب الإفك فجلد عبد الله بن أبي بن سلول
سيد الخزرج وكبير المنافقين ثمانين جلدة بعد أن كاد القوم أن يملكوه عليهم
يوم أن أكرمهم الله بنبيه ، فقد هان عبد الله بعد أن فضحه الله مرتين ،
كذبه يوم أنكر أنه قال ليخرجن الأعز منها الأذل ، وكشف نفاقه وكذبه
وحقده الدفين على رسول الله — ﷺ — لما نزلت براءة عائشة الصديقة
المبرأة المطهرة من فوق سبع سموات .

ونفى حسان بن ثابت ما نسب إليه من تقول في عائشة أم المؤمنين ،
وقال أبياتا يمدح بها السيدة عائشة :

حصان رزان ما تُزن بريئة

وتصبح غرثي^(١) في لحوم الغوافل

فإن كنت قد قلت الذي قد زعمتم

فلا رفعت سوطي إلى أنامل

وكيف وودي ما حييت ونصرتي

لآل رسول الله زين المحافل

له رتب عال على الناس كلهم

تقاصر عنه سورة^(٢) المتطاول

فإن الذي قد قيل ليس بلائط^(٣)

ولكنه قول امرئ^(٤) محال

وجلد مسطح بن أثاة الذي ينفق عليه أبو بكر لقرابته وفقره ثمانين

(١) الغرثي : الجياع (٢) سورة : شدة .

(٣) ليس بلائط : ليس بحبيب (٤) محال : ماكر .

جلدة ، وجلدت حمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش أم المؤمنين وأخوها أبو أحمد الضرير ، وساء أبا بكر أن يكون مسطح الذى ينفق عليه من أفصح بالفاحشة فقال :

— والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد الذى قال لعائشة ما قال .
فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ (١) .

فقال أبو بكر :

— بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لى .

فرجع إلى مسطح النفقة التى ينفق عليه وقال :

— والله لا أنزعها منذ أبدا .

وكان أبو طلحة أكثر أنصارى بالمدينة مالا ، وكان أحب أمواله إليه بيرحا وهى حديقة كانت مستقبله المسجد وكان رسول الله يدخلها ويستظل بها ويشرب من ماء فيها طيب ، فلما نزلت آية : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ (٢) . قام أبو طلحة إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله إن الله يقول فى كتابه : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ . وإن أحب أموالى إلى بيرحا ، وأنه صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله تعالى ، فضعها يا رسول الله حيث شئت .

— بخ بخ ! ذلك مال رابع ، ذلك مال رابع . وقد سمعت ما قلت فيها ، قد قبلناها منك ورددنا عليك ، وأرى أن تجعلها فى الأقربين .

— أفعل يا رسول الله .

كان حسان بن ثابت يجتمع مع أبى طلحة في الجلد الثالث وكان من فقراء أقاربه ، وكان حسان قد قال لرسول الله ﷺ — لما كلمه في العفو عن صفوان : كل حق لى قبل صفوان فهو لك ، فأراد رسول الله عليه السلام أن يكافئه على ذلك فأعطاه بيرحا بما عفا عن حقه . وكانت مشادة قد ثارت بين سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عباد سيد الخزرج لما خطب عليه السلام الناس وقال : « أيها الناس ، ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ؟ » حتى كادت الحرب أن تنشب بين الحيين لولا حكمة رسول الله عليه السلام . وأراد ﷺ — أن يغسل النفوس مما قد يكون علق بها ، فإنه مكث أياما ثم أخذ بيد سعد بن معاذ فى نفر حتى دخل على سعد بن عباد فتحدثوا ساعة ، وقرب لهم سعد بن عباد طعاما فأصابوا منه ثم انصرفوا ، فمكث أياما ثم أخذ بيد سعد بن عباد فى نفر فانطلقوا حتى دخلوا منزل سعد بن معاذ فتحدثوا ساعة وقرب لهم سعد ابن معاذ طعاما فأصابوا منه ثم خرجوا ، فذهب من أنفسهم ما كان ﴿ وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ﴾ (١) .

٢١

زين الله تعالى رسوله بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق ، فكان يقول
في دعائه :

— اللهم جنبني منكرات الأخلاق :
وقد أدب بالقرآن وأدب الخلق به وكان يقول :
— بعثت لأتمم مكارم الأخلاق .

وكان يوصي أصحابه باتقاء الله ، وصدق الحديث ، والوفاء بالعهد ،
وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، وحفظ الجار ، ورحمة اليتيم ، ولين
الكلام ، وبذل السلام ، وحسن العمل ، وقصر الأمل ، ولزوم الإيمان ،
وحب الآخرة ، والجزع من الحساب ، وخفض الجناح ، ونباهم أن
يسبوا حكيما ، ويكذبوا صادقا ، أو يطيعوا آثما ، أو يعصوا إماما عادلا ،
أو يفسدوا أرضا . وكان أحلم الناس وأشجع الناس وأعدل الناس وأعف
الناس ، لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون
ذات محرم منه .

وكان أسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم ، وإن فضل شيء
ولم يجد من يعطيه وفجأه الليل لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج
إليه ، لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامة فقط من أيسر ما يجد من التمر
والشعير ، ويضع سائر ذلك في سبيل الله .

لا يُسأل شيئا إلا أعطاه ثم يعود على قوت عامة فيؤثر منه حتى إنه ربما

احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأتته شيء . وكان يخصف نعله ويرقع ثوبه ويخدم في مهنة أهله ويقطع اللحم معهم .

وكان أشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه أحد ، ويجيب دعوة العبد والحر ، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب ويكافي عليها ويأكلها ، ولا يأكل الصدقة ولا يستكبر عن إجابة الأئمة والمسكين ، يغضب لربه ولا يغضب لنفسه ، وينفذ الحق وإن عاد ذلك عليه بالضرر أو على أصحابه ، عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين وهو في قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيده في عدد من معه ، فأبى وقال :
— أنا لا أنتصر بمشرك .

يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد ولا يتورع عن مطعم حلال ، وإن وجد تمرا دون خبز أكله ، وإن وجد شواء أكله ، وإن وجد خبز بر أو شعير أكله ، وإن وجد حلوا أو عسلا أكله ، وإن وجد لبنا دون خبز اكتفى به ، وإن وجد بطيخا أو رطبيا أكله .

لا يأكل متكما ولا على خوان ، لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متتالية إشارا على نفسه لا فقرا ولا بخلا . يجيب الوليمة ويعود المرضى ويشهد الجنائز ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس ، أشد الناس تواضعا وأسكنهم في غير كبر وأبلغهم في غير تطويل ، دائم البشر سهل الخلق ، ما أعجبه شيء من الدنيا وما أعجبه أحد قط إلا ذو تقى .

يلبس ما وجد مرة شملة ومرة برد حبرة يمانيا ومرة جبة صوف ، ما وجد من المباح لبس . وخاتمه فضة يلبسه في خنصره الأيمن والأيسر ، يردف خلفه عبده أو غيره ، يركب ما أمكنه مرة فرسا ومرة بعيرا ومرة بغلة شهباء ومرة حمارا ومرة يمشي راجلا يعود المرضى في أقصى المدينة .

يحب الطيب ويكره الرائحة الرديئة ، ويجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم ويتألف أهل الشرف بالبر لهم ، يصل ذوى رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم . لا يجفو على أحد ، يقبل معذرة المعتذر إليه ، يمزح ولا يقول إلا حقا ، يضحك من غير قهقهة ، يرى اللعب المباح فلا ينكره ، يسابق أهله ، وترفع الأصوات عليه فيصبر ، وكان له لقاح^(١) وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها .

ما شتم أحدا من المؤمنين شتيمة إلا جعل لها كفارة ورحمة ، وما لعن امرأة قط ولا خادما بلعنة ، وقيل له في القتال :

— لو لعنتهم يا رسول الله !

فقال :

— إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعنا .

وكان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له . وما ضرب بيده أحدا قط إلا أن يضرب بها في سبيل الله تعالى ؛ وما انتقم من شيء صنع إليه قط إلا أن تنتهك حرمة الله ؛ وما خير بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس من ذلك ؛ وما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته .

وما عاب مضجعا إن فرشوا له اضطجع وإن لم يفرش له اضطجع على الأرض ، لا فظ ولا غليظ القلب ولا صخاب في الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح . يبدأ من لقيه بالسلام ، وما أخذ أحد

(١) لقاح : إبل .

بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر ، وكان إذالقى أحدا من أصحابه بدأه بالمصافحة ثم أخذ بيده فشابهه ثم شد قبضته عليها .

وكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله ، وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وأقبل عليه فقال :

— ألك حاجة ؟

فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته ؛ وكان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعا ويمسك يديه عليهما شبه الحبة ، ولم يكن يعرف مجلسه عن مجلس أصحابه لأنه حيث انتهى به المجلس يجلس ؛ وما رأى قط مادارجليه بين أصحابه حتى لا يضيق بهما على أحد إلا أن يكون المكان واسعا لا ضيق فيه ، وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة ، وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليست بينه وبينه قرابة ولا رضاع يجلسه عليه .

وكان يؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تحته ، فإن أرى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل . وما استصفاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه حتى يعطى كل من جلس إليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف محاسنه وتوجهه للجالس إليه ، ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانة ، قال الله تعالى : ﴿ فيها رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ (١) .

وكان يدعو أصحابه بكنائهم إكراما لهم واستمالة لقلوبهم ، ويكنى من لم تكن له كنية فكان يدعى بما كناه به . ويكنى أيضا النساء اللاتي هن

الأولاد ، واللاقى لم يلدن يتدىءهن الكنى ، ويكنى الصبيان فيستلين به قلوبهم .

وكان أبعد الناس غضبا وأسرعهم رضا ، وكان أرأف الناس بالناس وخير الناس للناس وأنفع الناس للناس ، لم تكن ترفع في مجلسه الأصوات ، وكان إذا قام من مجلسه قال :

— سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد ألا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

وكان جهير الصوت أحسن الناس نغمة ، وكان طويل السكوت ولا يتكلم في غير حاجة ، ولا يقول المنكر ، ولا يقول في الرضا والغضب إلا الحق ، ويعرض عن تكلم بغير جميل ، ويكنى عما اضطره الكلام إليه مما يكره ، قال لامرأة رفاعة :

— حتى تذوقى عُسيلته ويزوقى عُسيلتك .

وكان إذا سكت تكلم جلساؤه ولا يتنازع عنده في الحديث ، ويعظ بالجد والنصيحة ويقول :

— إن القرآن يصدق بعضه بعضا فلا تكذبوا بعصه ببعض .

وكان أكثر الناس تبسما وضحكا في وجوه أصحابه وتعجبا مما تحدثوا به وخلطا لنفسه بهم ، ولربما ضحك حتى تبدو نواجذه وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء به وتوقيرا له . جاء أعرأى يوما وهو عليه السلام متغير اللون ينكره أصحابه ، فأراد أن يسأله فقالوا :

— لا تفعل يا أعرأى ، فإننا ننكر لونه .

— دعونى فوالذى بعثه بالحق نبيا لا أدعه حتى يتبسم .

فقال :

— ٢١٩ —

— يا رسول الله بلغنا أن الدجال يأتي الناس بالثريد وقد هلكوا جوعا ،
أفترى لي بأبي أنت وأمي أن أكف عن ثريده تعففا وتنزها حتى أهلك هزالا
أم أضرب في ثريده حتى إذا تضلعت شيعا آمنت بالله وكفرت به ؟
فضحك رسول الله ﷺ — حتى بدت نواجذه ثم قال :
— بل يغنيك الله بما يغني به المؤمنين .

وكان من أكثر الناس تبسما وأطيبهم نفسا ما لم ينزل عليه قرآن أو يذكر
الساعة أو يخطب بخطبة عظيمة . وكان إذا سرورضى فهو أحسن الناس
رضا ، فإن وعظ وعظ مجد وإن غضب وليس يغضب إلا الله لم يقم لغضبه
شيء ، وكذلك كان في أموره كلها ، وكان إذا نزل به الأمر فوض الأمر
إلى الله وتبرأ من الحول والقوة واستنزل الهدى فيقول :

— اللهم أرني الحق حقا فأتبعه ، وأرني المنكر منكرا وارزقني اجتنابه ،
وأعذني من أن يشبهه على فأتبع هواي بغير هدى منك ، واجعل هواي تبعا
لطاعتك ، وخذ رضا نفسك من نفسي في عافية واهدني لما اختلف فيه من
الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .

وكان إذا وضعت المائدة قال :

— بسم الله ، اللهم اجعلها نعمة مشكورة تصل بها نعمة الجنة .
وكان كثيرا إذا جلس يأكل يجمع بين ركبتيه وبين قدميه كما يجلس
المصلي ، إلا أن الركبة تكون فوق الركبة والقدم فوق القدم ، ويقول :
— أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد .
وكان لا يأكل الحار ويقول :

— إنه غير ذي بركة ، وإن الله لم يطعمنا نارا فأبردوه .

وجاء عثمان بن عفان بفالودج فأكل منه وقال :

— ٢٢٠ —

— ما هذا يا أبا عبد الله ؟

— بأني أنت وأمي نجعل السمن والعسل في البرمة ونضعها على النار ثم نغليه ، ثم نأخذ مخ الحنطة إذا طحنت فنقلبه على السمن والعسل في البرمة ، ثم نسوطه حتى ينضج فيأتى كما ترى .
— إن هذا الطعام طيب .

وكان يأكل خبز الشعير غير منخول ، وكان يأكل القثاء بالرطب والملح ، وكان أحب الفواكه الرطبة إليه البطيخ والعنب . وكان يأكل البطيخ بالخبز وبالسكر . وكان لا يأكل الثوم ولا البصل لأنه ينجس الناس . وما ذم طعاما قط لكن إن أعجبه أكله وإن كرهه تركه وإن عافه لم ييغضه إلى غيره .

وإذا فرغ من الطعام قال :

— الحمد لله ، اللهم لك الحمد أطعمت فأشبعت وسقيت فأرويت ، لك الحمد غير مكفور ولا مودوع ولا مستغنى عنه .
وأتى بإناء فيه عسل ولبن فأتى أن يشربه وقال :
— شربتان في شربة ، وإدامان في إناء واحد !
ثم قال :

— لا أحرمه ولكنى أكره الفخر والحساب بفضول الدنيا غدا ، وأحب التواضع فإن من تواضع لله رفعه .
وكان أشد حياء من العذراء في خدرها ، وكان لا يسأل أهل بيته طعاما ولا يتشبهاه عليهم ، إن أطعموه أكل وما أعطوه قيل وما سقوه شرب .
وكان ربما قام فأخذ ما يأكل بنفسه أو يشرب .
وكان يلبس من الثياب ما وجد من إزار أو رداء أو قميص أو جبة أو غير

ذلك ، وكان يعجبه الثياب الخضراء ، وكان أكثر لباسه البياض ويقول :
— ألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم .

وكان يلبس القباء المحشو للحرب وغير الحرب . وكان له قباء سندس
فيلبسه فتحسن خضرته على بياض لونه . وكانت ثيابه كلها مشمرة فوق
الكعبين ويكون الإزار فوق ذلك إلى نصف الساق . وكان قميصه
مشدود الأزرار وربما حل الأزرار في الصلاة وغيرها . وكانت له ملحفة
مصبوغة بالزعفران ، وربما صلى بالناس فيها وحدها ، وربما لبس الكساء
وحده ما عليه غيره .

وكان له كساء ملبد يلبسه ويقول :

— إنما أنا عبد أليس كما يلبس العبد .

وكان له ثوبان لجمعته خاصة سوى ثيابه في غير الجمعة ، وربما لبس
الإزار الواحد ليس عليه غيره ويعقد طرفيه بين كتفيه ، وربما أم به الناس في
الجنائز ، وربما صلى في بيته في الإزار الواحد ملتحفا به بخالفا بين طرفيه ،
ويكون ذلك الإزار الذي جامع فيه يومئذ .

وكان يلبس القلانس من تحت العمام وبغير عمامة ، وربما نزع
قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يديه ثم يصلى إليها ، وربما لم تكن
العمامة فيشد العصاة على رأسه وعلى جبهته .

وكانت له عمامة تسمى السحاب فوهبها من على ، وربما طلع على
فيقول — صلى الله عليه وسلم :

— أتاكم على في السحاب .

وكان إذا لبس ثوبا لبسه من قبل ميامنه ويقول :

— الحمد لله الذي كساني ما أوارى به عورتى وأتجمل به في الناس .

وإذا نزع ثوبه أخرجه من مياسره ، وكان إذا لبس جديدا أعطى خلق ثيابه مسكينا ثم يقول :

— ما من مسلم يكسو مسلما من سمل ثيابه لا يكسوه إلا الله ، إلا كان في ضمان الله وخرزه وخيره ما واره حيا وميتا .

وكان له فراش من آدم حشوه ليف طوله ذراعان أو نحوه وعرضه ذراع وشبر أو نحوه . وكانت له عباءة تفرش له حيثما تنقل ، ثننى طاقين تحته . وكان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره ، وكان من خلقه تسمية دوابه وسلاحه ومتاعه ، وكان اسم رايته العقاب ، واسم سيفه الذى يشهد به الحروب ذا الفقار . وكان له سيف يقال له المخدم^(١) وآخر يقال له الرسوب^(٢) وآخر يقال له القضيب ؛ وكانت قبضة سيفه محلاة بالفضة . وكان يلبس المنطقة من الأدم فيها ثلاث حلق من فضة . وكان اسم قوسه الكتوم وجعبته الكافور ، وكان اسم ناقته القصواء واسم بغلته الدلدل ، وكان اسم حماره يعفور واسم شاته التى يشرب لبنها عينة . وكان أحلم الناس وأرغبهم فى العفو مع القدرة ، جاء رجل ذات يوم وقام على رأس رسول الله ﷺ — بالسيف فقال :

— من يمنعك منى ؟

— الله .

فسقط السيف من يده ، فأخذ رسول الله ﷺ — السيف وقال :

(١) المخدم : المفيد النافع .

(٢) الرسوب : السيف يعيب فى الضريبة .

— ٢٢٣ —

— من يمنعك منى ؟
 — كن خير آخذ .
 — قل أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله .
 — لا . غير أنى لا أقاتلك ولا أكون معك ولا أكون مع قوم
 يقاتلونك .

فخلى سبيله ، فجاء أصحابه فقال :
 — جئكم من عند خير الناس .
 وقسم رسول الله ﷺ — قسمة . فقال رجل من الأنصار :
 — هذه قسمة ما أريد بها وجه الله .
 فذكر ذلك للنبي ﷺ — فاحمر وجهه وقال :
 — رحم الله أخى موسى ، لقد أودى بأكثر من هذا فصبر .
 وكان يقول — ﷺ :
 — لا يبلغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئا فإنى أحب أن أخرج
 إليكم وأنا سليم القلب .
 وكان رسول الله ﷺ — رقيق البشرة لطيف الظاهر والباطن ،
 يعرف فى وجهه غضبه ورضاه . وكان إذا اشتد وجده أكثر من مس لحيته
 الكريمة ، وكان لا يشافه أحدا بما يكرهه ؛ دخل عليه رجل وعليه صفرة
 فكرهها فلم يقل له شيئا حتى خرج فقال لبعض القوم :
 — لو قلت هذا أن يدع هذه ؟
 وجاءه أعراى يوما يطلب منه شيئا ، فأعطاه — ﷺ — ثم قال له :
 — أحسنت إليك ؟
 — لا ، ولا أجملت .

— ٢٢٤ —

فغضب المسلمون وقاموا إليه فأشار إليهم أن كفوا .
ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئا ثم قال :
— أحسنت إليك ؟
— نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا .
فقال له النبي — ﷺ :
— إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي شيء من ذلك ، فإن أحببت
فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك .
— نعم .
فلما كان الغد جاء فقال النبي — ﷺ :
— إن هذا الأعرابي قال ما قال فزدناه فزعم أنه رضى ، أكذاك ؟
فقال الأعرابي :
— نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا .
فقال — ﷺ :
— إن مثلى ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه
فاتبعها الناس فلم يزيدها إلا نفورا ، فناداهم صاحب الناقة : خلوا بيني
وبين ناقتي فإنى أرفق بها وأعلم . فتوجه لها صاحب الناقة بين يديها فأخذ
لها من قمام الأرض فردها هونا هونا حتى جاءت واستناخت وشد عليها
رحلها واستوى عليها . ولانى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه
دخل النار .
وكان أجود الناس كفا وأوسع الناس صدرا وأصدق الناس لهجة
وأوفاهم ذمة وألينهم عريكة وأكرمهم عشيرة ، من رآه بديهة هابه ومن
خالطه معرفة أحبه ، وما سئل من شيء قط على الإسلام إلا أعطاه . وإن

رجلا أتاه فسأله فأعطاه غنا سدت ما بين جبلين إلى قومه وقال :

— أسلموا ، فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة .

وما سئل شيئا قط فقال : لا . وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصر ثم قام إليها فقسمها فما رد سائلا حتى فرغ منها . وجاء رجل فسأله فقال :

— ما عندي شيء ولكن اتبع عليّ فإذا جاءنا شيء قضينا .

فقال عمر :

— يا رسول الله ما كلفك الله ما لا تقدر عليه .

فكره النبي ﷺ — ذلك ، فقال الرجل :

— أنفق ولا تخش من ذي العرش إقلالا .

— إنها كلمته — ﷺ — التي قالها لبلال ، فتبسم النبي عليه السلام

وعرف السرور في وجهه .

وكان أنجد الناس وأشجعهم ، قال على كرم الله وجهه :

— لقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ — وهو أقربنا إلى

العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا . وكنا إذا احمر البأس ولقي

القوم اتقينا برسول الله ﷺ — فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه .

وكان قليل الكلام قليل الحديث ، فإذا أمر الناس بالقتال تشمر ،

وكان من أشد الناس بأسا ، وكان الشجاع هو الذي يقرب منه في الحرب

لقربه من العدو ، وما لقي عليه السلام كتيبة إلا كان أول من يضرب .

وكان أشد الناس تواضعا لا يقوم له أصحابه لما عرفوا لكرهيته

لذلك ، وكان يمر على الصبيان فيسلم عليهم ؛ وأتى — ﷺ — برجل

فأرعد من هيئته فقال له :

— ٢٢٦ —

— هون عليك فلست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد .

وكان يجلس بين أصحابه مختلطا بهم كأنه أحدهم ، فيأتى الغريب فلا يدرى أيهم هو حتى يسأل عنه ، حتى طلبوا إليه أن يجلس مجلسا يعرفه الغريب ، فبنوا له دكانا من طين فكان يجلس عليه .
وكان لا يدعو أحدا من أصحابه وغيرهم إلا قال :
— لييك .

وكان إذا جلس مع الناس إن تكلموا في معنى الآخرة أخذ معهم ، وإن تحدثوا في طعام أو شراب تحدث معهم ، وإن تكلموا في الدنيا تحدث معهم رفقا بهم وتواضعا لهم . وكانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحيانا ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ويضحكون فيبتسم هو إذا ضحكوا ، ولا يجرهم إلا عن حرام .

كان الإنسان الكامل ، أسوة البشرية الحسنة ، خاتم الأنبياء ورسول رب العالمين .

٢٢

كان من أخلاق رسول الله ﷺ — أنه كان أسخى الناس ،
لا يبيت عنده دينار ولا درهم . وإن فضل ولم يجد من يعطيه ويأتيه الليل
لا يأوى إلى منزله حتى يبرأ منه .
وجاءه رجل فسأله فقال :
— ما عندى شيء .

فأمر بلال أن يذهب بالرجل ليستدين ويشترى له بردة فيكسوه
ويطعمه ، فانطلق بلال ومعه الرجل حتى إذا ما بلغ السوق لمح يهودى
كان يعرفه . فلما وقع بصره على الرجل فطن إلى رقة حاله وتيقن أن بلالا
ما قدم إلا ليكسوه ويطعمه ، فاعترض اليهودى بلالا وقال له :
— يا بلال إن عندى سعة فلا تستقرض من أحد إلا منى .

وصمت اليهودى قليلا ثم قال :

— أعندك ما ترهنه عندى ؟

— لو كان عندى شيء ما استقرضت .

— آخذك مقابل الدين إن امتنعت عن السداد .

كان استرقاق المدين المعسر أمرا معترفا به في القوانين الرومانية ، وكان
بلال يعتزم السداد فما دار بخلده أن يماطل أو يتهرب من المدين ، فقبل
الشرط ثم قال اليهودى :
— ومتى السداد ؟

— فى نهاية الشهر .

— إن عجزت عن السداد سأخذك مقابل الدين .

وقدم اليهودى المال أمام عصابة من التجار وانصرف بلال ليكسو الرجل ويطعمه .

وتهللت أسارير اليهودى فقد وقع مؤذن الرسول وخازنه فى الفخ الذى نصبه له ، وسيثأر ليهود بنى قينقاع وبنى النضير .

— إنه لا ينسى ذلك اليوم الذى جمع فيه محمد يهود بنى قينقاع بسوقهم ثم قال :

— يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النعمة ، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أى نبي مرسل تجدون ذلك فى كتابكم وعهد الله إليكم .

— يا محمد إنك ترى أنا قومك ! لا يفرنك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس .

وأريد وجه اليهودى وتقاصرت نفسه لما تردد على ذهنه ما كان من أمر محمد وأمر بنى قينقاع ، فقد حاصرهم ونزلوا على حكمه ورحلوا عن الديار . إنه منذ ذلك اليوم يرقب ساعة الانتقام ، ويا طامعاً تمنى أن ينال من محمد ولكنه عجز عن أن يصل إليه . فإن كان قد نجح فى اصطيداد بلال الحبشى فهو على يقين من أن وقوع بلال فى قبضته سيحزن محمداً ويحرق قلبه .

إن ما يزيد فى غيظه أن محمداً قرنههم بالكافرين فى قرآنه وإن المسلمين يتلون فى مساجدهم : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم

وبس المهاد * قد كان لكم آية في ففتين التقنا ففة تقاقل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثلهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴿١﴾ . وإنه لما يحرق كبده أن اليهود قد غلبوا كما غلبت قريش من قبل وأن ما جاء في قرآن محمد قد تحقق .

واحتلت الرؤى رأسه فأكفهر وجهه وتفصد منه العرق واستشعر كأن صديدا يسرى في عروقه ، كان يرى سيف على بن أبى طالب وهو يهوى على رقاب سادات بنى قريظة ، ورن في جوفه صوت حُيى بن أخطب وهو يقول :

— أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل .

فراح يتساءل في نفسه : أحقا ما وقع على يهود يثرب كان كتابا وقدرًا وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل ؟ وبدأت بذور الشك تنبت في وجدانه ، فراح يتململ ليطرد تلك الوسوسات التي كانت تهجس في عين ذاته .

وربا حنقه لما قرع ذاكرته ما حفظ من قرآن محمد : ﴿٢﴾ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيمهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا * وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطغوها وكان الله على كل شيء قديرا ﴿٢﴾ .

وتصرمت الأيام واليهودى يرصد الزمن ، واقترب الشهر من نهايته فإذا اليهودى مقبل في عصابة من التجار ، وما إن وقعت عيناه على بلال

(٢) الأحزاب : ٢٦ — ٢٧ .

(١) آل عمران ١٢ — ١٣

حتى قال :

- يا حبشى .
- يا لبيه .
- أتدرى كم بينك وبين الشهر ؟
- قريب .
- إنما بينك وبينه أربع ليال .
- وأطرق بلال وقال اليهودى :
- أتستطيع السداد الآن ؟
- لا .

— إن لم تسدد قبل نهاية الشهر فسأخذك بالذى لى عليك ، فأنى
لم أعطك الذى أعطيتك من كرامتك ولا من كرامة صاحبك وإنما
أعطيتك لتصير لى عبدا فأذكرك ترعى فى الغنم كما كنت قبل ذلك .
ووقع فى نفس بلال حزن ثقيل ، وانصرف اليهودى وعصابة التجار
وظل بلال ساهما وهمس فى جوفه هامس : « أكتب عليه أن يعود
عبدا ؟ ! » آه لو عاد عبدا لذلك اليهودى لفعل به الأفاعيل .
وخطر له أن يفزع إلى رسول الله ﷺ — إن نبى الله ليس عنده
ما يقضى عنه فهو أعلم الناس بما عنده فهو خازنه وهو المتصرف فى
أمواله . وتذكر بلال أنه لم يؤذن بعد فقام وأذن ، وصلى خلف الرسول
— صلوات الله وسلامه عليه — وهو حزين وقد بللت الدموع قلبه وإن
لم تترقق فى مقلتيه .

وقضيت الصلاة ورجع رسول الله ﷺ — إلى أهله وبلال غارق
فى أفكاره ، وضايقه أنه استسلم لياسه فانطلق إلى دار النبى والوجود كله

يرجع : ﴿ قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون ﴾ (١) .
واستأذن في الدخول فأذن له فدخل ، وما إن وقعت عيناه على رسول
الله عليه السلام حتى قال :

— يا رسول الله بأبى أنت وأمى ، إن اليهودى الذى ذكرت لك أنى
كنت أستدين منه يطلب السداد أو أخذى بالذى على ، وليس عندك
ما تقضى عنى ولا عندى وهو فاضحى . فأذن لى أن آتى إلى بعض هؤلاء
الأحباء الذين قد أسلموا حتى يرزق الله رسوله ما يقضى عنى .

فأطرق الرسول ولم يأذن له ، فخرج بلال حزينا وانطلق إلى داره
وصور أيام رقه في مكة تأخذ عليه تفكيره فيتلوى من الألم . وجن الليل
فدخل لينام ليفر من أحزانه فنام مستقبلا بوجهه الأفق ، فقد اعتاد أن
يرعى النجوم ليؤذن بالفجر ، وما استطاع حتى فى أحلك أيامه أن يفض
الطرف عن السماء .

وجعل سيفه وقرابه ورمحه ونعله عند رأسه ، وغفا قليلا ثم هب
مذعورا فرأى عليه ليلا فنام . وما إن استأنف نومه حتى انتبه ، وظل على
هذه الحال طوال الليل حتى انفلق عمود الصبح الأول فأراد أن ينطلق ،
فإذا بصوت يشق السكون المخيم على المكان :

— يا بلال .. يا بلال .. أجب رسول الله .

فانطلق بلال حتى دخل على النبى — ﷺ — فقال له عليه السلام :

— أبشر فقد جاءك الله بقضاء دينك .

— الحمد لله .

— ألم تمر على الركائب المناخات الأربع ؟

— بلى .

— فإن لك رقابهن وما عليهن فاقبضهن إليك ثم اقض دينك .
 وجرى بلال إلى الركائب ودموع الفرح تسيل على خديه وتبل لحيته
 فإذا عليهن كسوة وطعام أهداهن إلى الرسول عظيم من العظماء ، فحط
 بلال عنهن أحماهن ثم علفهن وهو يكاد يطير من الفرح ، ثم عمد إلى تأذين
 صلاة الصبح . ولما قضيت الصلاة خرج إلى البقيع فجعل أصبعه في أذنه
 وصاح :

— من كان يطلب من رسول الله ديناً فليحضر .
 وأخذ بلال يعرض ويبيع ويقضى ، وأقبل اليهودى فقال له بلال :
 — خذ دينك ولن أستقرض منك أبداً .

ومكر اليهودى ومكر الله ومكر الله خير الماكرين ، وعاد اليهودى يصصر على
 أنيابه ويجر أذيال الخيبة ، واستمر بلال يبيع مما رزقه الله حتى لم يبق على
 رسول الله دين فى الأرض . وبقي مع بلال أوقيتان من ذهب فانطلق إلى
 المسجد وقد ذهب عامة النهار ، فإذا رسول الله فى المسجد قاعد وحده ،
 فلما رأى بلالاً قال :

— ما فعل ما قبلك ؟

— قد قضى الله كل شئ كان على رسول الله فلم يبق شئ .

— فضل شئ ؟

— نعم أوقيتان .

— انظر أن تريحنى منهما ، فلست بداخل على أحد من أهلى حتى
 تريحنى منهما .

فانتظر فى المسجد أن يأتىها محتاج ولكن لم يأتها أحد ، فبات الرسول

— ٢٣٣ —

في المسجد حتى أصبح الصبح ، وظل في المسجد طول اليوم التالى ينتظر حضور محتاج ليكسوه ويطعمه بما عنده ليستريح منه ولكيلا يكون كائنا للذهب .

وجاء آخر النهار وجاء إلى المسجد راكبان محتاجان ، فأمر النبي بلالا أن ينطلق بهما ويكسوهما ويطعمهما بما عنده . ولما صلى النبي العتمة دعا بلالا وقال له :

— ما فعل الذى قبلك ؟

— قد أراحك الله منه .

— الحمد لله .

٢٣

كان أبو سفيان بن حرب وابنه معاوية والحكم وابنه مروان وحكيم بن حزام وخويطب بن عبد العزى العامري وسادات قريش جالسين في الحجر ، وكان الناس يطوفون بالبيت . وبينما كان أشراف قريش يتجاذبون أطراف الحديث إذ جاء من المدينة رجل راح يقص عليهم أنباء المسلمين وكيف أصبحت كلمة محمد بن عبد الله هي العليا بعد أن أجلى بنى النضير وقتل المسلمون ابن الأشرف .

وراح الرجل يروى شعر كعب بن مالك في إجلاء بنى النضير وقتل كعب بن الأشرف ورد سَمَّاكَ اليهودى عليه :

أرقت وضائقى هم كبير بليـل غيره ليـل قصير
أرى الأحبار تنكره جميعا وكلهم له علم خبير
وكانوا الدارسين لكل علم به التوراة تفتطن والزبور
قتلتم سيد الأحبار كعبا وقَدِّمَّا كان يأمن من يجير
واستمر الرجل ينشد شعر ابن مرداس في امتداح رجال بنى النضير
وشعر خوات في الرد على ابن مرداس ، وإذا بحكيم بن حزام يشرد ويتذكر
ما كان من فراره يوم بدر ، إنه نجا من الموت ولو كان قد قتل في ذلك اليوم
لقام شعراء قريش بنعيه ولرد عليهم حسان بن ثابت وابن رواحة وشعراء
المسلمين .

وأحس حكيم بن حزام برودة تسرى في بدنه ، فسهم واحد من

السهم التي صوبت إليه وطاشت لو استقر في قلبه لكان اليوم ذكرى .
وراح يختلس النظر إلى أبي سفيان فألفاه قد ألقى إلى الرجل سمعه وقد لاح
في وجهه الاهتمام ، ولا غرو فأبو سفيان يطمع في أن يكون سيد العرب
ولا يقف في سبيل تحقيق أمنيته إلا قيام ابن عبد الله بدعوته التي تتفاقم على
مر الأيام .

وقرعت ذهن حكيم ذكريات عمته خديجة بنت خويلد الطاهرة
وسيدة نساء قريش ؛ إنما كانت فاضلة راجحة العقل وإن إيمانها بدعوة
زوجها وتصديقه لشيء يحيره . إنه على يقين أن محمداً كان على خلق عظيم
لم يشك طرفه عين في أمانته ولم ينكر عليه إلا دعوته ، فما كان يستطيع أن
يصدق أن بشرا يتلقى الوحي من السماء !

وشرد حويطب بن عبد العزى وغدا يفكر في آلهة قريش ، إنه ليجدها
كما يقول محمد بن عبد الله أصناما لا تملك نفعا ولا ضرا . وسرى إلى
ضميره همس رقيق انبعث من أغواره : ﴿ والذين يدعون من دون الله
لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ﴾ أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون *
إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم
مستكبرون * لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب
المستكبرين * وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين * ليحملوا
أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء
ما يزرون ﴾ (١) .

وغشيت رقة وأحس مولد نور في فؤاده ، وتذكر النضر بن الحارث
وسخريته من محمد بن عبد الله وما حاق به من القتل فذرته خوف . إن

— ٢٣٦ —

الأيام تمر وإنه ليخشى أن يحق به ما حاق بالمكذبين .
ونظر الحكم إلى وجه حويطب ففطن إلى ما يعتمل في صدره فقد هم
حويطب بالإسلام غير مرة ولكنه كان في كل مرة يثنيه عن غرضه ، وفطن
حويطب إلى أن الحكم يسترق إليه النظر فاستأذن وقام . وما ابتعد عن
القوم خطوات حتى لحق به الحكم وقال له :
— فيم تفكر ؟

— في الذهاب إلى المدينة لأعلن إسلامي .

فقال الحكم في غضب :

— تضع شرفك وتدع دين آبائك لدين محدث وتصير تابعا ؟
وتذكر حويطب ما لقي عثمان بن عفان من الحكم حين أسلم فأثر
السلامة ، وما كان من قریش أحد من كبارائها الذين بقوا على دين قومهم
أكره لما هو عليه منه ، فلقد شهد بدرا مع قومه ورأى عبدا فقال في نفسه :
— هذا رجل ممنوع .

وأراد أن يسلم ولكن الحكم عوقه ومنعه .

وراحت الأيام تمر وقریش تسلم رجلا رجلا وحويطب بن عبد العزى
يميل إلى الإسلام والحكم يثنيه عن عزمه وينهاه ويعوقه فيستسلم له ، إنه
يريد الإسلام ويأبى الله عز وجل إلا ما يريد .

٢٢

نزلت آية : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلَدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا * أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (١). فقال سعد بن عبادة سيد الأنصار :

— أهكذا نزلت يا رسول الله ؟

فقال — ﷺ :

— ألا تسمعون يا معشر الأنصار إلى ما يقول سيدكم ؟

— يا رسول الله إنه رجل غيور . والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرا وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا على أن يتزوجها من شدة غيرة .

فقال سعد :

— والله يا رسول الله إني لأعلم أنها حق وأنها من عند الله . ولكن قد تعجبت أن لو وجدت لكاعا قد تفخذها رجل لم يكن لي أن أهبه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء . والله إني لا آتى بهم حتى يقضى حاجته .

فما لبثوا إلا يسيرا حتى جاء هلال بن أمية عشيا فوجد عند أهله رجلا فرأى بعينه وسمع بأذنه فلم يهبه حتى أصبح وغدا على رسول الله ﷺ — فقال :

— ٢٣٨ —

— يا رسول الله إني جئت أهلي عشيا فوجدت عندها رجلا فرأيت بعيني وسمعت بأذني .

فكره رسول الله ﷺ — ما جاء به واشتد عليه ، فقال سعد بن عبادة :

— الآن يضرب رسول الله ﷺ — هلال بن أمية ويبطل شهادته في المسلمين .

وقال هلال :

— لو أن رجلا وجد مع امرأته رجلا فإن تكلم جلدتموه وإن قتل قتلتموه ، وإن سكت سكت على غيظ .

فقال — ﷺ :

— اللهم افتح .

وجعل يدعو حتى نزل عليه الوحي ، وكان إذا نزل عليه عرفوا ذلك في ترديد جلده ، فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحي ، فنزلت : ﴿ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهود إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين * والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين * ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين * والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين * ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله تواب حكيم ﴾ (١) .

فسرى عن رسول الله ﷺ — فقال :

— أبشر يا هلال فقد جعل الله لك فرجا ومخرجا .

فقال هلال :

— ٢٣٩ —

— قد كنت أرجو ذاك من ربي .
فجاء هو وامرأته إلى رسول الله — ﷺ — فتلاعنا ، فشهد الرجل
أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، ثم لعن الخامسة أن لعنة الله عليه إن
كان من الكاذبين ، فذهبت لتلتعن فقال رسول الله — ﷺ :
— مه .

فلعننت ، فلما أدبرت قال عليه السلام :
— لعلها أن تجيء به أسود جعدا .
فجاءت به أسود جعدا ليقام عليها حد الله .
وكان لعبد الله بن أبي كبير المنافقين ست جوار كان يكرههن على الزنا
ويأخذ أجورهن ، وهن معاذة ومسيكة وأميمة وعمرة وأروى وقتيلة ،
فجاءت إحداهن ذات يوم بدينار ، وجاءت أخرى بدونه ، فقال لهما :
— ارجعا فازنيا .
فقالتا :

— والله لا نفعل ، قد جاءنا الله بالإسلام وحرم الزنا .
فأتيا رسول الله — ﷺ — وشكنا إليه ، فأنزل الله تعالى :
﴿ وَلَا تَكْرِهُوا قِتْيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لَتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَمَنْ يَكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) .
كان القرآن ينزل بأحكام الله ، وكان رسول الله — ﷺ — في
المسجد يبين للناس الحلال والحرام بعد إجلاء بنى النضير ، وكان
المسلمون آمنين . ولكن سادات بنى النضير لم يسكتوا على ما نزل بهم من
تحقير فبيتوا العزم على أن يثأروا لما نالهم من ضيم ، فخرج سيدهم حُيي بن

— ٢٤٠ —

أخطب وعظيمهم سلام بن مشكم ورئيسهم كنانة بن أبي الحقيق هوذة ابن قيس وأبو عامر الفاسق إلى أن قدموا على قريش يدعونهم ويحرضونهم على حرب رسول الله — ﷺ — وقالوا :
— إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله .

فقال أبو سفيان :

— مرحبا وأهلا ، وأحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد .
وخرج من بطون قريش خمسون رجلا ، وتحالفوا وقد ألصقوا
أكبادهم بالكعبة متعلقين بأستارها ألا يخذل بعضهم بعضا ويكونون
كلهم يدا واحدة على محمد — ﷺ — ، وتحالفت قريش ويهود بنى
النضير على استئصال محمد والمسلمين ووطدوا النفس على أن يطفئوا نور
الله بأفواههم ، ويأتى الله إلا أن يعم نوره ولو كره الكافرون .

التذيل

حاول أعداء الإسلام في كل العصور أن يوجهوا إليه اتهامات باطلة مفرضة لينالوا منه ، ولو نظروا إلى تلك المزاغم نظرة منصفة لوجدوا أن ما عدوه من مثالب الإسلام إنما هو مفخرة لهذا الدين الحنيف ؛ فقد قالوا إن الإسلام جاء بتعدد الزوجات ، ولو تعمقوا المسألة قليلا لوجدوا أن الإسلام إنما جاء ليحد من حرية الرجال في اتخاذ ما يشتهون من النساء ، فقد كان للرجل أن يتخذ ما يشاء من الزوجات ما دام قادرا على الإنفاق عليهن ، وكان بلاط الملوك في كل العصور يهوج بمشاة الزوجات والمحظيات . وإذا ما عدنا إلى التوراة التي بين أيدينا وجدنا أن جميع الأنبياء قد تزوجوا أكثر من واحدة ، وأن سليمان قد اتخذ له ألف زوجة !

كان للرجال حرية مطلقة في أن يتزوجوا أى عدد من النساء قبل الإسلام ، وكان العرب في الجاهلية يرهنون زوجاتهم لقاء كأس خمر أو دين قمار ، وما كان لهم شأن قبل أن ينزل الله فيهن ما أنزل . وإن حديث عمر بن الخطاب لخير دليل على ما كانت عليه المرأة في جزيرة العرب قبل مبعث محمد — ﷺ — ، يقول عمر : « والله إنا كنا في الجاهلية ما نعد للنساء أمرا حتى أنزل الله تعالى فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم ... » فجاء الإسلام لينظم هذه الفوضى وليحد من هذه الحرية التي كانت تضع النساء في مصاف الأنعام . فحدد عدد الزوجات بأربع

(غزوة أحد)

وشرط العدل بينهن : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ ﴾ (١) . فكان الإنصاف يقتضى أن يقال إن الإسلام قد جاء ليحدد لا ليعدد ، ولكنها العداوة للإسلام ونبى الإسلام .

وقال خصوم الإسلام إنه أقر نظام الرق ، ولو أنصفوا لقالوا إنه شرع نظام العتق ليصبح الناس جميعا أحرارا ولتستقر في النفوس عقيدة المساواة بين جميع الناس أمام الله وأمام شريعة الله .

عرف الرق منذ فجر التاريخ وقد امتزج في كل العصور بنظام الثروة ونظام المعاملات ، ففي مصر الفرعونية كان الأرقاء ملكا للتاج أو المعبد وكانوا يتبعون الخزينة شأنهم في ذلك شأن الأرض أو الماشية . وكان موظفو بيت الخزينة يتجولون مرافقين ضابطا ومعه جنوده لكى يسجلوا في قوائمهم ويدمغوهم بخاتم إداراتهم . وكان الكتاب يعتبرون هؤلاء العبيد الأرقاء أشخاصا حقيرين لا « قلب لهم » أى لا « عقل عندهم » يجب أن يساقوا بالضرب كالأنعام .

وقد نظمت هذه الأبيات الشعرية عند العبيد الأرقاء في مصر القديمة :
إن الولد ينشأ (فقط) . .

لكى ينتزع من بين ذراعى أمه .
وعندما يبلغ مبلغ الرجال .

فإن عظامه تدق .

وكان أكثر هؤلاء العبيد الأرقاء أسرى حرب يؤخذون من الغنائم والأسلاب ويسلمون إلى الجهات التى تكون فى حاجة إليهم وينتقلون من إدارة إلى إدارة كما لو كانوا ثيرانا أو حميرا . وكان يصيبهم نفس ما يصيب

الماشية والحمير أحيانا عندما تتبادلهم أيدي الموظفين المختلفين إذ كانوا يختلفون ولا يتركون أثرا .

وقام اقتصاد بابل وآشور على اكتاف الأرقاء أسرى الحروب ، فكانوا يقومون بفلاحة الأرض ويخرجون إلى الأسواق . وكان للسادة أن يبيعوا عبيدهم ولهم أن يؤدبهم أو يقتلوهم إذا ما بدر منهم ما يغضب ساداتهم فما كان لهم حقوق .

وكان أسرى الحرب يقتلون في أول الأمر ، ثم تطورت الأفكار في عهد الرومان واليونان إلى استرقاقهم عوضا عن قتلهم للانتفاع بهم ، وكانوا غالبا يكلفون بأشق الأعمال ولا يحسن إليهم في مأكلهم وملبسهم ، وكان كل ما يكسبون ملك ساداتهم فما كانت لهم حرية مدنية تؤهلهم لعقد العقود وتحمل الالتزامات وتملك العقار والمنقول والتصرف فيما يملكون .

وجاءت اليهودية وكانت تعتبر أن اليهود هم وحدهم الناس وأن من عداهم أمم ، كلاب البشرية ، فلم تنظر إلى أسرى الحروب نظرة إنسانية ، فما اكتفت بقتل الأسرى وحسب بل شرعت قتل جميع النساء والأطفال والحيوان وكل ما يوجد في المدن التي يقودها سوء طالعها لأن تقع في أيديهم .

جاء في التوراة التي بين أيدينا في سفر التثنية ، الإصحاح العشرين على لسان موسى :

« حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وإن لم تسالملك بل عملت معك حربا فحاصرها ،

وإذا دفعها الرب إهلك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ،
وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتقتنمها
لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إهلك . هكذا تفعل
بجميع المدن البعيدة منك جدا التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا .
وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إهلك نصيبا فلا تستبق منها
نسمة ما بل تحرمها تحريما : الحيشين والأمورين والكتنانيين والفريزين
والحويين واليبوسيين لكي لا تعلموكم أن تعلموا حسب جميع أرجاسهم
التي عملوا لآلتهم فتخطئوا إلى الرب إهلكم » .

فشرعة التوراة التي كتبت في بابل أيام الأسر تعرض اليهود على
استعباد الأعداء إذا جنحوا للسلم ، أما الأعداء الذين يحاربون بنى
إسرائيل فجزاء رجاهم ضرب الرقاب ، وأما النساء والأطفال فيصبحون
عبيدا للمتصرين وكل ما يقع في أيديهم فهو غنيمة لليهود . ولم يستنكر
أحد من المستشرقين ولا من أعداء الإسلام هذه الوحشية التي ابتدعها
حكماء صهيون ودسوها في توراتهم التي خطوها بأيديهم بعد أن حملهم
نبوخذنصر إلى بابل أسرى !

وجاء حكماء اليونان وأيدوا نظام الرق ، فأفلاطون في جمهوريته
الفاضلة يكتب الذل على العبيد ويقضى بحرمانهم حق المواطنة وإجبارهم
على الطاعة والخضوع للأحرار من ساداتهم أو من السادة الغرباء ، ومن
تداول منهم مع سيد غريب أسلمته الدولة إليه ليقترض منه كما يريد .

ويزعم أرسطو أن فريقا من الناس مخلوقون للعبودية لأنهم يعملون
عمل الآلات التي يتصرف فيها الأحرار ذوو الفكر والمشقة ، فهم آلات
حية تلحق في عملها بالآلات الجامدة . ويُحمد للسادة الذين يستخدمون

تلك الآلات الحية أن يتوسموا فيها القدرة على الاستقلال والتمييز فيشجعوها ويرتقوا بها من منزلة الأداة المسخرة إلى منزلة الكائن العاقل الرشيد .
وشريعة قدماء اليونان لا تعترف بالحقوق المدنية كاملة لمن لا يحمل الجنسية اليونانية ، فأفراد الشعوب الأخرى — بحسب هذه الشريعة — مجردون من جميع الحقوق المدنية إذا كانوا من طبقة الرقيق أو من كثير من هذه الحقوق إذا كانوا من طبقة الموالى ، ولم تكن لهم منزلة في البلاد اليونانية غير هاتين المنزلتين .

كان قدماء اليونان يعتقدون أنهم وحدهم كاملو الإنسانية قد زودوا بجميع ما يمتاز به الإنسان عن الحيوان من قوى العقل والإرادة ، على حين أن الشعوب الأخرى ناقصة الإنسانية مجردة من هذه القوى لا تزيد كثيرا على فصائل الأنعام ، وأنهم قد خلقوا ليكونوا عبيدا مسخرين لليونان .
وكانت قوانين الرومان ونظمهم الاجتماعية تجرد غير الرومان من جميع ما يتمتع به الرومان من حقوق مدنية أو من معظمها وتنظر إليه على أنه من فصيلة إنسانية وضيفة ، وأنه لم يخلق إلا ليكون رقيقا للرومان .

وتجرد شريعة الهنود البرهميين طبقة من طبقات الشعب وهى طبقة السودا أو المنبوذين من معظم حقوقهم المدنية وتنزلهم منزلة الرقيق ، فتقرر كتبهم المقدسة « أن السيد الأعلى لم يعط هذه الطبقة إلا وظيفة واحدة وهى أن يكونوا خدما للبرهميين » . وهم فوق ذلك نجس ورجس فلا يصح لمسهم ولا مؤاكلتهم ولا مصاهراتهم ولا الارتباط بهم بأية علاقة غير علاقة السيد بالمسود .

وقال هيرودوت : إن الفرس في زمانه كانوا يمنعون عقاب العبد على الهفوة الأولى ولكنهم يبيعون للسيد أن يقتل عبده أو يعذبه إذا أذنب مرة

بعد أخرى . وكانت شريعة الفرس أرفق بالعبد على الجملة من شرائع اليونان والرومان لأنها كانت ترخص له في الراحة وتكره العدوان عليه ، وربما سرى إليهم أدب الشريعة هذا من عادة التسرى واقتناء الزوجات من الإماء . ووافق ذلك معيشة الحضارة في المدن الكبيرة وقلة الحاجة إلى إرهاق الأرقاء لتحصيل ضرورات المعيشة .

وجاءت المسيحية ولم تحاول أن تصفى نظام الاسترقاق ، ولم يرد في أى من الأناجيل الأربعة نص صريح يستنكر أن يستعبد الإنسان أخاه الإنسان ، بل كل ما جاء في الأناجيل التي بين أيدينا : أن الناس كلهم إخوان وأنه يجب عليهم أن يحب بعضهم بعضا . ولم تكن هذه الأخوة القضاء على العبودية فإن الحوارين قد أيدوا نظام الرق ، فبطرس قد أوصى الأرقاء بطاعة ساداتهم وقال إن الرق كفارة عن ذنوب البشر يؤديها العبيد لما استحقوه من غضب السيد الأعظم .

وكتب بولس الذي استولى على كرسي السيد المسيح وراح يشرع للمسيحيين رسالة إلى أهل « أفسيس » أوصى فيها العبيد بالإخلاص في الولاء لساداتهم كما يخلصون في الولاء للسيد المسيح ، قال : « أيها العبيد أطيعوا ساداتكم حسب الجسد بخوف ورعدة في بساطة قلوبكم كما للمسيح ، لا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب ، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس ، عاملين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب » .

وذهب كثير من القديسين إلى أن الرق في الديانة المسيحية فكرة يتدين بها الرقيق ويتقرب بها إلى الله ، فقد قال القديس « أسيلوس » من آباء الكنيسة اليونانية في بعض كتبه بعد أن أورد ما جاء في رسالة بولس إلى أهل

« أفسيس » : « وهذا يدل على أن العبد يجب عليه طاعة مولاه بقلب سليم تمجيذا لله العلى العظيم » .

وقال بعض القساوسة مخاطبا أحد الأرقاء : « إني لأنصحك بالبقاء في الرق حتى ولو عرض عليك مولاك تحريرك ، فإنك بذلك تحاسب حسابا يسيرا لأنك تكون خدمت مولاك الذى فى السماء ومولاك الذى فى الأرض » .

وجاءت الكنيسة فأقرت نظام الرق واعتمدته أحبار رومة ، وتغالى بعضهم فجعل فكرة الرق قانونا طبيعيا لا يمكن مخالفته وقال : « إن الطبيعة خصصت بعض الناس ليكونوا أرقاء » .

وأيد الرق توماس الأكويني كبير فلاسفة النساك والقسيسين وتلميذ أرسطو الذى اشتهر بالعلم والتقوى فى القرن الثالث عشر للمسيح ، فاستند إلى أقوال رسل المسيحية كما استند إلى أقوال أرسطو فى كتابه عن السياسة أن الرق حالة من الحالات التى خلق عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية ، وليس مما يناقض الإيمان ، أن يقنع الإنسان من الدنيا بأهون نصيب » .

وما كان يعترف للرقيق بحق الزواج ولا بحق أن تكون لهم أسرة ، وكان الاتصال بين ذكورهم وإناثهم لا يعتبر زواجا وإنما كان يتم باختيار مواليمهم وفى صورة يقصد منها مجرد التناسل وتكاثر عدد الرقيق كما يحدث بين الأنعام .

وكان يحظر على المرء أن يتزوج من أمة وعلى الحرة أن تتزوج برقيق ، بل إن معظم هذه الشرائع كانت توقع على الحرة التى تتزوج رقيقا عقوبة شديدة وصلت فى القانون الرومانى إلى حد الإعدام .

كان الرق نظاما اجتماعيا في كل مجتمعات العالم قبل ظهور الإسلام ، فالرقيق منتشرون في البيوت والمزارع والمرافق العامة تقوم على سواعدهم الحياة الاقتصادية في كل أنحاء الأرض . وقد زعم الفلاسفة ورجال الدين المسيحي أن الرق نظام طبيعي ، ومع وضوح هذه الحقائق لم يستح بعض المستشرقين المسيحيين وأعداء الإسلام من أن يوجهوا إلى الإسلام تهمة إباحة استرقاق بنى الإنسان !

إن الإسلام عندما جاء لم يتهيب النظام القائم في المجتمعات القديمة كما تهيبت اليهودية والمسيحية وفلاسفة اليونان والرومان ، فلم يقل إن الرق نظام طبيعي ولم يحدع العبيد بأن يقول لهم إن طاعة ساداتهم كفارة عن ذنوب ارتكبوها في الأرض ، بل واجه المشكلة بشجاعة وعالجها علاجاً حاسماً لو طبق في أمانة لقضى على المشكلة قضاء مبرماً في أجيال قليلة . ولكنها الأهواء التي فسرت وأولت وحادت عن الجادة فطالت فترة الرق في الإسلام دون سند من شريعة الله أو سنة رسول الله عليه السلام .

يقول الأستاذ العقاد في كتابه « بلال داعي السماء » : كان في وسع الدعوة الإسلامية أن تمر بنظام الرق في العالم العربي وفي العالم بأسره ثم تتركه حيث كان فلا يحسب عليها ذلك — في حينها — إغضاء معيياً تسأل عنه ، لأن مسألة الرق لم تبلغ يومئذ أن تكون من المسائل الناطقة التي يؤول السكوت عنها بالإغضاء أو المدارة .

ومن المحقق أن الدعوة الإسلامية لم تكن تخسر شيئاً لو أنها أهملت مسألة الرق في أول ظهورها ، لأن المسلمين على نقيض ذلك كانوا يتجشمون خسارة لا يطيقونها في إعتاق العبيد والإماء ، كلما ساءت حالهم عند ساداتهم بدخولهم (في الإسلام) ؛ وكان أبو قحافة يمثل الرأي الحصيف

وهو يأخذ على ابنه الصديق بذل المال الكثير في سبيل رهط من الضعاف المهازيل يثقلون كاهله ولا يغنون عنه أقل غناء .

فلم يكن ثمة من باعث إلى النظر في إنصاف الأرقاء وهدم نظام الرق القديم غير باعث الفضيلة المثالية التي تعنى بطلب الكمال ولا تحفل بالمصلحة المادية أقل احتفال .

وهناك سؤال غالبا ما يثور في رءوس الناس : لماذا لم يحرم الإسلام الرق تحريما قاطعا دفعة واحدة كما حرم الزنا والخمر والميسر وأكل الميتة ولحم الخنزير ؟ والرد على ذلك أن الإسلام لو كان قد شرع تحريم الرق تحريما فوريا لزلزل اقتصاد الدولة الإسلامية الناشئة ، فكثير من أوجه النشاط الاقتصادي كان ينهض به الأرقاء ، وكان ينزل في نفس الوقت ضربة قاصمة بالأرقاء المسنين والإماء المسنات الذين لم يكونوا يعرفون سبيلا للعيش غير دور ساداتهم . فلو شرع الله سبحانه وتعالى تحرير العبيد طفرة واحدة لهام هؤلاء الناس على وجوههم في دنيا الضياع ، ولكتب على طبقة من الرقيق الموت جوعا أو دفعهم إلى الفساد في الأرض ، فكان من الحكمة ألا يقر الإسلام الرق في صورة مطلقة دائمة وإنما أقره في صورة تؤدي هي نفسها إلى القضاء عليه بالتدريج ، ولو طبقت نصوص الشريعة الإسلامية تطبيقا أميناً لانمحي الرق في الإسلام في جيلين ، وما جيلان في حياة الشعوب بشيء يذكر .

عمل الإسلام على أن يقطع السبل التي يتدفق منها سيل الرق وعلى أن يفتح كل السبل التي تقضي إلى العتق ، فحرم استرقاق المسلم أصلا ، ومحا التفرقة بين الأجناس والأقوام ، وعلم الناس أن المؤمنين إخوة وأنه لا فضل لمسلم على مسلم بغير التقوى .

وكانت بعض قبائل العرب تشن هجوما على قبائل أخرى فتخطف الرجال والنساء والولدان وتبيعهم في الأسواق بيع الأنعام ، وكان الخطف والقرصنة والسبي وسائل مشروعة قبل الإسلام ، وكانت بعض الدول تمارس هذا النوع من سلب حرية الناس ، وقد حرم الإسلام هذا النوع من الاسترقاق ولم يقر النخاسة ، فإن كان بعض المسلمين قد شنوا الغارات على الآمنين وخطفوا الرجال والنساء والولدان وعرضوهم في الأسواق عرض الحيوان ، فما ذلك من الدين في شيء . وإن مثلهم مثل المسلم الذي يشرب الخمر أو يرتكب الفواحش ، فليس معنى شرب بعض المسلمين الخمر أن الإسلام يبيح المسكرات ، وليس معنى أن بعض المسلمين يقربون الزنا أن الإسلام يشجع الفساد ويقر البغاء .

وكان المدين في بعض الشرائع قبل الإسلام إذا عجز عن سداد دينه في ميعاد الاستحقاق يحكم عليه بالعبودية لمصلحة دائنه ، وكان ذلك شائعا بين اليهود واليونان والرومان . فلما جاء الإسلام نظر إلى المدين المعسر نظرة رحمة ، فقال تعالى في محكم كتابه : ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة ﴾ (١) . ولم يكتف بذلك بل جعل للغارمين نصيبا من زكاة القادرين وصدقاتهم : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ (٢) .

وكانت بعض الشرائع تقر أن يبيع الوالد المعسر في حالة عوزة أولاده ذكورهم وإناثهم في بعض الشعوب ، أو إناثهم وحسب في شعوب أخرى . ولكن العرب في حالة الإملاق كانوا يقتلون أولادهم ويثدنون

بناتهم ، فجاء الإسلام ينهى عن قتل الأولاد خشية إملاق ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ﴾ (١) . ونهى عن الوأد : ﴿ وإذا الموعودة سئلت * بأى ذنب قتلت ﴾ (٢) .

وكان القاتل فى بعض الشعوب يسبى ، وكذلك الزانى والسارق . فلما جاء الإسلام شرع النفس بالنفس إذا كان القتل عمدا ، أما إذا كان القتل خطأ فدفعت الدية لأولياء القتيل ، وأمر بجلد الزانى ثمانين جلدة إذا لم يكن محصنا وبرجعه إذا كان متزوجا ، أما السارق فقد أمر بقطع يده . وكان للإنسان أن يبيع نفسه لقاء ثمن يفرج به أزمته ، فلم يوافق الإسلام على هذا النوع من الاسترقاق الذى يحط من بشرية الإنسان ، فالإنسان فى الإسلام يولد حرا ، وقد قال عمر : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟ » . وأن ليس للإنسان حق التصرف فى حرته التى منحها الله له ، كما أنه ليس له حق التصرف فى روحه التى نفخها الله فيه .

ولم يكن الاسترقاق عند العرب عداء لعنصر أو عداء لجنس أو عداء للون ، فإذا قالوا العبد فهم لا يقصدون الزنجى ولا يخصون سواد اللون بالمهانة ، ولكنهم يقصدون كل أسير لم يفك إساره ، وكل جليب يباع ويشترى فى الأسواق ومنهم صفر الوجوه وبيض الوجوه .

كان عبادة بن الصامت زنجيا وكان صاحبيا جليلا شهد المشاهد كلها مع رسول الله — ﷺ — وأرسله رسول الله — ﷺ — — يجمع بعض الصدقات ، وأرسله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعد فتح الشام إلى حمص ليفقه أهلها فى الدين ، وقد بعثه عمرو بن العاص لما فتح مصر إلى

(١) الإسراء ٣١ . (٢) التكوين ٨ ، ٩

« المقوقس » عظيم القبط على رأس وفد ليفاوض المقوقس في الصلح .
فلما قدم عبادة على رأس أصحابه ، قال المقوقس :
— نحوا عنى هذا الأسود وقدموا غيره ليكلمنى .

— إن هذا أفضلنا رأيا وعلما ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا
وإنما نرجع جميعا إلى قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره وأمرنا
ألا نخالف رأيه وقوله .

— وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم وإنما ينبغى أن يكون
دونكم ؟

— كلا ، إنه وإن كان أسود كما ترى فإنه من أفضلنا موضعا وأفضلنا
سابقة ورأيا وعلما . وليس ينكر السواد فينا .

وألقى المقوقس عظيم القبط إلى عبادة بن الصامت الزنجى سمعه وأذعن
لشروطه .

وكان بلال مؤذن الرسول من أبناء الحبشة المولدين وكان آدم شديد
الأدمة ، ولم يقف لونه ولا جنسه في سبيل أن يصل إلى المكانة التي
يستحقها في دين فتح أبوابه للبشرية جمعاء لا فرق بين أبيض ولا أسود
ولا عرى ولا أعجمى ، وأن الناس فيه يتفاضلون بالتقوى ، فقد كان
بلال صحابيا جليلا وكان خازن الرسول ﷺ .

لم يقر الإسلام القرصنة والخطف والسبى ولم يعترف بأن هناك طبقة
منبوذة بالمولد كتب عليها القدر أن ترسف في ذل العبودية حتى يرث الله
الأرض ومن عليها ، ولم يحكم بالرق على المدين المعسر ، ولم يقر سلطة
الوالد في بيع أولاده ، ولا حق الإنسان في أن يتنازل عن حريته ، ولا حق
الدولة في أن تسلب أحدا حريته إذا ما ارتكب جريمة خطيرة كالقتل

أو السرقة أو الزنا . كل ما أقره الإسلام من أنواع الرق نوعين : رق الوراثة ورق الحرب ، وقد قيدهما بقيود لو اتبعها المسلمون بإخلاص لقضى على الرق في الإسلام قضاء مبرما .

أراد الإسلام أن يقضى على رق الوراثة بالتدريج حتى لا يلقى بالعبيد في الطرقات إذا ما شرع إلغاء الرق طفرة واحدة ، فقرر أن من تأتى به الجارية من سيدها يولد حرا ويلتحق نسبه بالسيد وتصبح الجارية مستحقة لحريتها بعد وفاة سيدها .

وقد قال — ﷺ — حينما ولدت منه جاريته مارية القبطية « إبراهيم » : « أعتقها ولدها » . وهذا التشريع يرد الحرية التي يقدسها الإسلام إلى الأولاد وأمهات الأولاد في جيل واحد . ولهذا الحكمة لم يحدد الإسلام عدد ما كانت تملكه يد المسلم من نساء ، لأن تسرية رجل قادر بعدد مهما بلغ من النساء يفضي إلى تحرير أولاده منهن في حياته وإلى تحريرهن جميعا بعد وفاته ، فإن كان في هذا تضحية بجيل من النساء بالضائعات فهي تضحية واجبة لإنقاذ أجيال من ذل العبودية التي كانت تفرضها عليهم الشرائع السابقة على الإسلام .

وقد كان هذا التشريع الحكيم كفيلا بأن يقضى على رق الوراثة بعد جيل واحد لو أن المسلمين ساروا على هدى شريعة الله وسنة رسول الله — ﷺ — الذي قرر في وضوح أن ابنه إبراهيم قد أعتق جاريته مارية القبطية التي أهداها إليه المقوقس عظيم القبط ، ولو أن روافد الرق الأخرى قد جفت — وكان لا بد لها أن تجف لو أن أصحاب الأغراض من المسلمين قد اتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم دون أن يحللوا ما حرم الله .

قيد الإسلام رق الوراثة بقيود كانت كفيلة بالقضاء عليه ، وقيد رق

الحرب بقيود كانت هي الأخرى كفيلة بالقضاء عليه وإعادة الحرية التي يقدسها الإسلام إلى جميع البشر لا فرق بين عربى أو عجمى ولا مسلم ولا غير مسلم . وقد أباح الإسلام الحرب التى اصطلاح فقهاء القانون الدولى أخيرا على أنها الحرب المشروعة وهى :

١ — حرب الدفاع عن النفس لدفع اعتداء واقع بالفعل وهو دفاع مشروع فى كل القوانين .

وفى هذا يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ (١) . ﴿ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ﴾ (٢) . وهذه الآية تقيد رد الاعتداء بالقدر اللازم لذلك دون مجاوزة أو تنكيل .

٢ — أن تكون الحرب لحماية حق ثابت للدولة انتهكته دولة أخرى دون مبرر ، وقد أقر الإسلام الحرب فى حالة نكث العهد والكيد للإسلام ، وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون ﴾ (٣) . وفى حالة إثارة الفتن وتعرض الدولة لفتن تهدد سلامتها : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ (٤) .

وإن ما جاء به الإسلام سبق فقهاء القانون الدولى بأربعة عشر قرنا ، فهو أول من فرق بين الحرب المشروعة وغير المشروعة ، وأول من وضع للحرب آدابا وتقاليد . وكان أول من نادى بفكرة الحرب العادلة والحرب

(٢) البقرة ١٩٤

(١) البقرة ١٩٠

(٤) البقرة ١٩٣

(٣) التوبة ١٢

غير العادلة بعد القرآن وحكام المسلمين هو القديس توماس في القرن الثالث عشر الميلادي ، ثم تجددت الفكرة وتبلورت بإباحة الأولى وتحريم الثانية في كتابات الفقهاء الدينيين فيتوريا وسوارس . ويعترف فيتوريا نفسه بأن الإسلام قد سبق كل المشرعين في هذا المضمار ، ويعترف أيضا بأن مبدأ وجوب إعلان الحرب وعدم المباغنة مبدأ إسلامي نقله فيما بعد فقهاء القانون الدولي الأوروبي .

أبقى الإسلام على رق الحرب وقيده بقيود ، فهو لا يضرب على الذين يؤسرون في حرب بين طائفتين من المسلمين سواء أكانوا من الطائفة الباغية أم من الطائفة الأخرى ، ولكنه يضرب على أسرى الحرب على شريطة أن تكون الحرب شرعية يعلنها غير المسلمين على المسلمين ، وذلك تخويفا لغير المسلمين من أن يشنوا على المسلمين حربا تكون مغتبا أن يفقدوا حريتهم وأن يصبحوا عبيدا . ومع ذلك لم يجعل الإسلام استرقاق أسرى الحرب قاعدة بل ترك الخيار للإمام فله أن يمن على الأسرى بدون مقابل أو يطلق سراحهم لقاء فدية أو عمل يؤدونه أو في نظير أسرى للمسلمين قد وقعوا في أيدي العدو . والقرآن الكريم لم يذكر الرق من بين الأمور التي يباح للإمام أن يعامل بها الأسرى واقتصر على المن والفداء : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوُثَاقَ ، فَمَا مِنَّا بَعْدُ وَإِنَّا فَعَدُّوا حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ (١) .

كان أسرى الحروب قبل الإسلام يقتلون ، وكانت اليهودية لا تكتفى بقتل أسرى الحروب فحسب بل تأمر بقتل جميع النساء والأطفال والحيوان . وتطورت الأفكار في عهد الرومان واليونان إلى استرقاق

الأسرى ، فلما كانت غزوة بدر أخذ رسول الله ﷺ — من أغنياء الأسرى الفدية ومن على فقرائهم فأطلق سراحهم دون مقابل ، ومن كان يعرف القراءة والكتابة منهم جعل فدائه أن يعلم عددا من أولاد المسلمين القراءة والكتابة .

ومن رسول الله ﷺ — على أهل مكة يوم الفتح وقال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . وقد أتى الحجاج بن يوسف الثقفي بأسير فقال لعبد الله بن عمر : أقدم فاقتله . فقال ابن عمر : ما بهذا أمرنا . وتلا قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا مِنَّا بَعْدُ وَإِنَّا فِدَاءٌ ۚ ﴾ (١) .

ويقول الأستاذ المستشار على على منصور في كتابه « الشريعة الإسلامية والقانون الدولي العام » : إن استرقاق الأسرى في الإسلام كان من قبيل المعاملة بالمثل .

وجاء بعد ذلك عصر الصحابة رضوان الله عليهم واشتد الالتحام بين المسلمين والمجوس في الشرق والمسلمين والروم في الغرب ، وكان استرقاق الأسرى نظاما متبعاً في الحروب إذ ذاك وقد أسروا فعلا من المسلمين واسترقوهم وباعوهم ، فاضطر قواد المسلمين إلى السير على سنة المعاملة بالمثل . ولم يكن من المعقول أن يسترق أعداؤهم أسرى المسلمين ويمن المسلمون على الأسرى منهم فإن ذلك يدفع إلى كلب الأعداء فيهم واستمراء أفعالهم ، ولم يجد قواد المسلمين نصا قويا يمنع من الاسترقاق ولا نصا قرآنيا صريحا ينهى عنه ، ووجدوا قانون المعاملة بالمثل يوجب ذلك في قول الله تعالى : ﴿ فَمَن عَتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا عَتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ وَالْحَرَامَاتُ قَصَاصٌ ۚ ﴾ (٣) .

(١) محمد ٤ (٢) البقرة ١٩٤ (٣) البقرة ١٩٤

أقر الإسلام رق الوراثة ولم يصدر تشريعا يحرمه طفرة واحدة ، لأن
الشارع الحكيم رأى أن القدرة تحقق الغاية دون أن يلتقي بعبيد مسنين
وأطفال رضع وفتيات جميلات في عرض الطرقات فتتهزأر كان مجتمع آخذ
في الاستقرار وتشيع فيه القسوة وغلظ الأكباد والفواحش التي جاء
ليقضى عليها ، وقيده بقيود كانت كفيلة بالقضاء عليه . وأقر الإسلام رق
الحروب وقيده بقيود وكان الهدف من إباحته تخويف غير المسلمين من أن
يشنوا حربا على المسلمين ، وقد ترك للإمام أن يغدى أو يمن ، ولم ينص
نصا صريحا على الاسترقاق ، فلو أن المسلمين قد اتبعوا روح القرآن لقضى
على رق الوراثة ورق الحرب لو جنح أعداء الإسلام إلى السلم واحترموا
العهود والمواثيق ولم يحاولوا أن يسترخوا أسرى المسلمين .

إن ريتشارد قلب الأسد قد قتل ثلاثة آلاف من أسرى المسلمين أمام بيت
المقدس بعد أن قطع على نفسه العهد بحقن دمائهم ، ولم يدفع ذلك صلاح
الدين الأيوبي إلى قتل أسرى الصليبيين واكتفى باسترقاق بعض وفداء
بعضهم الآخر . وقد اضطر لاسترقاق الصليبيين لما وجد من قسوة
قوادهم في معاملة أسرى المسلمين .

وأين ما فعله ريتشارد قلب الأسد مما فعله رسول الإسلام والسلام
— ﷺ — يوم بدر وما فعله المسلمون ؟ فقد كانوا يؤثرون الأسرى
بالطعام على أنفسهم ، وقد قال أحد أسرى بدر : « كان المسلمون
يقدموننا على أنفسهم فكانوا يؤثروننا بالأدم ويكتفون هم بالتمر » .

كان هدف الإسلام تصفية الرق وإشاعة الحرية ، فلم يدع سبيلا
لتحرير العبيد إلا سلكه وحبب المسلمين فيه . وقد عدد الدكتور على
عبد الواحد وافي في كتابه : « الحرية في الإسلام » أسباب العتق في
(غزوة أحد)

الإسلام فقال :

شرح الإسلام للعتق أسبابا كثيرة يرجع أهمها إلى الأمور الآتية :

١ — أن يجرى على لسان السيد في صورة ما لفظ يدل صراحة على عتق عبده ، سواء أكان قاصدا معنى اللفظ أم لم يكن قاصدا له بأن جرى خطأ على لسانه ، وسواء أكان جادا في إصداره أم كان هازلا ، وسواء أكان مختارا أم كان مكرها عليه ، وسواء أكان في حالة عادية أم كان فاقدا لرشده بفعل الخمر وما إليها من المحرمات . وفي هذا يقول الرسول — صلوات الله وسلامه عليه : « ثلاث جدهن جد وهزلهن جد ... » . وعد منها العتق . ومن هذا يظهر أن الإسلام يتلمس أوهى الأسباب لتحرير العبيد .

٢ — ومن أسباب العتق كذلك أن يجرى على لسان السيد في صورة ما لفظ يفيد « التدبير » أى يدل على الوصية بتحرير العبد بعد موته ، فبمجرد أن تصدر من السيد عبارة تدل على هذا المعنى تصبح الحرية مكفولة للعبد بعد وفاة سيده . وقد اتخذ الإسلام جميع وسائل الحيلة لضمان الحرية لهذا النوع من العبيد ، فحظر على السيد في أثناء حياته أن يبيع عبده المدبر أو يرهنه أو يهبه أو يتصرف فيه تصرفا ينقل ملكيته إلى شخص آخر . وإذا كان المدبر جارية فإن حكمها يسرى على من تلده بعد تدبيرها فيعتق معها بعد وفاة سيدها ، أقر ذلك ورثته أم لم يقره .

٣ — ومن أسباب العتق في الإسلام كذلك أن يأق السيد من جاريته بولد ، ففي هذه الحالة يعتبر الولد حرا من يوم ولادته وتصبح الأم نفسها مستحقة للحرية بعد وفاة سيدها . وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام في سُرِّيَّته مارية حينما جاء منها بإبراهيم : « أعتقها ولدها » . أى أن مجيئها منه

بهذا الولد جعلها مستحقة للحرية بعد وفاته ، ويسمى الفقهاء هذا النوع من الجوارى « أمهات الأولاد » . وقد اتخذ الإسلام لضمان الحرية لمن الاحتياطات نفسها التي اتخذها حيال المدبرين ، فحظر على السيد في أثناء حياته أن يبيع أم ولده أو يهبها أو يتصرف فيها أى تصرف ينقل ملكيتها ويعوق حريتها . وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام : « أم الولد لا تباع ولا توهب ، وهى حرة من جميع المال » .

ويقول عمر منكرا على من كانوا يحاولون بيع أمهات أولادهم : « أفبعد أن اختلطت دماءكم بدمائهن ولحومكم بلحومهن تريدون بيعهن ؟ » . وإذا جاءت أم الولد بعد ذلك بولد من غير سيدها فإن حكمها يسرى عليه فيعتق بعد وفاة السيد .

ومن هذا يتبين أن معاشرة السيد لجاريته ومجيئه منها بولد كانا يؤديان في الإسلام إلى حريتها وحرية جميع نسلها إلى يوم القيامة . ويبدو أن الإسلام قد أباح للموالى معاشرة إمائهن ليكون ذلك وسيلة إلى التحرير ، وأنه قد استغل ميول الغريزة للقضاء على أهم رافد من روافد الرق وإشاعة الحرية بين الناس .

ومن ثم تظهر لنا الحكمة في أن الإسلام قد أجاز للسيد أن يتسرى بجواريه بدون أن يقيد هذا التسرى بعقد ولا بعدد ، فلم يقيده بتعاقد ولا بإيجاب وقبول ، لأن وسيلة تؤدي إلى حرية الجارية وحرية نسلها إلى يوم القيامة لا يصح أن تتوقف على رأيها ولا على قبولها ، بل ينبغى أن تذلل سبلها وتنتهز بمجرد إقدام السيد عليها . ولم يقيده الإسلام بعدد بل أجاز للسيد أن يتسرى كل من يرغب التسرى بهن من جواريه بالغ ما بلغ عددهن ، لأن وسيلة تؤدي إلى حرية الجوارى واتصال نسب أولادهم

بالموالى وحرية جميع نسلهن إلى يوم القيامة لا يصح أن تقيد بعدد ، لأن تقييدها بذلك معناه تقييد منافذ الحرية والإبقاء على روافد الرق . بل إنه مما يتسق مع الغرض النبيل الذى يرمى إليه الإسلام ألا تدخر وسيلة لإغراء الموالى باتخاذ السرارى والإكثار من عددهن ، حتى تشمل نعمة الحرية أكبر عدد ممكن ويقضى على الرق فى أقصر وقت مستطاع .

٤ — ومن أسباب العتق فى الإسلام كذلك أن يكتب السيد عبده ، أى يتفق معه على أن يعتقه إذا دفع له مبلغا من المال . وقد ذلّل الإسلام لهذا النوع من العبيد جميع وسائل الحصول على المال فى صورة تدل أوضح دلالة على شدة حرصه على تصفية الرق وإشاعة الحرية بين الناس ، فأباح لهم أن يتصرفوا تصرف الأحرار فيبيعوا ويشترى ويتاجروا ويعقدوا العقود حتى يستطيعوا أن يجمعوا المبالغ التى كوتبوا عليها فتنحروا رقابهم ، وحث جميع المسلمين على مساعدتهم والتصدق عليهم ، وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاთبهم إن علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ﴾ (١) .

ويدل ظاهر القرآن فى هذه الآية على أنه لا يجوز للسيد أن يمتنع عن قبول المكاتبته متى أبدى العبد رغبته فى تحرير نفسه لقاء مبلغ يدفعه . وقد سأل ابن جرير عطاء بن أبى رباح : « أوجب علىّ إذا طلب مملوكى الكتابة أن أكاتبه ؟ » . فأجابه بقوله : « ما أراه إلا واجبا » . واستدل بالآية الكريمة السابقة .

وإذا كان المكاتب جارية فإن حكمها يسرى على ما تلده بعد مكاتبته ، فيعتق معها بدون عوض بمجرد أدائها المبلغ الذى تعاقدت مع

سيدها عليه .

٥ — ذهب جماعة من الفقهاء على رأسهم الإمام أحمد بن حنبل إلى أن إيذاء السيد لعبده إيذاء بليغا يؤدي إلى عتقه في صورة تلقائية بدون أى إجراء قضائى . بل لقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن مجرد ضرب السيد لعبده أو لطمه له يؤدي في صورة تلقائية لعتقه ، مستندين في ذلك إلى ما رواه ابن عمر عن الرسول عليه السلام أنه قال : « من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه » .

٦ — عمد الإسلام إلى طائفة كبيرة من الجرائم والأخطاء التي يكثر حدوثها وجعل كفارتها تحرير الرقيق ، فبينما كانت الجرائم في الشرائع السابقة للإسلام تؤدي إلى استرقاق الأحرار إذا بها في شريعة الإسلام تصبح مؤدية إلى تحرير العبيد . فالإسلام ينظر إلى تحرير العبد على أنه قرينة كبيرة بتقرب بها العبد إلى ربه ويكفر بها خطاياها ، فجعل الإسلام تحرير الرقيق تكفيرا للقتل الخطأ وما في حكمه ، قال تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله ﴾ (١) . وجعله كذلك كفارة للحنث في اليمين . قال تعالى : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ﴾ (٢) .

وجعله كذلك وسيلة لمراجعة المرأة إذا أوقع عليها زوجها ظاهارا بأن قال لها : « أنت على كظهر أمي » . أو عبارة من هذا القبيل ، قال تعالى : ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة

(٢) المائدة ٨٩ .

(١) النساء ٩٢

من قبل أن يتماسا ﴿١﴾ .

وجعله كذلك كفارة للإفطار العمد في رمضان ، فعن أبى هريرة قال : « جاء رجل إلى النبي — ﷺ — فقال : هلكت يا رسول الله ! قال : وما أهلكك ؟ قال : وقعت على امرأتى في رمضان ! قال : هل تجد ما تعتق به رقة ؟ .. » .

وتقرر الشريعة الإسلامية أن من وجبت عليه كفارة من هذه الكفارات ولم يكن يملك عبداً وجب عليه أن يشتري عبداً ويعتقه متى كان قادرا على ذلك ؟

٧ — خصص الإسلام سهما من مال الزكاة ، أى جزءا من ميزانية الدولة ، لشراء العبيد وتحريرهم ومساعدة من يحتاج منهم إلى المساعدة في سبيل تحريره كالمكاتبين ومن إليهم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ (٢) . أى في فك قيود الرق عن رقاب العبيد .

والمقصود بالصدقات في الآية : الزكاة التي كان يتألف منها أهم جزء من موارد الدولة ، فبينما كان بعض الشرائع السابقة للإسلام يفرض على المولى الذى يعتق عبده غرامة يدفعها إلى بيت المال ، إذا بشرية الإسلام تخصص جزءا من ميزانية الدولة لإنفاقه في تحرير الرقيق . وكانت الحكومات الإسلامية تحترم هذا المصرف وتخصص له نصيبه ، بل لقد كان ينفق فيه أحيانا أكثر من نصيبه ، فقد ذكر يحيى بن سعد أن الخليفة عمر بن عبد العزيز قد بعثه على صدقات إفريقية ، أى على جمع الزكاة من أهلها ، فاقتضاها وطلب فقراء يعطيهم منها فلم يجد ، لأن عمر بن

عبد العزيز كان قد أغنى جميع الناس ، فاشترى بها كلها رقابا وأعتقها .
 ٨ — حبب الإسلام إلى الناس تحرير الرقيق وجعله أكبر قربة يتقرب بها
 العبد إلى ربه ، وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ وما أدراك
 ما العقبة * فك رقبة ﴿ ١ ﴾ . أى أن اقتحام العقبة الكبرى التى لا بد من
 اقتحامها للوصول إلى الجنة تقتضى أن يتقرب المؤمن فى حياته إلى ربه بعمل
 جليل من أعمال البر كتحرير الرقيق . ولقد بلغ من تعظيم الإسلام لهذه
 القربة أن النبى — ﷺ — يضرب بها المثل فى جلال العمل وعظيم الأجر
 فيقول : « من فعل كذا فكأنما أعتق رقبة » . أو « يكون ثوابه عند الله
 ثواب من أعتق رقبة » .

جاء الإسلام وديانات تقر الرق وتوصى بقتل أسرى الحرب ،
 وفلسفات ترى أن الرق نظام طبيعى وأن الحرية إذا ما تزوجت عبدا كان
 جزاؤها الإعدام ، فلم يتهب النظم القائمة فى المجتمعات القديمة بل قابلها
 وجها لوجه ، وأعلن رسول الله أن لا إله إلا الله ولا مولى إلا الله وأن الناس
 جميعا لآدم وأن لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، وراح الإسلام
 يعمل على إشاعة الحرية للناس جميعا وعلى محق الرق فى هوادة . وقد كان
 رسول الإسلام — عليه صلوات الله وسلامه — أول من طبق أوامر الله
 ليكون أسوة حسنة للمسلمين ، فأمر ابنة عمته زينب بنت جحش أن
 تتزوج ربيبه زيد بن حارثة ليقضى على ترفع السادة عن الزواج من العبيد .
 وما كان رسول الله — ﷺ — يفرض رأيه فى أمر الزواج فقد كان
 يستشير بناته فى أزواجهن ويترك لهن الخيار ، وقد أوصى بأن يؤخذ رأى
 البنات فى الأزواج . ولكنه أمر زينب بنت جحش أن تتزوج زيدا لحكمة

أرادها الله . ﴿١﴾ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴿١﴾ .

وفضل الإسلام الزواج بالأمة المؤمنة على الزواج بالحرّة المشركة : وأوصى نبي الإسلام عليه السلام بالرفيق خيرا فكان يقول : « لقد أوصاني حبيبي جبريل بالرفيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم » . وكان عليه السلام يشفق عليهم من الكلمة الجارحة فيقول : « لا يقل أحدكم عبدي ، أمتي .. وليقل فتاى وفتاى وغلami » .

وكان عليه السلام يؤاكلهم ويلبى دعوتهم إلى الطعام ويقول للمسلمين : « إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » .

وكان يقول : إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد » . وكانت وصية النبي — ﷺ — قبيل وفاته : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » .

لم يقر الإسلام القرصنة والخطف والسبي وبيع الأسرى في الأسواق بيع الحيوان ، فإن كان بعض النخاسين من المسلمين قد جابوا الصحراء وخطفوا الرجال والنساء والأطفال وباعوهم في الأسواق فما ذلك من الدين ، فما أباح الإسلام اختطاف الناس من السود أو البيض ، وما جاء الإسلام إلا لإشاعة الحرية وتقويض ما يقيد حرية الإنسان .

ولم يقر الإسلام فرض الرق على أسرى الحروب ، بل إن القرآن الكريم

قد وضع أساس معاملة أسرى الكفار في وضوح ، فإله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ فَإِذَا لَقِيتَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَتْمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوُثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدَ وَإِمَّا فِدَاءً ۖ ﴾ (١) . فَإِنْ كَانَ بَعْضُ أَمْرَاءِ الْمُسْلِمِينَ قَدْ فَرَضُوا الرِّقَ عَلَى أَسْرَى الْحُرُوبِ الَّتِي شَتَّوْهَا فَمَا ذَلِكَ مِنَ الدِّينِ ، فَمَا يَنْبَغِي الاسْتِدْلَالُ عَلَى صِحَّةِ الدِّينِ أَوْ فَسَادِهِ بِمَا يَفْعَلُ أَهْلُهُ . وَقَدْ يَكُونُ أَمْرَاءُ الْمُسْلِمِينَ قَدْ اضْطَرُّوا إِلَى اسْتِرْقَاقِ أَسْرَى الْحُرُوبِ لِمَا رَأَوْا أَنَّ الْأَعْدَاءَ قَدْ اسْتَرْقَوْا أَسْرَى الْمُسْلِمِينَ كَمَا يَقُولُ الْأُسْتَاذُ الْمُسْتَشَارُ عَلَى مِنْصُورٍ فِي كِتَابِهِ « الشَّرِيعَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ وَالْقَانُونُ الدُّوْلِيُّ الْعَامُّ » .

وَلَمْ يَقْرَ الْإِسْلَامُ مَبْدَأَ اسْتِرْقَاقِ الْمَدِينِ إِذَا عَجَزَ عَنْ سَدَادِ دِينِهِ ، بَلْ أَوْصَى الدَّائِنُ أَنْ يَنْظُرَ مَدِينَهُ إِلَى مَيْسَرَةٍ حَتَّى يَتِمَّكَنَ مِنَ السَّدَادِ . وَلَمْ يَقْرَ حَقَّ الْوَالِدِ فِي بَيْعِ أَوْلَادِهِ ذَكَورَهُمْ وَإِنَاثَهُمْ وَلَا حَقَّ الْإِنْسَانِ فِي أَنْ يَتَنَازَلَ عَنْ حُرِّيَّتِهِ وَيَبِيعَ نَفْسَهُ .

وَقِيدَ الْإِسْلَامُ رِقَ الْوَرَاثَةِ وَوَسَّعَ مَنَافِدَ الْعِتْقِ ؛ وَلَوْ اتَّبَعَ الْمُسْلِمُونَ شَرِيعَةَ اللَّهِ دُونَ تَأْوِيلِ لَصَفَى الرِّقَ فِي جِيلٍ أَوْ جِيلَيْنِ عَلَى الْأَكْثَرِ دُونَ أَنْ تَحْدُثَ فِي الْمَجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ هَزَاتٌ اقْتِصَادِيَّةٌ وَنَكَبَاتٌ إِنْسَانِيَّةٌ مِنْ جَرَاءِ تَحْرِيمِ الرِّقَ طُفْرَةً وَاحِدَةً ، وَلَكِنَّهَا أَهْوَاءُ النَّاسِ وَانْخِرَافَاتُ الْأُمَرَاءِ وَجَشَعُ النِّخَاسِينَ الَّتِي أَبْقَتْ الرِّقَ فِي الْإِسْلَامِ دُونَ سَنْدٍ مِنْ شَرِيعَةِ اللَّهِ أَوْ سَنَةِ رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

القاهرة في ٢٢/١٢/١٩٦٨

— ٢٦٦ —

المراجع

- | | |
|---|--------------------------|
| القرآن الكريم | |
| الكتاب المقدس | |
| صحيح البخارى | |
| السيرة النبوية | لابن هشام |
| السيرة الحلبية | لعلى برهان الدين الحلبي |
| الروض الآنف | للسهلي |
| تاريخ الطبرى | |
| أسباب النزول | |
| الجامع لأحكام القرآن | للقرطبي |
| شرح نهج البلاغة | لابن أبى الحديد |
| المقدمة | لابن خلدون |
| الحرية فى الإسلام | للدكتور عبد الواحد وافي |
| الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام | |
| المستشرقون والإسلام | للمستشار على منصور . |
| أبناء أبى بكر الصديق | للمهندس زكريا هاشم زكريا |
| بلال داعى السماء | للمؤلف |
| حسان بن ثابت | لعباس محمود العقاد |
| نساء النبى | للدكتور سيد حنفى حسنين |
| | للدكتورة بنت الشاطىء |

— ٢٦٧ —

أهل بيت النبي	للمؤلف
الرسول . حياة محمد	ر . ف بودلى ترجمة : محمد محمد فرج
	وعبد الحميد جودة السحار

A Literary History of the Arabs By Nichilson

Muslim Institutions By Maurice Gauderoy – Demombynes.

الأغاني	لأبى الفرج الأصفهاني
بلوغ الأرب	للألوسي
نهاية الأرب	للنويزي

للمؤلف

الطبعة الأولى

١٩٤٣ سنة مايو	قصة	. أحسن بطل الاستقلال
١٩٤٣ سنة يوليو		أبو ذر الغفاري
١٩٤٤ سنة مايو		بلال مؤذن الرسول
١٩٤٤ سنة ديسمبر	مجموعة أقاصيص	في الوظيفة
١٩٤٥ سنة يوليو		سعد بن أبي وقاص
١٩٤٦ سنة فبراير	مجموعة أقاصيص	همزات الشياطين
١٩٤٦ سنة أكتوبر		أبناء أبي بكر الصديق
١٩٤٧ سنة يناير		الرسول (حياة محمد ترجمه مع محمد محمد فرج)
١٩٤٧ سنة	رواية	في قافلة الزمان
١٩٤٨ سنة مايو		أهل بيت النبي
١٩٤٩ سنة	قصة	أميرة قرطبة
١٩٥٠ سنة مايو	قصة	النقاب الأزرق
١٩٥١ سنة		المسيح عيسى بن مريم
١٩٥٢ سنة		قصص من الكتب المقدسة
١٩٥٢ سنة	رواية	الشارع الجديد
١٩٥٣ سنة	مجموعة أقاصيص	صدى السنين
١٩٥٤ سنة		حياة الحسين
١٩٥٤ سنة	قصة	قلعة الأبطال
١٩٥٧ سنة ديسمبر	قصة	المستنق
١٩٥٨ سنة يناير		أم العروسة
١٩٥٨ سنة مارس	قصة	وكان مساء
١٩٥٨ سنة يوليو	قصة	أذرع وسيقان

الطبعة الأولى		
سنة ١٩٥٩	مجموعة أقاصيص	أرملة من فلسطين
سبتمبر سنة ١٩٥٩	رواية	الحصاد
سنة ١٩٦١		القصة من خلال تجاربي الذاتية
أكتوبر سنة ١٩٦٢	قصة	جسر الشيطان
ديسمبر سنة ١٩٦٣	مجموعة أقاصيص	ليلة عاصفة
يناير سنة ١٩٦٤	قصة	النصف الآخر
يونيو سنة ١٩٦٥	رواية	السهول البيض
يوليو سنة ١٩٦٧		وعد الله وأسر ايل
يناير سنة ١٩٧٢	قصة	عمر بن عبد العزيز
أكتوبر سنة ١٩٧٢	قصة	الحفيد
فبراير سنة ١٩٧٥		هذه حياتي
أبريل سنة ١٩٧٥		مذكرات سينائية

القصصُ الديني

(للأطفال)

في ١٨ جزءا	قصص الأنبياء
في ٢٤ جزءا	قصص السيرة
في ٢٠ جزءا	قصص الخلفاء الراشدين
في ٢٤ جزءا	العرب في أوروبا

مَحَدُ رَسُولِ اللَّهِ

وَالَّذِينَ مَعَهُ

في عشرين جزءاً

- | | |
|-------------|---------------------------|
| أكتوبر ١٩٦٥ | ١ — إبراهيم أبو الأنبياء |
| مارس ١٩٦٦ | ٢ — هاجر المصرية أم العرب |
| سبتمبر ١٩٦٦ | ٣ — بنو إسماعيل |
| فبراير ١٩٦٧ | ٤ — العدنانيون |
| مايو ١٩٦٧ | ٥ — قريش |
| يولية ١٩٦٧ | ٦ — مولد الرسول |
| أكتوبر ١٩٦٧ | ٧ — اليتيم |
| يناير ١٩٦٨ | ٨ — خديجة بنت خويلد |
| مارس ١٩٦٨ | ٩ — دعوة إبراهيم |
| مارس ١٩٦٨ | ١٠ — عام الحزن |
| سبتمبر ١٩٦٨ | ١١ — الهجرة |
| نوفمبر ١٩٦٨ | ١٢ — غزوة بدر |
| يناير ١٩٦٩ | ١٣ — غزوة أحد |
| مايو ١٩٦٩ | ١٤ — غزوة الخندق |
| يونية ١٩٦٩ | ١٥ — صلح الحديبية |
| نوفمبر ١٩٦٩ | ١٦ — فتح مكة |
| نوفمبر ١٩٧٠ | ١٧ — غزوة تبوك |
| مايو ١٩٧٠ | ١٨ — عام الوفود |
| نوفمبر ١٩٧٠ | ١٩ — حجة الوداع |
| ديسمبر ١٩٧٠ | ٢٠ — وفاة الرسول |

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البخالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السخار وشركاه